الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل

الزمخشري

العلامة جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى المولود في رجب عام 467 هـ / 1074م والمتوفي ليلة عرفة عام 538 هـ/ 1143م

المجلد الثامن

تتمة سورة الكهف

وابن عمر وابن عمرو والحسن. وقرأ ابن عباس : حمئة. وكان ابن عباس عند معاوية ، فقرأ معاوية : حامية فقال ابن عباس : حمئة. فقال معاوية لعبد اللّه بن عمرو : كيف تقرأ؟ قال : كما يقرأ أمير المؤمنين ثم وجه إلى كعب الأحبار. كيف تجد الشمس تغرب؟ قال. في ماء وطين ، كذلك نجده في التوراة. وروى : في ثأط ، فوافق قول ابن عباس ، وكان ثمة رجل فأنشد قول تبع.

فرأى مغيب الشّمس عند مآبها في عين ذى خلب وثاط حرمد «1» أى في عين ماء ذى طين وحمإ أسود ، ولا تنافى بين الحمئة والحامية ، فجائز أن تكون العين جامعة للوصفين جميعا. كانوا كفرة فخيره اللّه بين أن يعذبهم بالقتل وأن يدعوهم إلى الإسلام ، فاختار الدعوة والاجتهاد في استمالتهم فقال : أمّا من دعوته فأبى إلا البقاء على الظلم العظيم الذي هو الشرك : فذلك هو المعذب في الدارين وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ ما يقتضيه الإيمان فَلَهُ جَزاءً الْحُسْنى وقيل : خيره بين القتل والأسر ، وسماه إحسانا في مقابلة القتل فَلَهُ جَزاءً الْحُسْنى فله أن يجازى المثوبة الحسنى. أو فله جزاء الفعلة الحسنى التي هي كلمة الشهادة. وقرئ : فله جزاء الحسنى ، أى : فله الفعلة الحسنى جزاء. وعن قتادة : كان يطبخ من كفر في القدور ،

(1) قد كان ذو القرنين جدي مسلما ملكا تدين له الملوك وتسجد
بلغ المغارب والمشارق يبتغى أسباب أمر من حكيم مرشد
فرأى مغار الشمس عند مآبها في عين ذى خلب وثأط حرمد
لتبع الأكبر اليماني المذكور في القرآن ، يفتخر بجده إسكندر ذى القرنين ابن فيلسوف اليونانى. ويروى : مر ، بدل جدي. وتدين أى تنقاد. وروى بدله : «علا في الأرض غير مفند» أى غير مكذب ، فلا عيب في القافية والخلب - بضمتين - : الحمأة وهي الطين. والثأط : الحمأة المختلطة بالماء ، فتزيد رطوبة وتفسد. والحرمد : الطين الأسود. مدح ذا القرنين ثم قال : إنه بلغ مواضع غروب الشمس ومواضع شروقها ، يبتغى من اللّه أسبابا توصله لمقصده ، فرأى محلى غيار الشمس عند مآبها ، أى رجوعها إليه. ويروى مآب الشمس عند مغيبها : أى غيبوبتها.
وفي عين : متعلق بغار. أو بمحذوف ، أى : رآها تغرب في عين. ويجوز أنه حال من المغار ، لأن العين أوسع منه ، أى في عين ماء ذى طين أسود مختلط بماء ، وهذا موافق لظاهر الآية. وأولها أبو على الجبائي بأن ذلك على سبيل التخييل ، كما أن من لم ير الشاطئ الغربي من البحر المتسع يرى الشمس تغرب فيه ، وفي الحقيقة تغرب في ظلمة وراء الأبيض ، لأن الأرض كروية.

وهو العذاب النكر. ومن آمن أعطاه وكساه مِنْ أَمْرِنا يُسْراً أى لا نأمره بالصعب الشاق ، ولكن بالسهل المتيسر من الزكاة والخراج وغير ذلك ، وتقديره : ذا يسر ، كقوله قَوْلًا مَيْسُوراً وقرئ : يسرا ، بضمتين.

[سورة الكهف (18) : الآيات 89 إلى 91]

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً (89) حَتَّى إِذا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَها تَطْلُعُ عَلى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِها سِتْراً (90) كَذلِكَ وَقَدْ أَحَطْنا بِما لَدَيْهِ خُبْراً (91)

وقرئ : مطلع ، بفتح اللام وهو مصدر. والمعنى : بلغ مكان مطلع الشمس ، كقوله :

كأنّ مجرّ الرّامسات ذيولها «1»

يريد : كأن آثار مجرّ الرامسات عَلى قَوْمٍ قيل : هم الزنج. والستر : الأبنية ، وعن كعب : أرضهم لا تمسك الأبنية وبها أسراب ، فإذا طلعت الشمس دخلوها. فإذا ارتفع النهار خرجوا إلى معايشهم. وعن بعضهم : خرجت حتى جاوزت الصين ، فسألت عن هؤلاء فقيل : بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة ، فبلغتهم فإذا أحدهم يفرش أذنه ويلبس الأخرى ، ومعى صاحب يعرف لسانهم فقالوا له : جئتنا تنظر كيف تطلع الشمس؟ قال : فبينا نحن كذلك إذ سمعنا كهيئة الصلصلة «2» فغشى علىّ ، ثم أفقت ، وهم يمسحونني بالدهن ، فلما طلعت الشمس على الماء إذا هي فوق الماء كهيئة الزيت ، فأدخلونا سربا لهم ، فلما ارتفع النهار خرجوا إلى البحر فجعلوا يصطادون السمك ويطرحونه في الشمس فينضج لهم. وقيل : الستر اللباس. وعن مجاهد : من لا يلبس الثياب من السودان

(1) كأن مجر الرامسات ذيولها عليه قضيم نمقته الصوانع
للنابغة ، والمجر ليس مكان الجر ، وإنما هو مصدر بمعنى الجر ، لأنه لو كان اسم مكان لما عمل النصب ، ثم يجب تقدير مضاف ليصح الاخبار عنه بأنه قضيم أى موضع مجر ، أى كان المحل الذي تجر الرياح الرامسات ذيولها عليه قضيم ، أى جلد أبيض نمقته وحسنته الصوانع للكتابة. وسميت الرياح رامسات من الرمس أى التغييب ، لأنها تحمل التراب وتلقيه على الآثار فيدفنها. واستعار الذيول لما يلي الأرض من الرياح على طريق التصريح. ويجوز أن تشبه الرياح بنساء لثيابهن ذيول طويلة يجررنها على الأرض ، والذيول تخييل.
(2). قوله «إذ سمعنا كهيئة الصلصلة» في الصحاح «الصلة» واحدة الصلال ، وهي القطع من الأمطار المتفرقة يقع منها الشيء بعد الشيء ، وصلصلة اللجام : صوته إذا ضوعف. (ع)

وقيل : بلغ مطلع الشمس مثل ذلك ، أى : كما بلغ مغربها. وقيل : تطلع على قوم مثل ذلك القبيل الذي تغرب عليهم ، يعنى أنهم كفرة مثلهم وحكمهم مثل حكمهم في تعذيبه لمن بقي منهم على الكفر ، وإحسانه إلى من آمن منهم.

[سورة الكهف (18) : الآيات 92 إلى 93]

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً (92) حَتَّى إِذا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِما قَوْماً لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً (93)

بَيْنَ السَّدَّيْنِ بين الجبلين وهما جبلان سدّ ذو القرنين ما بينهما. قرئ : بالضم والفتح.

وقيل : ما كان من خلق الله تعالى فهو مضموم ، وما كان من عمل العباد فهو مفتوح ، لأنّ السد بالضم فعل بمعنى مفعول ، أى : هو مما فعله الله تعالى وخلقه. والسدّ - بالفتح - : مصدر حدث يحدثه الناس. وانتصب بَيْنَ على أنه مفعول به مبلوغ ، كما انجرّ على الإضافة في قوله هذا فِراقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ وكما ارتفع في قوله لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ لأنه من الظروف التي تستعمل أسماء وظروفا ، وهذا المكان في منقطع أرض الترك مما يلي المشرق مِنْ دُونِهِما قَوْماً هم الترك لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا لا يكادون يفهمونه إلا بجهد ومشقة من إشارة ونحوها كما يفهم البكم. وقرئ : يفقهون ، أى : لا يفهمون السامع كلامهم ولا يبينونه ، لأنّ لغتهم غريبة مجهولة.

[سورة الكهف (18) : آية 94]

قالُوا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا(94)

يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ اسمان أعجميان بدليل منع الصرف. وقرئا : مهموزين. وقرأ رؤبة : آجوج ومأجوج ، وهما من ولد يافث. وقيل : يأجوج من الترك ، ومأجوج من الجيل والديلم «1» مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ قيل : كانوا يأكلون الناس ، وقيل : كانوا يخرجون أيام الربيع فلا يتركون شيئا أخضر إلا أكلوه ، ولا يابسا إلا احتملوه ، وكانوا يلقون منهم قتلا وأذى شديدا. وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم في صفتهم : لا يموت أحد منهم حتى ينظر إلى ألف ذكر من صلبه ، كلهم قد حمل السلاح «2». وقيل : هم على صنفين ، طوال مفرط والطول ،

(1). قوله «من الجيل والديلم» كذا عبارة النسفي أيضا ، ولعله «من جيل الديلم» وفي الصحاح : جيل من الناس ، أى : صنف ، الترك جيل ، والروم جيل. وفيه : الديلم جيل من الناس. (ع)
(2). أخرجه ابن عدى. والطبراني في الأوسط وابن مردويه. والثعلبي وغيرهم من رواية يحيى بن سعيد عن محمد بن إسحاق عن الأعمش ، عن شقيق. عن حذيفة قال «سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن يأجوج ومأجوج فقال : يأجوج أمة. ومأجوج أمة. كل أمة أربعة آلاف لا يموت الرجل منهم حتى ينظر إلى ألف ذكر من صلبه كلهم قد حمل السلاح» قال ابن عدى : هذا موضوع. ومحمد بن إسحاق هذا ليس هو صاحب المغازي. وإنما هو العكاش وذكره ابن الجوزي في الموضوعات من هذا الوجه فلم يصب فان له طريقا أخرى ففي صحيح ابن حبان عن ابن مسعود مرفوعا «إن يأجوج ومأجوج أقل ما يترك أحدهم لصلبه ألفا» وفي النسائي عن عمرو بن أوس عن أبيه رفعه «أن يأجوج ومأجوج يجامعون ما شاءوا. ولا يموت رجل منهم إلا ترك من ذريته ألفا فصاعدا. وفي المستدرك عن عبد الله ابن عمرو رفعه «إن يأجوج ومأجوج من ولد آدم ولن يموت رجل منهم إلا ترك من ذريته ألفا فصاعدا»

وقصار مفرطو القصر. قرئ : خرجا وخراجا ، أى جعلا نخرجه من أموالنا : ونظيرهما : النول والنوال. وقرئ : سدا ، وسدا بالفتح والضم.

[سورة الكهف (18) : الآيات 95 إلى 97]

قالَ ما مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً (95) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذا ساوى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذا جَعَلَهُ ناراً قالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً (96) فَمَا اسْطاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطاعُوا لَهُ نَقْباً (97)

ما مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ما جعلني فيه مكينا من كثرة المال واليسار ، خير مما تبذلون لي من الخراج ، فلا حاجة بى إليه ، كما قال سليمان صلوات الله عليه فَما آتانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتاكُمْ قرئ بالإدغام وبفكه فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ بفعلة وصناع يحسنون البناء والعمل ، وبالآلات رَدْماً حاجزا حصينا موثقا ، والردم أكبر من السدّ ، من قولهم : ثوب مردم ، رقاع فوق رقاع. قيل : حفر الأساس «1» حتى بلغ الماء ، وجعل الأساس من الصخر والنحاس المذاب والبنيان من زبر الحديد ، بينهما الحطب «2» والفحم حتى سد ما بين الجبلين إلى أعلاهما ، ثم وضع المنافيخ حتى إذا صارت كالنار ، صب النحاس المذاب على الحديد المحمى فاختلط والتصق بعضه ببعض وصار جبلا صلدا. وقيل : بعد ما بين السدين مائة فرسخ. وقرئ : سوّى ، وسووى.

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّ رجلا أخبره به فقال : كيف رأيته؟ قال كالبرد «3» المحبر طريقة سوداء وطريقة حمراء.

(1). قوله «قيل حفر الأساس» لعله : للأساس. (ع)
(2). قوله «بينهما الحطب» لعله : بينها. (ع) [.....]
(3). أخرجه الطبري من رواية سعيد بن أبى عروبة عن قتادة. قال «ذكر لنا أن رجلا قال : يا رسول الله ، قد رأيت سد يأجوج ومأجوج. قال انعته لي قال ، كالبرد المحبر. طريقة سوداء وطريقة حمراء قال قد رأيته» ورواه ابن أبى عمر عن سفيان بن عيينة عن سعيد عن قتادة عن رجل من أهل المدينة ، أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم» رأيت الردم فذكر نحوه ، ورواه الطبراني في مسند الشاميين. وابن مردويه عنه من رواية سعيد بن بشير عن قتادة عن رجل عن أبى بكرة الثقفي «أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فذكر نحوه ، لكن قال. طريقة حمراء من نحاس : وطريقة سوداء من حديد» وأخرج البزار من وجه آخر عن يوسف بن أبى مريم الحنفي. قال «بينما أنا قاعد مع أبى بكرة إذ جاء رجل فسلم عليه. فقال له أبو بكرة من أنت «قال تعلم رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره أنه رأى الردم. فقال له أبو بكرة : وأنت هو؟ قال : نعم. قال : اجلس حدثنا. قال : انطلقت حتى أتيت أرضا ليس لهم إلا الحديد يعلمونه. فذكر القصة والحديث. وقال : لا نعلم له رواية عن النبي صلى الله عليه وسلم غير أبى بكرة.

قال «قد رأيته» والصدفان - بفتحتين - : جانبا الجبلين ، لأنهما يتصادفان أى يتقابلان ، وقرئ : الصدفين ، بضمتين. والصدفين ، بضمة وسكون. والصدفين ، بفتحة وضمة. والقطر : النحاس المذاب لأنه يقطر وقِطْراً منصوب بأفرغ. وتقديره.

آتوني قطرا أفرغ عليه قطرا ، فحذف الأول لدلالة الثاني عليه. وقرئ : قال ائتوني ، أى جيئوني فَمَا اسْطاعُوا بحذف التاء للخفة ، لأنّ التاء قريبة المخرج من الطاء. وقرئ : فما اصطاعوا بقلب السين صادا. وأما من قرأ بإدغام التاء في الطاء ، فملاق بين ساكنين على غير الحدّ أَنْ يَظْهَرُوهُ أن يعلوه ، أى : لا حيلة لهم فيه من صعود ، لارتفاعه وانملاسه ، ولا نقب لصلابته وثخانته.

[سورة الكهف (18) : آية 98]

قالَ هذا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (98)

هذا إشارة إلى السد ، أى : هذا السد نعمة من الله ورَحْمَةٌ على عباده. أو هذا الإقدار والتمكين من تسويته فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي يعنى فإذا دنا مجيء يوم القيامة وشارف أن يأتى جعل السد دَكَّاءَ أى مدكوكا مبسوطا مسوّىبالأرض ، وكل ما انبسط من بعد ارتفاع فقد اندك. ومنه : الجمل الأدك : المنبسط السنام. وقرئ : دكاء ، بالمد : أى أرضا مستوية وَكانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا آخر حكاية قول ذى القرنين.

[سورة الكهف (18) : آية 99]

وَتَرَكْنا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْناهُمْ جَمْعاً (99)

وَتَرَكْنا وجعلنا بَعْضَهُمْ بعض الخلق يَمُوجُ فِي بَعْضٍ أى يضطربون ويختلطون إنسهم وجنهم حيارى. ويجوز أن يكون الضمير ليأجوج ومأجوج ، وأنهم يموجون حين يخرجون مما وراء السد مزدحمين في البلاد. وروى :

[سورة الكهف (18) : الآيات 100 إلى 101]

وَعَرَضْنا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكافِرِينَ عَرْضاً (100) الَّذِينَ كانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً (101)

(1). قوله «ثم يبعث الله نغفا في أقفائهم» أى دودا ، أفاده الصحاح. (ع)

وَعَرَضْنا جَهَنَّمَ وبرّزناها لهم فرأوها وشاهدوها عَنْ ذِكْرِي عن آياتي التي ينظر إليها فأذكر بالتعظيم. أو عن القرآن وتأمل معانيه وتبصرها ، ونحوه صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ. وَكانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً يعنى وكانوا سمعا عنه ، إلا أنه أبلغ ، لأنّ الأصم قد يستطيع السمع إذا صيح به ، وهؤلاء كأنهم أصميت أسماعهم «1» فلا استطاعة بهم للسمع.

[سورة الكهف (18) : آية 102]

أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبادِي مِنْ دُونِي أَوْلِياءَ إِنَّا أَعْتَدْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ نُزُلاً (102)

عِبادِي مِنْ دُونِي أَوْلِياءَ هو الملائكة ، يعنى : أنهم لا يكونون لهم أولياء ، كما حكى عنهم سُبْحانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنا مِنْ دُونِهِمْ. وقرأ ابن مسعود : أفظن الذين كفروا. وقراءة على رضى الله عنه أفحسب الذين كفروا ، أى : أفكافيهم ومحسبهم أن يتخذوهم أولياء على الابتداء والخبر. أو على الفعل والفاعل ، لأنّ اسم الفاعل إذا اعتمد على الهمزة ساوى الفعل في العمل ، كقولك : أقائم الزيدان. والمعنى أنّ ذلك لا يكفيهم ولا ينفعهم عند الله كما حسبوا. وهي قراءة محكمة جيدة. النزل : ما يقام للنزيل وهو الضيف ، ونحوه فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ.

[سورة الكهف (18) : الآيات 103 إلى 106]

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالاً (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً (104) أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَلِقائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً (105) ذلِكَ جَزاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِما كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آياتِي وَرُسُلِي هُزُواً (106)

ضَلَّ سَعْيُهُمْ ضاع وبطل وهم الرهبان. عن على رضى الله عنه ، كقوله عامِلَةٌ ناصِبَةٌ وعن مجاهد : أهل الكتاب. وعن على رضى الله عنه : أنّ ابن الكوّا سأله عنهم؟ فقال : منهم أهل حروراء. وعن أبى سعيد الخدري: يأتى ناس بأعمال يوم القيامة هي عندهم في العظم كجبال تهامة ، فإذا وزنوها لم تزن شيئا فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً فنزدري بهم ولا يكون لهم عندنا وزن ومقدار. وقيل : لا يقام لهم ميزان ، لأنّ الميزان إنما يوضع لأهل الحسنات والسيئات من الموحدين. وقرئ : فلا يقيم ، بالياء.

(1). قوله «كأنهم أصميت أسماعهم» في الصحاح في مادة صمم : أصمه الله فصم. وفي مادة صما بالألف : أصميت الصيد إذا رميته فقتلته ، فقوله : أصميت ، لعله بمعنى أهلكت بالمرة بحيث لا يمكن أن تسمع. (ع)

فإن قلت : الذين ضل سعيهم في أى محل هو؟ قلت : الأوجه أن يكون في محل الرفع ، على : هم الذين ضل سعيهم ، لأنه جواب عن السؤال. ويجوز أن يكون نصبا على الذم ، أو جرّا على البدل جَهَنَّمُ عطف بيان لقوله جَزاؤُهُمْ «1».

[سورة الكهف (18) : الآيات 107 إلى 108]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً (107) خالِدِينَ فِيها لا يَبْغُونَ عَنْها حِوَلاً(108)

الحول : التحوّل. يقال : حال من مكانه حولا ، كقولك : عادني حبها عودا ، يعنى : لا مزيد عليها حتى تنازعهم أنفسهم إلى أجمع لأغراضهم وأمانيهم. وهذه غاية الوصف ، لأن الإنسان في الدنيا في أى نعيم كان فهو طامح الطرف إلى أرفع منه. ويجوز أن يراد نفى التحوّل وتأكيد الخلود.

[سورة الكهف (18) : آية 109]

قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً (109)

المداد : اسم ما تمد به الدواة من الحبر وما يمد به السراج من السليط. ويقال : السماء مداد الأرض. والمعنى : لو كتبت كلمات علم الله وحكمته وكان البحر مدادا لها ، والمراد بالبحر الجنس لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ الكلمات وَلَوْ جِئْنا بمثل البحر مدادا لنفد أيضا.

والكلمات غير نافدة. ومَدَداً تمييز ، كقولك : لي مثله رجلا. والمدد مثل المداد ، وهو ما يمدّ به. وعن ابن عباس رضى الله عنه : بمثله مدادا. وقرأ الأعرج : مددا ، بكسر الميم جمع مدّة ، وهي ما يستمده الكاتب فيكتب به. وقرئ : ينفد بالياء. وقيل : قال حيىّ بن أخطب : في كتابكم وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً ثم تقرءون وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا فنزلت ، يعنى : أن ذلك خير كثير ، ولكنه قطرة من بحر كلمات الله.

[سورة الكهف (18) : آية 110]

قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (110)

فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فمن كان يؤمل حسن لقاء ربه ، وأن يلقاه لقاء رضا وقبول.

وقد فسرنا اللقاء. أو : أفمن كان يخاف سوء لقائه. والمراد بالنهى عن الإشراك بالعبادة : أن لا يرائى بعمله ،

(1). قوله «عطف بيان لقوله جزاؤهم الحول» كذا في النسفي أيضا ، لكن المتجه أنه بيان لقوله «ذلك» الذي هو إشارة لما مر في قوله إِنَّا أَعْتَدْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ نُزُلًا. (ع)

وأن لا يبتغى به إلا وجه ربه خالصا لا يخلط به غيره. وقيل : نزلت في جندب ابن زهير ، قال للنبي صلى الله عليه وسلم : إنى أعمل العمل لله ، فإذا اطلع عليه سرني ، فقال : «إن الله لا يقبل ما شورك «1» فيه» وروى أنه قال : «لك أجران : أجر السر ، وأجر العلانية» «2» وذلك إذا قصد أن يقتدى به. وعنه صلى الله عليه وسلم : «اتقوا الشرك الأصغر» قالوا : وما الشرك الأصغر؟ قال «الرياء» «3» وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم. «من قرأ سورة الكهف من آخرها كانت له نورا من قرنه إلى قدمه ، ومن قرأها كلها كانت له نورا من الأرض إلى السماء «4»» وعنه صلى الله عليه وسلم : «من قرأ عند مضجعه قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ كان له من مضجعه نورا يتلألأ إلى مكة ، حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يقوم ، وإن كان مضجعه بمكة كان له نورا يتلألأ من مضجعه إلى البيت المعمور حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يستيقظ» «5» والله أعلم.

(1). أخرجه الواحدي في الأسباب عن ابن عباس ولم يسق سنده.
(2). أخرجه الترمذي وابن ماجة. وابن حبان - وأبو يعلى. والبزار عن أبى هريرة. قال قال رجل «يا رسول الله ، إنى أعمل العمل فيطلع عليه فيعجبني. قال لك أجران. أجر السرّ. وأجر العلانية» أخرجوه كلهم من حديث ابن سنان سعيد بن سنان عن حرب بن أبى ثابت عن أبى صالح عنه. قال الترمذي رواه الأعمش عن حبيب عن أبى صالح مرسلا. وقال ابن أبى حاتم قال أبى الصحيح عندي مرسل ، رواه يوسف بن أسباط عن الثوري عن حبيب.
عن أبى صالح عن أبى ذر وأخرجه أبو نعيم في الحلية. وقال : لم يقل أحد عن أبى ذر إلا ابن أسباط. ورواه يحيى بن يمان عن الثوري فقال عن ابن مسعود. أخرجه الطبراني ، قال أبو نعيم. ورواه قبيصة عن الثوري فقال عن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه.
(3). أخرجه ابن مردويه من طريق إسماعيل بن جعفر عن العلاء عن أبيه عن أبى هريرة بهذا ومن هذا الوجه أخرجه الثعلبي. وأبو قاسم الطلحي في الترغيب. وفي الباب عن محمود بن لبيد. ورفعه «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر. قالوا يا رسول الله وما الشرك الأصغر؟ قال الرياء» أخرجه أحمد والدارقطني. في غرائب مالك والبيهقي. في الشعب من رواية عمرو بن أبى عمرو بن قتادة عنه. وعن شداد بن أوس قال «كنا نعد الرياء على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم : الشرك الأصغر» أخرجه الطبراني وابن مردويه. وفي إسناده ابن لهيعة.
(4). أخرجه أحمد والنسائي من حديث معاذ بن أنس. وفي إسناده ابن لهيعة. أخرجه الطبراني من رواية رشدين بن سعد كلاهما عن زياد بن فايد وهم من الضعفاء.

(5). أخرجه إسحاق والبزار من رواية النضر بن شميل. حدثنا أبو فررة الأسدى رجل من أهل البادية. سمعت سعيد بن المسيب يحدث عن عمر رفعه «من قرأ في ليلته فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ. الآية كان له نور من عدن إلى مكة حشوه الملائكة» ورواه الثعلبي من هذا الوجه. «و زاد يصلون عليه ويستغفرون له» ورواه ابن مردويه من حديث أبى بن كعب باللفظ الأول وقد سبق سنده في آل عمران.

الجزء الثالث

سورة مريم

بسم الله الرحمن الرحيم مكية [إلا آيتي 58 و71 فمدنيتان] وآياتها 98 [نزلت بعد سورة فاطر]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة مريم (19) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

كهيعص (1) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (2) إِذْ نادى رَبَّهُ نِداءً خَفِيًّا (3)

كهيعص قرأ بفتح الهاء «1» وكسر الياء حمزة ، وبكسرهما عاصم ، وبضمهما الحسن.

وقرأ الحسن ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ أى : هذا المتلوّ من القرآن ذكر رحمة ربك. وقرئ : ذكر ، على الأمر «2». راعى سنة الله في إخفاء دعوته ، لأنّ الجهر والإخفاء عند الله سيان ، فكان الإخفاء أولى ، لأنه أبعد من الرياء وأدخل في الإخلاص. وعن الحسن : نداء لا رياء فيه ، أو أخفاه لئلا يلام على طلب الولد في إبان الكبرة والشيخوخة «3». أو أسره من مواليه الذين خافهم. أو خفت صوته لضعفه وهرمه ، كما جاء في صفة الشيخ : صوته خفات ، وسمعه تارات.

---

(1). قوله «كهيعص قرأ بفتح الهاء» عبارة النسفي. قرأ على ويحيى بكسر الهاء والياء ، ونافع بين الفتح والكسر ، وإلى الفتح أقرب. وأبو عمرو بكسر الهاء وفتح الياء. وحمزة بعكسه. وغيرهم بفتحهما. (ع)

(2). قوله «و قرأ الحسن ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ أى هذا الخ» يحتاج إلى تحرير ، فان الرفع قراءة الجمهور. وقوله «ذكر على الأمر» أى ورَحْمَةِ رَبِّكَ بالنصب. (ع)

(3). قوله «في إبان الكبرة والشيخوخة» في الصحاح : الكبر في السن ، والاسم الكبرة بالفتح. وفيه أيضا : شاخ الرجل يشيخ شيخا بالتحريك : جاء على أصله ، وشيخوخة اه وليس فيه شيوخة. وفيه أيضا : إبان الشيء بالكسر والتشديد : وقته وأوانه. (ع)

واختلف في سنّ زكريا عليه السلام ، فقيل : ستون ، وخمس وستون ، وسبعون ، وخمس وسبعون ، وخمس وثمانون.

[سورة مريم (19) : آية 4]

قالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (4)

قرئ وَهَنَ بالحركات الثلاث ، وإنما ذكر العظم لأنه عمود البدن وبه قوامه وهو أصل بنائه ، فإذا وهن تداعى وتساقطت قوته ، ولأنه أشد ما فيه وأصلبه ، فإذا وهن كان ما وراءه أوهن. ووحده لأن الواحد هو الدال على معنى الجنسية ، وقصده إلى أن هذا الجنس الذي هو العمود والقوام وأشد ما تركب منه الجسد قد أصابه الوهن ، ولو جمع لكان قصدا إلى معنى آخر ، وهو أنه لم يهن منه بعض عظامه ولكن كلها. إدغام السين في الشين عن أبى عمرو. شبه الشيب بشواظ النار في بياضه وإنارته وانتشاره في الشعر وفشوّه فيه وأخذه منه كل مأخذ ، باشتعال النار ، ثم أخرجه مخرج الاستعارة ، ثم أسند الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس. وأخرج الشيب مميزا ولم يضف الرأس : اكتفاء بعلم المخاطب أنه رأس زكريا ، فمن ثم فصحت هذه الجملة وشهد لها بالبلاغة. توسل إلى الله بما سلف له من الاستجابة. وعن بعضهم أن محتاجا سأله وقال : أنا الذي أحسنت إلىّ وقت كذا. فقال : مرحبا بمن توسل بنا إلينا ، وقضى حاجته.

[سورة مريم (19) : الآيات 5 إلى 6]

وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوالِيَ مِنْ وَرائِي وَكانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (5) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (6)

كان مواليه - وهم عصبته إخوته وبنو عمه - شرار بنى إسرائيل ، فخافهم على الدين أن يغيروه ويبدّلوه ، وأن لا يحسنوا الخلافة على أمته ، فطلب عقبا من صلبه صالحا يقتدى به في إحياء الدين ويرتسم مراسمه فيه مِنْ وَرائِي بعد موتى. وقرأ ابن كثير : من وراي ، بالقصر ، وهذا الظرف لا يتعلق بخِفْتُ لفساد المعنى ، ولكن بمحذوف. أو بمعنى الولاية في الموالي : أى خفت فعل الموالي وهو تبديلهم وسوء خلافتهم من ورائي. أو خفت الذين يلون الأمر من ورائي.

وقرأ عثمان ومحمد بن على وعلى بن الحسين رضى الله عنهم. خفت الموالي من ورائي ، وهذا على معنيين ، أحدهما : أن يكون وَرائِي بمعنى خلفي وبعدي ، فيتعلق الظرف بالموالي : أى قلوا وعجزوا عن إقامة أمر الدين، فسأل ربه تقويتهم ومظاهرتهم بولىّ يرزقه. والثاني : أن يكون بمعنى قدامى ، فيتعلق بخِفْتُ ، ويريد أنهم خفوا قدامه ودرجوا ولم يبق منهم من به تقوّ واعتضاد مِنْ لَدُنْكَ تأكيد لكونه وليا مرضيا ، بكونه مضافا إلى الله تعالى وصادرا من عنده ، وإلا - فهب لي وليا يرثني - كاف ، أو أراد اختراعا منك بلا سبب لأنى وامرأتى لا نصلح للولادة يَرِثُنِي وَيَرِثُ الجزم جواب الدعاء ، والرفع صفة. ونحوه رِدْءاً يُصَدِّقُنِي وعن ابن عباس والجحدري : يرثنى وارث آل يعقوب ، نصب على الحال. وعن الجحدري : أو يرث ، على تصغير وارث ، وقال : غليم صغير. وعن على رضى الله عنه وجماعة : وارث من آل يعقوب : أى يرثني به وارث ، ويسمى التجريد في علم البيان ، والمراد بالإرث إرث الشرع والعلم ، لأنّ الأنبياء لا تورّث المال. وقيل يرثني الحبورة وكان حبرا ، ويرث من آل يعقوب الملك. يقال : ورثته وورثت منه لغتان. وقيل «من» للتبعيض لا للتعدية ، لأنّ آل يعقوب لم يكونوا كلهم أنبياء ولا علماء ، وكان زكريا عليه السلام من نسل يعقوب بن إسحاق. وقيل : هو يعقوب بن ماثان أخو زكريا. وقيل : يعقوب هذا وعمران أبو مريم أخوان من نسل سليمان بن داود.

[سورة مريم (19) : آية 7]

يا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (7)

سَمِيًّا لم يسمّ أحد بيحيى قبله ، وهذا شاهد على أنّ الأسامى السنع جديرة بالأثرة ، وإياها كانت العرب تنتحى في التسمية لكونها أنبه وأنوه وأنزه عن النبز ، حتى قال القائل في مدح قوم :

سنع الأسامى مسبلى أزر حمر تمس الأرض بالهدب «1»

وقال رؤبة للنسابة البكري - وقد سأله عن نسبه - : أنا ابن العجاج ، فقال : قصرت وعرفت.

وقيل : مثلا وشبيها عن مجاهد ، كقوله هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا وإنما قيل للمثل «سمىّ» لأنّ كل متشاكلين يسمى كل واحد منهما باسم المثل والشبيه والشكل والنظير ، فكل واحد منهما سمىّ لصاحبه ، ونحو «يحيى» في أسمائهم «يعمر ، ويعيش» إن كانت التسمية عربية ، وقد سموا بيموت أيضا ، وهو يموت ابن المزرع ، قالوا : لم يكن له مثل في أنه لم يعص ولم يهم بمعصية قط ، وأنه ولد بين شيخ فان وعجوز عاقر ، وأنه كان حصورا.

(1). يقال سنع الرجل كظرف ، فهو سنيع أى جميل ، وأسنع ، والمرأة سنعاء ، وسنع جمع أسنع : أى أسماؤهم حسنة ، فهي أنبه وأنوه وأنزه عن النبز ، والحمر : صفة الأزر ، وتمس : صفة أخرى لها. وهدب الشيء : طرفه ، والمناسب للمعنى أن المراد به الجمع ، ويمكن أن يكون ضمنه مفردا كقفل ، وجمعا كفلك. ويجوز أنه اسم جمع ، ولذلك جاء في واحده هدبة. ومس الأرض بالأطراف : كناية عن طولها ، بل عن غناهم وثروتهم اللازم له ذلك.

[سورة مريم (19) : آية 8]

قالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (8)

أى كانت على صفة العقر حين أنا شاب وكهل ، فما رزقت الولد لاختلال أحد السببين ، أفحين اختل السببان جميعا أرزقه؟ فإن قلت : لم طلب أو لا وهو وامرأته على صفة العتىّ والعقر «1» ، فلما أسعف بطلبته استبعدوا واستعجب؟ قلت : ليجاب بما أجيب به ، فيزداد المؤمنون إيقانا ويرتدع المبطلون ، وإلا فمعتقد زكريا أولا وآخرا كان على منهاج واحد : في أنّ الله غنى عن الأسباب ، أى بلغت عتيا : وهو اليبس والجساوة في المفاصل والعظام كالعود القاحل «2».

يقال : عتا العود وعسا من أجل الكبر والطعن في السن العالية. أو بلغت من مدارج الكبر ومراتبه ما يسمى عتيا. وقرأ ابن وثاب وحمزة والكسائي بكسر العين ، وكذلك صليا ، وابن مسعود بفتحهما «3» فيهما. وقرأ أبىّ ومجاهد : عسيا «4».

[سورة مريم (19) : آية 9]

قالَ كَذلِكَ قالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً (9)

كَذلِكَ الكاف رفع ، أى الأمر كذلك تصديق له ، ثم ابتدأ قالَ رَبُّكَ أو نصب بقال ، وذلك إشارة إلى مبهم يفسره هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ونحوه وَقَضَيْنا إِلَيْهِ ذلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ وقرأ الحسن : وهو على هين ، ولا يخرج هذا إلا على الوجه الأول : أى الأمر كما قلت ، وهو على ذلك يهون على. ووجه آخر : وهو أن يشار بذلك إلى ما تقدم من وعد الله ، لا إلى قول زكريا. و«قال» محذوف في كلتا القراءتين : أى قال هو علىّ هين قال وهو علىّ هين ، وإن شئت لم تنوه ، لأن الله هو المخاطب ، والمعنى أنه قال ذلك ووعده وقوله الحق شَيْئاً لأن المعدوم ليس بشيء.

(1). قال محمود : «ان قلت لم طلب أو لا وهو وامرأته على صفة العتي ... الخ» قال أحمد : وفيما أجاب به نظر ، لأنه التزم أن زكريا استبعد ما وعده الله عز وجل بوقوعه ، ولا يجوز للنبي النطق بما لا يسوغ ، لمثل هذه الفائدة التي عينها الزمخشري ويمكن حصولها بدونه ، فالظاهر في الجواب - والله أعلم - أن طلبة زكريا إنما كانت ولدا من حيث الجملة ، وبحسب ذلك أجيب ، وليس في الاجابة ما يدل على أنه يولد له وهو هرم ، ولا أنه من زوجته وهي عاقر ، فاحتمل عنده أن يكون الموعود وهما بهذه الحالة ، واحتمل أن تعاد لهما قوتهما وشبابهما ، كما فعل الله ذلك لغيرهما.
أو أن يكون الولد من غير زوجته العاقر ، فاستبعد الولد منهما وهما بحالهما ، فاستخبر أيكون وهما كذلك ، فقيل : كذلك ، أى : يكون الولد وأنتما كذلك ، فقد انصرف الإيعاد إلى عين الموعود فزال الاشكال ، والله أعلم. [.....]
(2). قوله «كالعود القاحل» أى اليابس ، كذا في الصحاح. (ع)
(3). قوله «بفتحهما» لعله بفتحها. (ع)
(4). قوله «عسيا» في الصحاح : عسى الشيخ يعسو عسيا : ولى وكبر ، مثل عتا. (ع)

أو شيئا يعتدّ به «1» ، كقولهم : عجبت من لا شيء ، وقوله :

إذا رأى غير شيء ظنّه رجلا «2»

وقرأ الأعمش والكسائي وابن وثاب : خلقناك.

[سورة مريم (19) : آية 10]

قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيالٍ سَوِيًّا (10)

أى اجعل لي علامة أعلم بها وقوع ما بشرت به. قال : علامتك أن تمنع الكلام فلا تطيقه ، وأنت سليم الجوارح سوىّ الخلق ، ما بك خرس ولا بكم. دل ذكر الليالي هنا ، والأيام في آل عمران ، على أن المنع من الكلام استمر به ثلاثة أيام ولياليهن.

[سورة مريم (19) : آية 11]

فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرابِ فَأَوْحى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (11)

أوحى : أشار عن مجاهد ، ويشهد له إِلَّا رَمْزاً. وعن ابن عباس : كتب لهم على الأرض سَبِّحُوا صلوا ، أو على الظاهر ، وأن : هي المفسرة.

[سورة مريم (19) : آية 12]

يا يَحْيى خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (12)

أى خذ التوراة بحد واستظهار بالتوفيق والتأييد الْحُكْمَ الحكمة. ومنه :

واحكم كحكم فتاة الحي «3»

(1). قال محمود : «إنما قيل ذلك لأن المعدوم ليس بشيء أو شيئا يعتد به ... الخ» قال أحمد : قسر أولا على ظاهر النفي الصرف وهو الحق ، لأن المعدوم ليس شيئا قطعا ، خلافا للمعتزلة في قولهم : إن المعدوم الممكن شيء.
ومن ثم كافح الزمخشري عن البقاء على التفسير الأول إلى الثاني بوجه من التأويل يلائم معتقد المعتزلة. فجعل المنفي الشيئية المعتد بها ، وإن كانت الشيئية المطلقة ثابتة عنده للمعدوم ، والحق بقاء الظاهر في نصابه.
(2) وضاقت الأرض حتى كان هاربهم إذا رأى غير شيء ظنه رجلا
يقول : وضاقت الأرض على أعدائنا ، لأن كل مسلك يريدونه يظنون أحدا منا فيه فيرجعون ، فاستعير الضيق الحسى لذلك على طريق التصريح ، حتى كان الهارب منهم إذا رأى غير شيء ظنه رجلا منا ، فيرجع خوفا ، والشيء هو الموجود وغيره هو المعدوم، ولكن استعير للشيء الحقير التافه لعدم الاعتداد بكل على طريق التصريح ، وذلك ليصح وقوع الرؤية عليه.
(3) واحكم كحكم فتاة الحي إذ نظرت إلى حمام سراع وارد الثمد
قالت ألا ليتما هذا الحمام لنا إلى حمامتنا ونصفه فقد
فحبسوه فألفوه كما وجدت ستا وستين لم تنقص ولم تزد
للنابغة واسمه زياد ، يخاطب النعمان بن المنذر ، والفتاة : زرقاء اليمامة التي يضرب بها المثل في حدة البصر ، نظرت إلى حمام مسرع إلى الماء فقالت : ليت الحمام ليه. إلى حمامتيه. ونصفه قديه. ثم الحمام مية. فوقع في شبكة صياد ، فوجدوه ستا وستين حمامة، ونصفه ثلاثة وثلاثون ، فإذا ضم الكل إلى حمامتها صار مائة ، والحمام : كل ذى طوق من الطيور. وسراع : جمع سريع ، وصفه به لأنه جمع في المعنى ، وبوارد لأنه مفرد في اللفظ. ويروى «شراع» بالشين المشالة جمع شارع. والثمد : الماء القليل. وروى الحمام ونصفه بالرفع ، على إهمال ليتما. وبالنصب على إعمالها ، لأن «ما» زائدة لا كافة ، وإلا وجب الإهمال. وروى «أو نصفه» فأو بمعنى الواو ، والكلام على تقدير مضاف ، لأنها تمنت أن يكون هذا الحمام ومقدار نصفه لها. وإلى حمامتنا : متعلق بمحذوف ، أى : منضما إليها. وقد : اسم بمعنى حسب ، أضيفت إلى ياء المتكلم بغير نون الوقاية ، كما يقال : حسبي : ويحتمل أن الياء حرف إطلاق ، فلا إضافة ولكنها متعينة في كلام زرقاء ، والهاء فيه للسكت ، وهو يرجح الاضافة في كلام النابغة ، والفاء فيه زائدة لتحسين اللفظ كفاء فقط ، وكلاهما بمعنى انته ، وكأنها فاء الجواب ، أى : إذا بلغت هذا الحد فانته كما أفاده السعد في مطوله ، وحبسوه ينبغي تشديده ليسلم الشعر من الخبل ، وهو نوع من الزحاف يقبح دخوله هنا.
ويروى «حسبوه» بتقديم السين على الباء.

يقال حكم حكما كحلم ، وهو الفهم للتوراة والفقه في الدين عن ابن عباس. وقيل : دعاه الصبيان إلى اللعب وهو صبى فقال : ما للعب خلقنا ، عن الضحاك. وعن معمر : العقل ، وقيل النبوّة ، لأنّ اللّه أحكم عقله في صباه وأوحى إليه.

[سورة مريم (19) : الآيات 13 إلى 14]

وَحَناناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكاةً وَكانَ تَقِيًّا (13) وَبَرًّا بِوالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيًّا (14)

حَناناً رحمة لأبويه وغيرهما ، وتعطفا وشفقة. أنشد سيبويه :

وقالت حنان ما أتى بك هاهنا أذو نسب أم أنت بالحي عارف «1»

وقيل : حنانا من اللّه عليه. وحنّ : في معنى ارتاح واشتاق ، ثم استعمل في العطف والرأفة ، وقيل للّه «حنان» كما قيل «رحيم» على سبيل الاستعارة. والزكاة : الطهارة ، وقيل الصدقة ، أى :

يتعطف على الناس ويتصدّق عليهم :

[سورة مريم (19) : آية 15]

وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (15)

(1) وأحدث عهد من أمينة نظرة على جانب العلياء إذ أنا واقف
فقالت حنان ما أتى بك هاهنا أذو نسب أم أنت بالحي عارف
لمنذر بن درهم الكلبي ، يقول : وأقرب عهد : أى لقاء ورؤية لأمينة محبوبتى تصغير آمنة ، هو نظرة منى لها بجانب تلك البقعة ، إذ أنا واقف هناك : أى حين وقوفي بها. وفيه إشعار بأنه كان واقفا يترقب رؤيتها ، فلما رأته هي قالت له : حنان أى أمرى حنان ورحمة لك ، وهو من المواضع التي يجب فيها حذف المبتدأ لنيابة الخبر عن الفعل ، لأنه مصدر محول عن النصب. وقولها «ما أتى بك هاهنا» استفهام تعجبي. أذو نسب : أى أأنت ذو نسب أم أنت عارف بهذا الحي؟ ويجوز أن «أ ذو نسب» بدل من ما الاستفهامية : أى الذي حملك على المجيء هنا أو الذي ذلك عليه صاحب قرابة من الحي أى معرفتك به؟ ويجوز أن الاستفهام حقيقى حكته على لسان غيرها ، لتلقنه الجواب بقولها :
أذو نسب ...

الخ ، مع معرفتها سبب مجيئه وهو حبها ، ربما يسأله أحد من أهلها فيجيبه بأحد هذين الجوابين.

سلم اللّه عليه في هذه الأحوال ، قال ابن عيينة : إنها أوحش المواطن.

[سورة مريم (19) : الآيات 16 إلى 17]

وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِها مَكاناً شَرْقِيًّا (16) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجاباً فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيًّا (17)

إِذِ بدل من مَرْيَمَ بدل الاشتمال ، لأنّ الأحيان مشتملة على ما فيها. وفيه أنّ المقصود بذكر مريم ذكر وقتها هذا ، لوقوع هذه القصة العجيبة فيه. والانتباذ : الاعتزال والانفراد ، تخلت للعبادة في مكان مما يلي شرقى بيت المقدس ، أو من دارها معتزلة عن الناس. وقيل : قعدت في مشرفة للاغتسال من الحيض محتجبة بحائط أو بشيء يسترها ، وكان موضعها المسجد ، فإذا حاضت تحوّلت إلى بيت خالتها ، فإذا طهرت عادت إلى المسجد، فبينما هي في مغتسلها أتاها الملك في صورة آدمى شاب أمرد وضيء الوجه جعد الشعر سوىّ الخلق ، لم ينتقص من الصورة الآدمية شيئا. أو حسن الصورة مستوى الخلق ، وإنما مثل لها في صورة الإنسان لتستأنس بكلامه ولا تنفر عنه ، ولو بدا لها في الصورة الملكية لنفرت ولم تقدر على استماع كلامه. ودلّ على عفافها وورعها أنها تعوّذت باللّه من تلك الصورة الجميلة الفائقة الحسن ، وكان تمثيله على تلك الصفة ابتلاء لها وسبرا لعفتها. وقيل : كانت في منزل زوج أختها زكريا ولها محراب على حدة تسكنه ، وكان زكريا إذا خرج أغلق عليها الباب ، فتمنت أن تجد خلوة في الجبل لتفلى رأسها ، فانفجر السقف لها فخرجت فجلست في المشرفة وراء الجبل فأتاها الملك.

وقيل : قام بين يديها في صورة ترب لها اسمه يوسف من خدم بيت المقدس. وقيل : إنّ النصارى اتخذت المشرق قبلة لانتباذ مريم مكانا شرقيا. الروح : جبريل ، لأنّ الدين يحيا به وبوحيه. أو سماه اللّه روحه على المجاز محبة له وتقريبا ، كما تقول لحبيبك : أنت روحي. وقرأ أبو حيوة : روحنا ، بالفتح ، لأنه سبب لما فيه روح العباد ، وإصابة الرّوح عند اللّه الذي هو عدّة المقرّبين في قوله فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحانٌ أو لأنه من المقرّبين وهم الموعودون بالروح ، أى : مقرّبنا وذا روحنا.

[سورة مريم (19) : آية 18]

قالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (18)

أرادت إن كان يرجى منك أن تتقى اللّه وتخشاه وتحفل بالاستعاذة به ، فإنى عائدة به منك كقوله تعالى بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ.

[سورة مريم (19) : الآيات 19 إلى 20]

قالَ إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيًّا (19) قالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا(20)

أى إنما أنا رسول من استعذت به لِأَهَبَ لَكِ

لأكون سببا في هبة الغلام بالنفخ في الدرع «1». وفي بعض المصاحف : إنما أنا رسول ربك أمرنى أن أهب لك. أو هي حكاية لقول اللّه تعالى.

[سورة مريم (19) : آية 21]

قالَ كَذلِكِ قالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكانَ أَمْراً مَقْضِيًّا (21)

جعل المسّ عبارة عن النكاح الحلال ، لأنه كناية عنه ، كقوله تعالى مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ والزنا ليس كذلك ، إنما يقال فيه : فجر بها وخبث بها وما أشبه ذلك ، وليس بقمن أن تراعى فيه الكنايات

[سورة مريم (19) : آية 22]

فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكاناً قَصِيًّا (22)

عن ابن عباس : فاطمأنت إلى قوله فدنا منها فنفخ في جيب درعها ، فوصلت النفخة إلى بطنها فحملت. وقيل : كانت مدّة الحمل ستة أشهر. وعن عطاء وأبى العالية والضحاك : سبعة أشهر. وقيل : ثمانية ، ولم يعش مولود وضع لثمانية إلا عيسى. وقيل : ثلاث ساعات. وقيل : حملته في ساعة ، وصوّر في ساعة ، ووضعته في ساعة، حين زالت الشمس من يومها. وعن ابن عباس : كانت مدة الحمل ساعة واحدة ، كما حملته نبذته. وقيل : حملته وهي بنت ثلاث عشرة سنة. وقيل : بنت عشر ، وقد كانت حاضت حيضتين قبل أن تحمل.

(1). قوله «في الدرع» في الصحاح «درع المرأة» قميصها. (ع)

وقالوا : ما من مولود إلا يستهلّ غيره «1» فَانْتَبَذَتْ بِهِ أى اعتزلت وهو في بطنها ، كقوله :

تدوس بنا الجماجم والتّريبا «2»

أى تدوس الجماجم ونحن على ظهورها ، ونحوه قوله تعالى تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ أى تنبت ودهنها فيها : الجار والمجرور في موضع الحال قَصِيًّا بعيدا من أهلها وراء الجبل. وقيل : أقصى الدار. وقيل : كانت سميت لابن عم لها اسمه يوسف ، فلما قيل : حملت من الزنا ، خاف عليها قتل الملك ، فهرب بها فلما كان ببعض الطريق حدّثته نفسه بأن يقتلها ، فأتاه جبريل فقال : إنه من روح القدس فلا تقتلها ، فتركها.

[سورة مريم (19) : آية 23]

فَأَجاءَهَا الْمَخاضُ إِلى جِذْعِ النَّخْلَةِ قالَتْ يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هذا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا (23)

فَأَجاءَهَا أجاء : منقول من جاء ، إلا أن استعماله قد تغير بعد النقل إلى معنى الإلجاء. ألا تراك تقول : جئت المكان وأجاءنيه زيد ، كما تقول : بلغته وأبلغنيه. ونظيره «آتى» حيث لم يستعمل إلا في الإعطاء ، ولم تقل : أتيت المكان وآتانيه فلان. قرأ ابن كثير في رواية الْمَخاضُ بالكسر. يقال : مخضت الحامل مخاضا ومخاضا ، وهو تمخض الولد في بطنها «3».

طلبت الجذع لتستتر به وتعتمد عليه عند الولادة ، وكان جذع نخلة يابسة في الصحراء ليس لها رأس ولا ثمرة ولا خضرة ، وكان الوقت شتاء ، والتعريف لا يخلو : إمّا أن يكون من تعريف الأسماء الغالبة كتعريف النجم والصعق ، كأن تلك الصحراء كان فيها جذع نخلة متعالم عند الناس ، فإذا قيل : جذع النخلة فهم منه ذلك دون غيره من جذوع النخل. وإمّا أن يكون تعريف الجنس ، أى : جذع هذه الشجرة خاصة ، كأن الله تعالى إنما أرشدها إلى النخلة ليطعمها منها الرطب الذي هو حرسة النفساء الموافقة لها ، ولأن النخلة أقل شيء صبرا على البرد ، وثمارها إنما هي من جمارها ، فلموافقتها لها مع جمع الآيات فيها اختارها لها وألجأها إليها. قرئ مِتُّ بالضم والكسر. يقال : مات يموت ومات يمات. النسىّ : ما من حقه أن يطرح وينسى ، كخرقة الطامث ونحوها، كالذبح : اسم ما من شأنه أن يذبح في قوله تعالى وَفَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ .

(1). قوله «ما من مولود إلا يستهل غيره» في الصحاح «استهل الصبى» أى صاح عند الولادة. (ع)
(2). تقدم شرح هذا الشاهد بصفحة 138 من الجزء الأول فراجعه إن شئت اه مصححه.
(3). قوله «و هو تمخض الولد في بطنها» في الصحاح «تمخض اللبن واستمخض» أى تحرك في الممخضة ، وكذلك الولد إذا تحرك في بطن الحامل. (ع)

وعن يونس : العرب إذا ارتحلوا عن الدار قالوا : انظروا أنساءكم ، أى : الشيء اليسير نحو العصا والقدح والشظاظ «1». تمنت لو كانت شيئا تافها لا يؤبه له ، من شأنه وحقه أن ينسى في العادة وقد نسى وطرح فوجد فيه النسيان الذي هو حقه ، وذلك لما لحقها من فرط الحياء والتشوّر «2» من الناس على حكم العادة البشرية ، لا كراهة لحكم اللّه ، أو لشدّة التكليف عليها إذا بهتوها «3» وهي عارفة ببراءة الساحة وبضدّ ما قرفت به ، من اختصاص اللّه إياها بغاية الإجلال والإكرام لأنه مقام دحض قلما تثبت عليه الأقدام : أن تعرف اغتباطك بأمر عظيم وفضل باهر تستحق به المدح وتستوجب التعظيم ، ثم تراه عند الناس لجهلهم به عيبا يعاب به ويعنف بسببه ، أو لخوفها على الناس أن يعصوا اللّه بسببها. وقرأ ابن وثاب والأعمش وحمزة وحفص نَسْياً بالفتح. قال الفراء : هما لغتان كالوتر والوتر ، والجسر والجسر. ويجوز أن يكون مسمى بالمصدر. كالحمل. وقرأ محمد بن كعب القرظي «نسأ» بالهمز وهو الحليب المخلوط بالماء ، ينسؤه أهله لقلته ونزارته. وقرأ الأعمش مَنْسِيًّا بالكسر على الإتباع ، كالمغيرة والمنخر.

[سورة مريم (19) : آية 24]

فَناداها مِنْ تَحْتِها أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (24)

مِنْ تَحْتِها هو جبريل عليه السلام. قيل : كان يقبل الولد كالقابلة. وقيل : هو عيسى ، وهي قراءة عاصم وأبى عمرو. وقيل تَحْتِها أسفل من مكانها ، كقوله تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وقيل : كان أسفل منها تحت الأكمة ، فصاح بها أَلَّا تَحْزَنِي وقرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص مِنْ تَحْتِها وفي ناداها ضمير الملك أو عيسى. وعن قتادة : الضمير في تحتها للنخلة. وقرأ زرّ وعلقمة : فخاطبها من تحتها.

سئل النبي صلى اللّه عليه وسلم عن السرىّ فقال : «هو الجدول «4»».

---

(1). قوله «و الشظاظ» في الصحاح «الشظاظ» العود الذي يدخل في عروة الجوالق. وفيه «الجوالق» وعاء : (ع)
(2). قوله «من فرط الحيا والتشور من الناس» خوف إظهار العورة. أفاده الصحاح. (ع)
(3). قوله «إذا بهتوها وهي عارفة ... الخ» اتهموها بما ليس فيها. وقرفت : اتهمت. (ع) [.....]
(4). أخرجه الطبراني في الصغير وابن عدى من رواية أبى سنان سعيد بن سنان عن أبى إسحاق عن البراء عن النبي صلى اللّه عليه وسلم. في قوله تعالى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا قال : السرى النهر. قال الطبراني لم يرفعه عن أبى إسحاق إلا أبو سنان رواه عنه معاوية بن يحيى وهو ضعيف وأخرجه عند الرزاق عن الثوري عن أبى إسحاق عن البراء موقوفا ، وكذا ذكره البخاري تعليقا عن وكيع عن إسرائيل عن أبى إسحاق. ورواه ابن مردويه من طريق آدم عن إسرائيل كذلك. وأخرجه الحاكم من وجه آخر عن أبى إسحاق موقوفا. وفي الباب عن ابن عمر رضى اللّه عنهما قال «إن السرى الذي قال اللّه تعالى لمريم : نهر أخرجه اللّه لتشرب منه ، أخرجه الطبراني وأبو نعيم في الحلية في ترجمة عكرمة عن ابن عمر. ورواية عن أيوب بن نهيك ، ضعفه أبو حاتم وأبو زرعة.

قال لبيد : فتوسّطا عرض السّري فصدّعا مسجورة متجاورا قلّامها «1»

وقيل : هو من السرو «2». والمراد : عيسى. وعن الحسن : كان واللّه عبدا سريا. فإن قلت.

ما كان حزنها لفقد الطعام والشراب حتى تسلى بالسرى والرطب؟ قلت : لم تقع التسلية بهما من حيث أنهما طعام وشراب ، ولكن من حيث أنهما معجزتان تريان الناس أنها من أهل العصمة والبعد من الريبة ، وأن مثلها مما قرفوها به بمعزل ، وأن لها أمورا إلهية خارجة عن العادات خارقة لما ألفوا واعتادوا ، حتى يتبين لهم أنّ ولادها من غير فحل ليس ببدع من شأنها.

[سورة مريم (19) : الآيات 25 إلى 26]

وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُساقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا (25) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (26)

تُساقِطْ فيه تسع قراآت : تساقط ، بإدغام التاء. وتتساقط ، بإظهار التاءين. وتساقط ، بطرح الثانية. ويساقط ، بالياء وإدغام التاء. وتساقط ، وتسقط ، ويسقط ، وتسقط ، ويسقط : التاء للنخلة ، والياء للجذع. ورطبا تمييز أو مفعول على حسب القراءة. وعن المبرد :

جواز انتصابه بهزّى وليس بذاك. والباء في بِجِذْعِ النَّخْلَةِ صلة للتأكيد ، كقوله تعالى وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ أو على معنى : افعلي الهزّ به ، كقوله :

يجرح في عراقيبها نصلى «3»

قالوا : التمر للنفساء عادة من ذلك الوقت ، وكذلك التحنيك ، وقالوا : كان من العجوة.

وقيل : ما للنفساء خير من الرطب ، ولا للمريض خير من العسل ، وقيل : إذا عسر ولادها لم يكن لها خير من الرطب.

(1) فمضى وقدمها وكانت عادة منه إذا هي عردت أقدامها
فتوسطا عرض السرى فصدعا مسجورة متجاورا قلامها
للبيد من معلقته ، يصف حمارا وحشيا بأنه مضى خلف أتانه نحو الماء وقدمها أمامه. وأقدامها : اسم كان ، وألحقه التاء لاكتساب الأقدام التأنيث من الضمير المضاف إليه. وقيل : لأنه بمعنى التقدمة التي هي مصدر قدمها المضاعف كالتقديم. وعادة خبر كان. و«إذا هي عردت» بالتضعيف أى تأخرت وجبنت ، فتوسطا : أى الحمار والأتان ، عرض السرى : أى ناحية النهر الصغير وجانبه ، فصدعا : أى شقا عينا مسجورة مملوءة ، وكان المقام للاضمار ، فأظهر ليتأتى الوصف. أو للتجربة ، أو العين من النهر ، وليست هي هو وهذا أوجه. والقلام - كرمان - :
القاقلى ، وقيل مطلق النبات ، وتجاوزه : كناية عن كثرته.
(2). قوله «و قيل هو من السرو» في الصحاح «السرو» سخاء في مروءة. (ع)
(3). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثاني صفحة 578 فراجعه إن شئت اه مصححه.

عن طلحة بن سليمان جَنِيًّا بكسر الجيم للإتباع ، أى جمعنا لك في السرىّ والرطب فائدتين ، إحداهما : الأكل والشرب ، والثانية سلوة الصدر ، لكونهما معجزتين ، وهو معنى قوله فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً أى وطيبي نفسا ولا تغتمي وارفضى عنك ما أحزنك وأهمك. وقرئ : وَقَرِّي بالكسر لغة نجد فَإِمَّا تَرَيِنَّ بالهمز : ابن الرومي. عن أبى عمرو : وهذا من لغة من يقول : لبأت بالحج ، وحلأت السويق «1» ، وذلك لتآخ بين الهمز وحرف اللين في الإبدال صَوْماً صمتا. وفي مصحف عبد اللّه : صمتا. وعن أنس بن مالك مثله. وقيل : صياما ، إلا أنهم كانوا لا يتكلمون في صيامهم ، وقد نهى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن صوم الصمت «2» ، لأنه نسخ في أمته ، أمرها اللّه بأن تنذر الصوم لئلا تشرع مع البشر المنهمين لها في الكلام لمعنيين ، أحدهما : أن عيسى صلوات اللّه عليه يكفيها الكلام بما يبرئ به ساحتها. والثاني : كراهة مجادلة السفهاء ومناقلتهم. وفيه أن السكوت عن السفيه واجب. ومن أذل الناس : سفيه لم يجد مسافها. قيل : أخبرتهم بأنها نذرت الصوم بالإشارة.

وقيل : سوغ لها ذلك بالنطق إِنْسِيًّا أى أكلم الملائكة دون الإنس.

[سورة مريم (19) : الآيات 27 إلى 28]

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَها تَحْمِلُهُ قالُوا يا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا (27) يا أُخْتَ هارُونَ ما كانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (28)

الفرىّ : البديع ، وهو من فرى الجلد يا أُخْتَ هارُونَ كان أخاها من أبيها من أمثل بنى إسرائيل. وقيل : هو أخو موسى صلوات اللّه عليهما. وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : «إنما عنوا هرون النبىّ «3»» وكانت من أعقابه في طبقة الإخوة ، بينها وبينه ألف سنة وأكثر. وعن السدى : كانت من أولاده ، وإنما قيل : يا أخت هرون ، كما يقال يا أخا همدان ، أى : يا واحدا منهم. وقيل : رجل صالح أو طالح في زمانها ، شبهوها به ، أى : كنت عندنا مثله في الصلاح ، أو شتموها به ، ولم ترد إخوة النسب ، ذكر أن هرون الصالح تبع جنازته أربعون ألفا كلهم يسمى

(1). قوله «يقول لبأت بالحج وحلأت السويق» والكثير : لبيت بالحج ، وحليت السويق ، أى : جعلته حلوا. (ع)
(2). لم أره هكذا وأخرج عبد الرزاق من حديث جابر بلفظ «لا صمت يوم إلى الليل» وفيه حزام بن عثمان وهو ضعيف ولأبى داود من حديث على مثله. وقد تقدم في تفسير النساء.
(3). لم أجده هكذا إلا عند الثعلبي بغير سند ورواه الطبري عن السدى. قوله وليس بصحيح. فان عند مسلم والنسائي والترمذي عن المغيرة بن شعبة. قال «بعثني النبي صلى اللّه عليه وسلم إلى نجران فقالوا لي : أرأيتم شيئا يقرءونه يا أُخْتَ هارُونَ وبين موسى وعيسى ما شاء اللّه من السنين فلم أدر ما أجيبهم فقال لي النبي صلى اللّه عليه وسلم هلا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم والصالحين من قبلهم» وروى الطبري من طريق ابن سيرين «نبئت أن كعبا قال إن قوله تعالى يا أُخْتَ هارُونَ ليس بهارون أخى موسى فقالت له عائشة «كذبت. فقال لها يا أم المؤمنين إن كان النبي صلى اللّه عليه وسلم قال فهو أعلم وإلا فأنا أجد بينهما ستمائة سنة».

هرون تبركا به وباسمه ، فقالوا : كنا نشبهك بهرون هذا. وقرأ عمر بن لجاء التيمي ما كانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وقيل احتمل يوسف النجار مريم وابنها إلى غار ، فلبثوا فيه أربعين يوما حتى تعلت من نفاسها «1» ، ثم جاءت تحمله فكلمها عيسى في الطريق فقال : يا أماه ، أبشرى فإنى عبد اللّه ومسيحه ، فلما دخلت به على قومها وهم أهل بيت صالحون تباكوا وقالوا ذلك. وقيل :

هموا برجمها حتى تكلم عيسى عليه السلام. فتركوها.

[سورة مريم (19) : آية 29]

فَأَشارَتْ إِلَيْهِ قالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (29)

فَأَشارَتْ إِلَيْهِ أى هو الذي يجيبكم إذا ناطقتموه. وقيل : كان المستنطق لعيسى زكريا عليه السلام. وعن السدى : لما أشارت إليه غضبوا وقالوا : لسخريتها بنا أشدّ علينا من زناها. وروى أنه كان يرضع ، فلما سمع ذلك ترك الرضاع وأقبل عليهم بوجهه ، واتكأ على يساره وأشار بسبابته. وقيل : كلمهم بذلك ، ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغا يتكلم فيه الصبيان كانَ لإيقاع مضمون الجملة في زمان ماض مبهم يصلح لقريبه وبعيده ، وهو هاهنا لقريبه خاصة ، والدال عليه مبنى الكلام ، وأنه مسوق للتعجب. ووجه آخر : أن يكون نُكَلِّمُ حكاية حال ماضية ، أى : كيف عهد قبل عيسى أن يكلم الناس صبيا في المهد فيما سلف من الزمان حتى نكلم هذا.

[سورة مريم (19) : الآيات 30 إلى 33]

قالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتانِيَ الْكِتابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) وَجَعَلَنِي مُبارَكاً أَيْنَ ما كُنْتُ وَأَوْصانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا (31) وَبَرًّا بِوالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا (32) وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا(33)

أنطقه اللّه أوّلا بأنه عبد اللّه ردا لقول النصارى الْكِتابَ هو الإنجيل. واختلفوا في نبوّته ، فقيل : أعطيها في طفوليته : أكمل اللّه عقله ، واستنبأه طفلا نظرا في ظاهر الآية.

وقيل : معناه إنّ ذلك سبق في قضائه. أو جعل الآتي لا محالة كأنه قد وجد مُبارَكاً أَيْنَ ما كُنْتُ عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «نفاعا حيث كنت «2»» وقيل : معلما للخير.

(1). قوله «حتى تعلت من نفاسها» في الصحاح «تعلى» أى علا في مهلة. وتعلت المرأة من نفاسها : أى سلمت ، وتعلى الرجل من علته. (ع)
(2). أخرجه أبو نعيم في الحلية في ترجمة يونس بن عبيد عن الحسن عن أبى هريرة بهذا وأتم منه. وقال تفرد به هشيم عن يونس وعنه شعيب بن محمد الكوفي ورواه ابن مردويه من هذا الوجه.

وقرئ وَبَرًّا عن أبى نهيك ، جعل ذاته برا لفرط بره. أو نصبه بفعل في معنى أوصانى وهو كلفنى ، لأن أوصانى بالصلاة وكلفنيها واحد وَالسَّلامُ عَلَيَّ قيل : أدخل لام التعريف لتعرفه بالذكر قبله ، كقولك : جاءنا رجل، فكان من فعل الرجل كذا. والمعنى : ذلك السلام الموجه إلى يحيى في المواطن الثلاثة موجه إلىّ. والصحيح أن يكون هذا التعريف تعريضا باللعنة على متهمى مريم عليها السلام وأعدائها من اليهود. وتحقيقه أن اللام للجنس ، فإذا قال : وجنس السلام علىّ خاصة فقد عرض بأن ضدّه عليكم. ونظيره قوله تعالى وَالسَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى يعنى أنّ العذاب على من كذب وتولى ، وكان المقام مقام منا كرة وعناد ، فهو مئنة لنحو هذا من التعريض.

[سورة مريم (19) : آية 34]

ذلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (34)

قرأ عاصم وابن عامر قَوْلَ الْحَقِّ بالنصب. وعن ابن مسعود : قال الحق ، وقال اللّه - وعن الحسن : قول الحق ، بضم القاف ، وكذلك في الأنعام قَوْلُهُ الْحَقُّ والقول والقال والقول بمعنى واحد ، كالرهب والرهب والرهب. وارتفاعه على أنه خبر بعد خبر ، أو بدل ، أو خبر مبتدأ محذوف. وأما انتصابه فعلى المدح إن فسر بكلمة اللّه ، وعلى أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة إن أريد قول الثبات والصدق ، كقولك : هو عبد اللّه حقا. والحق لا

[سورة مريم (19) : آية 35]

ما كانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحانَهُ إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (35)

كذب النصارى وبكتهم بالدلالة على انتفاء الولد عنه ، وأنه مما لا يتأتى ولا يتصور في العقول وليس بمقدور عليه ، إذ من المحال غير المستقيم أن تكون ذاته كذات من ينشأ منه الولد ،

---

(1). قوله «يتلاحون» التلاحي بمعنى التنازع كما في الصحاح. وعبارة النسفي : أو يختلفون ، من المراء ، فقالت اليهود ... الخ. (ع)

ثم بين إحالة ذلك بأن من إذا أراد شيئا من الأجناس كلها أوجده بكن ، كان منزها من شبه الحيوان الوالد. والقول هاهنا مجاز ، ومعناه : أنّ إرادته للشيء يتبعها كونه لا محالة من غير توقف ، فشبه ذلك بأمر الآمر المطاع إذا ورد على المأمور الممتثل.

[سورة مريم (19) : آية 36]

وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (36)

قرأ المدنيون وأبو عمرو بفتح أن. ومعناه : ولأنه ربى وربكم فاعبدوه ، كقوله وَأَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً والأستار وأبو عبيد بالكسر على الابتداء. وفي حرف أبىّ : إن الله ، بالكسر بغير واو ، وبأن الله ، أى : بسبب ذلك «1» فاعبدوه.

[سورة مريم (19) : آية 37]

فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (37)

الْأَحْزابُ اليهود والنصارى عن الكلبي. وقيل النصارى لتحزبهم ثلاث فرق : نسطورية ويعقوبية وملكانية. وعن الحسن : الذين تحزبوا على الأنبياء لما قص عليهم قصة عيسى اختلفوا فيه من بين الناس مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ أى من شهودهم هول الحساب والجزاء في يوم القيامة أو من مكان الشهود فيه وهو الموقف. أو من وقت الشهود ، أو من شهادة ذلك اليوم عليهم ، وأن تشهد عليهم الملائكة والأنبياء وألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بالكفر وسوء الأعمال. أو من مكان الشهادة أو وقتها. وقيل : هو ما قالوه وشهدوا به في عيسى وأمه.

[سورة مريم (19) : الآيات 38 إلى 40]

أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنا لكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (38) وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (39) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْها وَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ (40)

لا يوصف الله تعالى بالتعجب وإنما المراد أن أسماعهم وأبصارهم يومئذ جدير بأن يتعجب منهما بعد ما كانوا صما وعميا في الدنيا. وقيل : معناه التهديد بما سيسمعون ويبصرون مما يسوءهم ويصدع قلوبهم. أوقع الظاهر أعنى الظالمين موقع الضمير : إشعارا بأن لا ظلم أشد من ظلمهم ، حيث أغفلوا الاستماع والنظر حين يجدى عليهم ويسعدهم. والمراد بالضلال المبين : إغفال النظر والاستماع قُضِيَ الْأَمْرُ فرغ من الحساب وتصادر الفريقان إلى الجنة والنار.

(1). قوله «و بأن الله أى بسبب ذلك» لعله : أى بأن الله. ويمكن أنه عطف على أن الله ، ويكون في حرف أبى القراءتان. (ع) (2 - كشاف - 3)

وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل عنه أى عن قضاء الأمر فقال : «حين يذبح الكبش والفريقان ينظران» «1» وإذ بدل من يوم الحسرة. أو منصوب بالحسرة وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ متعلق بقوله في ضلال مبين عن الحسن. وأنذرهم : اعتراض. أو هو متعلق بأنذرهم ، أى : وأنذرهم على هذه الحال غافلين غير مؤمنين. يحتمل أنه يميتهم ويخرب ديارهم ، وأنه يفنى أجسادهم ويفنى الأرض ويذهب بها.

[سورة مريم (19) : الآيات 41 إلى 45]

وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِبْراهِيمَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا (41) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً (42) يا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ ما لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِراطاً سَوِيًّا (43) يا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيًّا (44) يا أَبَتِ إِنِّي أَخافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحْمنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطانِ وَلِيًّا (45)

الصدّيق : من أبنية المبالغة. ونظيره الضحيك والنطيق. والمراد ، فرط صدقه وكثرة ما صدّق به من غيوب الله وآياته وكتبه ورسله ، وكان الرجحان والغلبة في هذا التصديق للكتب والرسل أى : كان مصدقا بجميع الأنبياء وكتبهم ، وكان نبيا في نفسه ، كقوله تعالى بَلْ جاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ أو كان بليغا في الصدق ، لأن ملاك أمر النبوة الصدق ، ومصدق الله بآياته ومعجزاته حرىّ أن يكون كذلك ، وهذه الجملة وقعت اعتراضا بين المبدل منه وبدله ، أعنى إبراهيم. وإِذْ قالَ نحو قولك : رأيت زيدا ، ونعم الرجل أخاك. ويجوز أن يتعلق إذ بكان أو بصديقا نبيا ، أى : كان جامعا لخصائص الصديقين والأنبياء حين خاطب أباه تلك المخاطبات.

والمراد بذكر الرسول إياه وقصته في الكتاب أن يتلو ذلك على الناس ويبلغه إياهم ، كقوله وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْراهِيمَ وإلا فالله عز وجل هو ذاكره ومورده في تنزيله. التاء في يا أَبَتِ عوض من ياء الإضافة ، ولا يقال يا أبتى ، لئلا يجمع بين العوض والمعوض منه. وقيل : يا أبتا ، لكون الألف بدلا من الياء ، وشبه ذلك سيبويه بأينق ، وتعويض الياء فيه عن الواو الساقطة.

(1). لم أجده هكذا. وفي الصحيحين عن أبى سعيد الخدري مرفوعا «يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح - الحديث» وفيه وكلهم قد رآه فيذبح. ثم يقول يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت» ثم قرأ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ الآية وأخرجاه عن ابن عمر نحوه دون قراءة الآية. وفي الباب عن أبى هريرة عند ابن حبان والحاكم والنسائي. وأخرجه البخاري دون ذكر الذبح. وأخرجه أبو يعلى والبزار من حديث أنس.
وفي آخره «فيأمن هؤلاء. وينقطع رجاء هؤلاء».

انظر حين أراد أن ينصح أباه ويعظه فيما كان متورطا فيه من الخطأ العظيم والارتكاب الشنيع الذي عصا فيه أمر العقلاء وانسلخ عن قضية التمييز ، ومن الغباوة التي ليس بعدها غباوة : كيف رتب الكلام معه في أحسن اتساق ، وساقه أرشق مساق «1» ، مع استعمال المجاملة واللطف والرفق واللين والأدب الجميل والخلق الحسن ، منتصحا في ذلك بنصيحة ربه عز وعلا ، حدّث أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «أوحى الله إلى إبراهيم عليه السلام : إنك خليلي ، حسن خلقك ولو مع الكفار ، تدخل مداخل الأبرار»، فإن كلمتي سبقت لمن حسن خلقه : أظله تحت عرشي ، وأسكنه حظيرة القدس ، وأدنيه من جواري. وذلك أنه طلب منه أو لا العلة في خطئه طلب منبه على تماديه ، موقظ لإفراطه وتناهيه ، لأن المعبود لو كان حيا مميزا، سميعا بصيرا ، مقتدرا على الثواب والعقاب ، نافعا ضارا ، إلا أنه بعض الخلق : لاستخفّ عقل من أهله للعبادة ووصفه بالربوبية ، ولسجل عليه بالغىّ المبين والظلم العظيم وإن كان أشرف الخلق وأعلاهم منزلة كالملائكة والنبيين. قال الله تعالى وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْباباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ وذلك أن العبادة هي غاية التعظيم ، فلا تحق إلا لمن له غاية الإنعام : وهو الخالق الرزاق ، المحيي المميت ، المثيب المعاقب ، الذي منه أصول النعم وفروعها. فإذا وجهت إلى غيره - وتعالى علوا كبيرا أن تكون هذه الصفة لغيره - لم يكن إلا ظلما وعتوا وغيا وكفرا وجحودا ، وخروجا عن الصحيح النير إلى الفاسد المظلم ، فما ظنك بمن وجه عبادته إلى جماد ليس به حس ولا شعور؟ فلا يسمع - يا عابده - ذكرك له وثناءك عليه ، ولا يرى هيآت خضوعك وخشوعك له ، فضلا أن يغنى عنك بأن تستدفعه بلاء فيدفعه ، أو تسنح لك حاجة فيكفيكها. ثم ثنى بدعوته إلى الحق مترفقا به متلطفا ، فلم يسم أباه بالجهل المفرط ، ولا نفسه بالعلم الفائق ، ولكنه قال : إن

ثم ثلث بتثبيطه ونهيه عما كان عليه : بأن الشيطان - الذي استعصى على ربك الرحمن الذي جميع ما عندك من النعم من عنده ، وهو عدوّك الذي لا يريد بك إلا كل هلاك وخزى ونكال وعدوّ أبيك آدم وأبناء جنسك كلهم - هو الذي ورّطك في هذه الضلالة وأمرك بها وزينها لك ، فأنت إن حققت النظر عابد الشيطان ، إلا أن إبراهيم عليه السلام لإمعانه في الإخلاص ولارتقاء همته في الربانية لم يذكر من جنايتي الشيطان

(1). قوله «في أحسن اتساق وساقه أرشق» في الصحاح «الاتساق» الانتظام. وفيه أيضا «رجل رشيق» أى حسن القد لطيفه. (ع)
(2). أخرجه الطبراني في الأوسط وابن عدى ، والحكيم الترمذي في النوادر من حديث أبى هريرة وفيه مؤمل ابن عبد الرحمن الثقفي عن أبى أمية بن يعلى الثقفي وهما ضعيفان [.....]

إلا التي تختص منهما برب العزة من عصيانه واستكباره ، ولم يلتفت إلى ذكر معاداته لآدم وذرّيته كأن النظر في عظم ما ارتكب من ذلك غمر فكره وأطبق على ذهنه. ثم ربع بتخويفه سوء العاقبة وبما يجره «1» ما هو فيه من التبعة والوبال ، ولم يخل ذلك من حسن الأدب ، حيث لم يصرح بأن العقاب لا حق له وأن العذاب لا صق به ، ولكنه قال : أخاف أن يمسك عذاب ، فذكر الخوف والمس ونكر العذاب ، وجعل ولاية الشيطان ودخوله في جملة أشياعه وأوليائه أكبر من العذاب ، وذلك أن رضوان الله أكبر من الثواب نفسه ، وسماه الله تعالى المشهود له «2» بالفوز العظيم حيث قال وَرِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ فكذلك ولاية الشيطان التي هي معارضة رضوان الله ، أكبر من العذاب نفسه وأعظم ، وصدّر كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله يا أَبَتِ توسلا إليه واستعطافا. فما في ما لا يَسْمَعُ وما لَمْ يَأْتِكَ يجوز أن تكون موصولة وموصوفة ، والمفعول في لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ منسى غير منوي ، كقولك : ليس به استماع ولا إبصار شَيْئاً يحتمل وجهين ، أحدهما : أن يكون في موضع المصدر ، أى : شيئا من الغناء ، ويجوز أن يقدر نحوه مع الفعلين السابقين. والثاني : أن يكون مفعولا به من قولهم : أغن عنى وجهك إِنِّي قَدْ جاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ ما لَمْ يَأْتِكَ فيه تجدد العلم عنده.

[سورة مريم (19) : آية 46]

قالَ أَراغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يا إِبْراهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46)

لما أطلعه على سماجة صورة أمره ، وهدم مذهبه بالحجج القاطعة ، وناصحه المناصحة العجيبة مع تلك الملاطفات ، أقبل عليه الشيخ بفظاظة الكفر وغلظة العناد ، فناداه باسمه ، ولم يقابل يا أَبَتِ بيا بنىّ ، وقدّم الخبر على المبتدأ في قوله أَراغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يا إِبْراهِيمُ لأنه كان أهمّ عنده وهو عنده أعنى ، وفيه ضرب من التعجب والإنكار لرغبته عن آلهته ، وأن آلهته ، ما ينبغي أن يرغب عنها أحد. وفي هذا سلوان وثلج لصدر رسول الله صلى الله عليه وسلم عما كان يلقى من مثل ذلك من كفار قومه لَأَرْجُمَنَّكَ لأرمينك بلساني ، يريد الشتم والذمّ ، ومنه الرَّجِيمِ المرمىّ باللعن. أو لأقتلنك ، من رجم الزاني. أو لأطردنك رميا بالحجارة.

وأصل الرجم : الرمي بالرجام «3» مَلِيًّا زمانا طويلا من الملاوة : أو مليا بالذهاب عنى والهجران قبل أن أثخنك بالضرب ،

(1). قوله «و بما يجره» لعله وما يجره ، فيكون عطفا على سوء العاقبة. (ع)
(2). قوله «و سماه الله تعالى المشهود له» لعله «مشهود له بأن رضوانه أكبر من الثواب» فليحرر. (ع)
(3). قوله «و أصل الرجم الرمي بالرجام» أى الحجارة الضخام ، كذا في الصحاح. (ع)

حتى لا تقدر أن تبرح. يقال : فلان ملىّ بكذا ، إذا كان مطيقا له مضطلعا به. فإن قلت : علام عطف وَاهْجُرْنِي؟ قلت : على معطوف عليه محذوف يدل عليه لَأَرْجُمَنَّكَ أى فاحذرنى واهجرني ، لأن لَأَرْجُمَنَّكَ تهديد وتقريع.

[سورة مريم (19) : الآيات 47 إلى 48]

قالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا (47) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعاءِ رَبِّي شَقِيًّا (48)

قالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سلام توديع ومتاركة ، كقوله تعالى لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ وقوله وَإِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً وهذا دليل على جواز متاركة المنصوح والحال هذه. ويجوز أن يكون قد دعا له بالسلامة استمالة له. ألا ترى أنه وعده الاستغفار. فإن قلت : كيف جاز له أن يستغفر للكافر وأن يعده «1» ذلك؟ قلت : قالوا أراد اشتراط التوبة عن الكفر ، كما ترد الأوامر والنواهي الشرعية على الكفار والمراد اشتراط الإيمان ، وكما يؤمر المحدث والفقير بالصلاة والزكاة ويراد اشتراط الوضوء والنصاب.

وقالوا : إنما استغفر له بقوله وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كانَ مِنَ الضَّالِّينَ لأنه وعده أن يؤمن.

واستشهدوا عليه بقوله تعالى وَما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ ولقائل أن يقول : إنّ الذي منع من الاستغفار للكافر إنما هو السمع ، فأمّا القضية العقلية فلا تأباه ، فيجوز أن يكون الوعد بالاستغفار والوفاء به قبل ورود السمع ، بناء على قضية العقل ، والذي يدل على صحته قوله تعالى إِلَّا قَوْلَ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ فلو كان شارطا للإيمان لم يكن مستنكرا ومستثنى عما وجبت فيه الأسوة. وأمّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ فالواعد هو إبراهيم لا آزر ، أى : ما قال وَاغْفِرْ لِأَبِي إلا عن قوله لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وتشهد له قراءة حماد الرواية : وعدها أباه. والله أعلم حَفِيًّا الحفىّ : البليغ في البر والإلطاف ، حفى به وتحفى به وَأَعْتَزِلُكُمْ أراد بالاعتزال المهاجرة إلى الشام. المراد بالدعاء العبادة ، لأنه منها ومن وسائطها. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم «الدعاء هو العبادة «2»»

(1). قال محمود : «إن قلت لم استغفر لأبيه وهو كافر ... الخ» قال أحمد : وهذه لمظ من الاعتزال ، مستطيرة من شرر شر قاعدة التحسين والتقبيح. والحق أن العقل لا مدخل له في أن يحكم بحكم الله تعالى قبل ورود الشرع به ، ثم لم يوف الزمخشري بها ، فانه جعل العقل يسوغ الاستغفار ، وجعل الشرع مانعا منه ، ولا يتصور هذا على قاعدتهم المهدمة ، كما لا يتصور ورود الشرع بما يخالف العقل في الإلهيات ، نعم قد يحكم الشرع بما لا يظهر العقل عندهم خلافه. وأما ما يظهر العقل خلافه. فلا.

(2). أخرجه أبو داود وبقية أصحاب السنن وابن حبان والحاكم من حديث النعمان بن بشير. وأخرجه أحمد وإسحاق وابن أبى شيبة وأبو يعلى والبزار والطبراني وابن ابى حاتم والطبري من حديثه وأخرجه ابن مردويه من حديث البراء بن عازب رضى الله عنهما.

ويدل عليه قوله تعالى فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ويجوز أن يراد الدعاء الذي حكاه الله في سورة الشعراء. عرّض بشقاوتهم بدعاء آلهتهم في قوله عَسى أَلَّا أَكُونَ بِدُعاءِ رَبِّي شَقِيًّا مع التواضع لله بكلمة عَسى وما فيه من هضم النفس.

[سورة مريم (19) : الآيات 49 إلى 50]

فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنا نَبِيًّا (49) وَوَهَبْنا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنا وَجَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (50)

ما خسر على الله أحد ترك الكفار الفسقة لوجهه ، فعوّضه أولادا مؤمنين أنبياء مِنْ رَحْمَتِنا هي النبوّة عن الحسن. وعن الكلبي : المال والولد ، وتكون عامّة في كل خير دينى ودنيوى أوتوه. لسان الصدق : الثناء الحسن. وعبر باللسان عما يوجد باللسان كما عبر باليد عما يطلق باليد وهي العطية. قال : إنى أتتنى لسان لا أسر بها «1»

يريد الرسالة. ولسان العرب : لغتهم وكلامهم. استجاب الله دعوته وَاجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ فصيره قدوة حتى ادّعاه أهل الأديان كلهم. وقال عز وجل مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ ومِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً ، ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وأعطى ذلك ذرّيته فأعلى ذكرهم وأثنى عليهم ، كما أعلى ذكره وأثنى عليه.

[سورة مريم (19) : آية 51]

وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ مُوسى إِنَّهُ كانَ مُخْلَصاً وَكانَ رَسُولاً نَبِيًّا (51)

المخلص - بالكسر - : الذي أخلص العبادة عن الشرك والرياء. أو أخلص نفسه وأسلم وجهه لله. وبالفتح : الذي أخلصه الله. الرسول : الذي معه كتاب من الأنبياء : والنبىّ :

الذي ينبئ عن الله عز وجل وإن لم يكن معه كتاب ، كيوشع.

[سورة مريم (19) : آية 52]

وَنادَيْناهُ مِنْ جانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْناهُ نَجِيًّا (52)

(1) إنى أتتنى لسان لا أسر به من علو لا كذب فيه ولا سخر
فجاشت النفس لما جاء فلهم وراكب جاء من تثليث معتمر
للأعشى الباهلي ، لما جاء الناعي بقتل المنتشر أخيه. عبر باللسان عن الكلام مجازا ، لأنه آلته. وأنث الفعل لتأويل الفاعل بالكلمة أو الرسالة ، وذكر فيما بعد نظرا للظاهر ، ومن علو بالبناء على الفتح ، أى : من أعلى نجد، والسخر : مصدر سخر كتعب. وجاشت القدر: غلت وارتفع ما فيها. والتجوز بالجيشان عن حرارة القلب مشهور والفل : الفئة. وتثليث : اسم موضع ممنوع من الصرف. وراكب : عطف على «فلهم» ، و«معتمر» نعته ، وجاء الثاني بدل.

الأيمن من اليمين : أى من ناحيته اليمنى. أو من اليمن صفة للطور ، أو للجانب. شبهه بمن قرّبه بعض العظماء للمناجاة ، حيث كلمه بغير واسطة ملك. وعن أبى العالية قرّبه حتى سمع صريف القلم الذي كتبت به التوراة.

[سورة مريم (19) : آية 53]

وَوَهَبْنا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنا أَخاهُ هارُونَ نَبِيًّا (53)

مِنْ رَحْمَتِنا من أجل رحمتنا له وترأفنا عليه : وهبنا له هرون. أو بعض رحمتنا ، كما في قوله وَوَهَبْنا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنا. وأَخاهُ على هذا الوجه بدل. وهارُونَ عطف بيان ، كقولك : رأيت رجلا أخاك زيدا. وكان هرون أكبر من موسى ، فوقعت الهبة على معاضدته وموازرته كذا عن ابن عباس رضى الله عنه.

[سورة مريم (19) : الآيات 54 إلى 55]

وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِسْماعِيلَ إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ وَكانَ رَسُولاً نَبِيًّا (54) وَكانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ وَكانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (55)

ذكر إسماعيل عليه السلام بصدق الوعد وإن كان ذلك موجودا في غيره من الأنبياء ، تشريفا له وإكراما ، كالتلقيب بنحو : الحليم ، والأوّاه ، والصدّيق ، ولأنه المشهور المتواصف من خصاله. عن ابن عباس رضى الله عنه : أنه وعد صاحبا له أن ينتظره في مكان ، فانتظره سنة. وناهيك أنه وعد في نفسه الصبر على الذبح فوفى، حيث قال سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ كان يبدأ بأهله في الأمر بالصلاح والعبادة ليجعلهم قدوة لمن وراءهم ، ولأنهم أولى من سائر الناس وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ، وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ ، قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ ناراً ألا ترى أنهم أحق بالتصدّق عليهم ، فالإحسان الديني أولى. وقيل أَهْلَهُ أمته كلهم من القرابة وغيرهم ، لأنّ أمم النبيين في عداد أهاليهم. وفيه أنّ من حق الصالح أن لا يألو نصحا للأجانب فضلا عن الأقارب والمتصلين به ، وأن يحظيهم بالفوائد الدينية ولا يفرط في شيء من ذلك.

[سورة مريم (19) : الآيات 56 إلى 57]

وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا (56) وَرَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيًّا (57)

قيل : سمى إدريس لكثرة دراسته كتاب الله عزّ وجل ، وكان اسمه أخنوخ ، وهو غير صحيح ، لأنه لو كان أفعيلا من الدرس لم يكن فيه إلا سبب واحد وهو العلمية ، فكان منصرفا ، فامتناعه من الصرف دليل العجمة. وكذلك إبليس أعجمى ، وليس من الإبلاس كما يزعمون ، ولا يعقوب من العقب ، ولا إسرائيل بإسرال كما زعم ابن السكيت ، ومن لم يحقق ولم يتدرّب بالصناعة كثرت منه أمثال هذه الهنات. ويجوز أن يكون معنى إِدْرِيسَ في تلك اللغة قريبا من ذلك ، فحسبه الراوي مشتقا من الدرس. المكان العلى : شرف النبوّة والزلفى عند الله وقد أنزل الله عليه ثلاثين صحيفة ، وهو أول من خط بالقلم ونظر في علم النجوم والحساب ، وأوّل من خاط الثياب ولبسها ، وكانوا يلبسون الجلود. وعن أنس بن مالك رضى الله عنه يرفعه إنه رفع إلى السماء الرابعة «1». وعن ابن عباس رضى الله عنهما : إلى السماء السادسة «2». وعن الحسن رضى الله عنه. إلى الجنة لا شيء أعلى من الجنة. وعن النابغة الجعدي : أنه لما أنشد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم الشعر الذي آخره :
بلغنا السّماء مجدنا وسناؤنا وإنّا لنرجو فوق ذلك مظهرا «3»

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إلى أين يا أبا ليلى» قال : إلى الجنة «4».

(1). أخرجه الترمذي من رواية شيبان عن قتادة عن أنس بهذا. وقال هو عندي مختصر من حديث الاسراء الذي رواه سعيد وهمام عن قتادة عن أنس عن مالك بن صعصعة.
(2). أخرجه الطبري وابن مردويه من رواية عطية عنه.
(3) ولا خير في حلم إذا لم يكن له بواد وتحمى صفوه أن يكدرا
ولا خير في جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا
بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا
للنابغة الجعدي ، أنشده أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إلى أين يا أبا ليلى؟ قال : إلى الجنة بك يا رسول الله ، فقال : لا يفضض الله فاك. فعمر فوق مائتي عام ، وكان إذا سقطت له سن نبت بدلها. والحلم : الأناة والعقل. والبادرة : الكلمة تصدر حال الغضب. وشبه الحلم بالماء على طريق المكنية. والصفاء والتكدير :
تخييل ، والمراد بالجهل : عجلة الاقدام على عظائم الأمور. والإيراد جعل الشيء واردا. والإصدار : جعله صادرا. والمراد تسبب في وجوده وإعظامه وفي تحقيره وإعدامه. ويحتمل أنه شبه الأمر المعضل بحيوان يورده صاحبه إلى الماء تارة ويرجعه أخرى ، على طريق المكنية ، والإيراد والإصدار تخييل. ويجوز أن فاعل أورد ضمير الجهل ، وفاعل أصدر ضمير الحليم ، أى : إذا تسبب الجهل والشجاعة في أمر خطاء أرجعه الحليم وأبطله ، فلا بد من اجتماع الحلم والجرأة معا حتى يكمل الرجل. ومجدنا وسناؤنا بالرفع بدلا من فاعل بلغنا. وقيل : هما مفعولان فهما بالنصب. وانظر ما وجهه ، ولعله أنهما ظرفان اعتباريان ، أى : بلغنا السماء في المجد والسناء. أو بدلان من السماء ، بأن شبههما بها ، ثم أطلقها عليهما وأبدلهما منها ، وهو أوجه من الظرفية. ولو قيل على النصب : أنهما تمييزان ، كان وجيها ، لكنه على رأى الكوفيين القائلين بجوازه معرفة ، ولما ادعى بلوغ السماء بنى عليه ما يبنى على المحسوس فقال : وإنا لنرجو مظهرا فوق ذلك.
(4). أخرجه البزار وأبو نعيم والبيهقي في الدلائل لها من طريق يعلى بن الأشرف عنه وله طريق أخرى عند البيهقي وذكر القصيدة.

[سورة مريم (19) : آية 58]

أُولئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْراهِيمَ وَإِسْرائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنا وَاجْتَبَيْنا إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُ الرَّحْمنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيًّا (58)

أُولئِكَ إشارة إلى المذكورين في السورة من لدن زكريا إلى إدريس عليه السلام. و«من» في مِنَ النَّبِيِّينَ للبيان مثلها في قوله تعالى في آخر سورة الفتح وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً لأن جميع الأنبياء منعم عليهم. ومن الثانية للتبعيض ، وكان إدريس من ذرية آدم لقربه منه لأنه جد أبى نوح. وإبراهيم عليه السلام من ذرية من حمل مع نوح : لأنه من ذرية سام بن نوح ، وإسماعيل من ذرية إبراهيم. وموسى وهرون وزكريا ويحيى من ذرية إسرائيل. وكذلك عيسى : لأنّ مريم من ذرّيته وَمِمَّنْ هَدَيْنا يحتمل العطف على من الأولى والثانية. إن جعلت الذين خبرا لأولئك كان إذا تُتْلى كلاما مستأنفا. وإن جعلته صفة له كان خبرا. قرأ شبل بن عباد المكي : يتلى ، بالتذكير ، لأن التأنيث غير حقيقى مع وجود الفاصل. البكى : جمع باك ، كالسجود والقعود في جمع ساجد وقاعد. عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «اتلوا القرآن وابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا «1»» وعن صالح المري رضى الله عنه : قرأت القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقال لي : «هذه القراءة يا صالح ، فأين البكاء»؟ وعن ابن عباس رضى الله عنهما : إذا قرأتم سجدة سبحان فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا ، فإن لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن القرآن أنزل بحزن فإذا قرأتموه فتحازنوا «2»» وقالوا : يدعو في سجدة التلاوة بما يليق بآيتها ، فإن قرأ آية تنزيل السجدة قال : اللهم اجعلنى من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك ، وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك. وإن قرأ سجدة سبحان قال : اللهم اجعلنى من الباكين إليك الخاشعين لك. وإن قرأ هذه قال : اللهم اجعلنى من عبادك المنعم عليهم المهتدين ، الساجدين لك ، الباكين عند تلاوة آياتك.

[سورة مريم (19) : آية 59]

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَواتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (59)

(1). أخرجه إسحاق والبزار من طريق عبد الرحمن بن أبى مليكة عن ابن أبى مليكة عن عبد الرحمن بن السائب عن سعيد بلفظ «إن هذا القرآن نزل بحزن فإذا قرأتموه فابكوا فان لم تبكوا فتباكوا - الحديث» ومن هذا الوجه أخرجه أبو يعلى والحارث. والبيهقي في الشعب. وإسماعيل أيضا لين.
(2). أخرجه ابن مردويه من حديث ابن عباس بلفظ «فاقرؤه بحزن» وإسناده ضعيف. ورواه أبو يعلى والعقيلي. وأبو نعيم في ترجمة رباح بن عمرو العبسي من حديث أبى بريدة عن أبيه بلفظ «اقرءوا القرآن بحزن فانه نزل بحزن».

خلفه : إذا عقبه ، ثم قيل في عقب الخير «خلف» بالفتح ، وفي عقب السوء : خلف ، بالسكون ، كما قالوا «وعد» في ضمان الخير ، و«وعيد» في ضمان الشر. عن ابن عباس رضى اللّه عنه : هم اليهود ، تركوا الصلاة المفروضة ، وشربوا الخمر ، واستحلوا نكاح الأخت من الأب.

وعن إبراهيم ومجاهد رضى الله عنهما : أضاعوها بالتأخير. وينصر الأول قوله إِلَّا مَنْ تابَ وَآمَنَ يعنى الكفار. وعن على رضى الله عنه في قوله وَاتَّبَعُوا الشَّهَواتِ من بنى الشديد ، وركب المنظور ، ولبس المشهور. وعن قتادة رضى اللّه عنه : هو في هذه الأمة. وقرأ ابن مسعود والحسن والضحاك رضى اللّه عنهم : الصلوات ، بالجمع.

كل شر عند العرب : غىّ ، وكل خير : رشاد. قال المرقش :

فمن يلق خيرا تحمد النّاس أمره ومن يغو لا يعدم على الغى لائما «1»

وعن الزجاج : جزاء غىّ ، كقوله تعالى يَلْقَ أَثاماً أى مجازاة أثام. أو غيا عن طريق الجنة.

وقيل «غىّ» واد في جهنم تستعيذ منه أوديتها. وقرأ الأخفش يُلْقُونَ.

[سورة مريم (19) : آية 60]

إِلاَّ مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئاً (60)

قرئ : يدخلون ، ويدخلون : أى لا ينقصون شيئا من جزاء أعمالهم ولا يمنعونه ، بل يضاعف لهم ، بيانا لأن تقدّم الكفر لا يضرهم إذا تابوا من ذلك ، من قولك : ما ظلمك أن تفعل كذا ، بمعنى : ما منعك. أو لا يظلمون البتة ، أى شيئا من الظلم.

[سورة مريم (19) : آية 61]

جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمنُ عِبادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (61)

لما كانت الجنة مشتملة على جنات عدن أبدلت مها ، كقولك : أبصرت دارك القاعة والعلالي. و«عدن» معرفة علم ، بمعنى العدن وهو الإقامة ، كما جعلوا.

(1) أمن حلم أصبحت تنكت واجما وقد تعترى الأحلام من كان نائما
فمن يلق خيرا يحمد الناس أمره ومن يغو لا يعدم على الغى لائما
للمرقش الأصغر صاحب فاطمة بنت المنذر ، والأكبر عم الأصغر وعم طرفة ، وهو صاحب أسماء ، والاستفهام للتوبيخ ، والحلم - بضمتين - : ما يراه النائم. والنكت : التخطيط والنقر في الأرض بإصبع ، أو عود ، كما يفعل المهموم المتفكر. والواجم : الحزين ، والواو للحال ، أى : والحال أن أضغاث الأحلام قد تعترى النائم ، فكان مجردة عن المعنى ، فمن يلق : أى يصادف خيرا في أفعاله ، يحمد الناس فعله ، أو شأنه. وإيقاع الحمد عليه لأنه سببه ، ومن يفعل غيا لا يعدم لائما يلومه على غيه. وقيل : أراد بالخير الغنى ، الفقر ، ويبعده مقام اللوم وعدم مناسبته لما قبله. وغوى يغوى : من باب ضرب : انهمك في الجهل ، وعدم يعدم - من باب علم - : فقده.

فينة ، وسحر ، وأمس - فيمن لم يصرفه - أعلاما لمعانى : الفينة ، «1» والسحر ، والأمس ، فجرى مجرى العدن لذلك.

أو هو علم لأرض الجنة ، لكونها مكان إقامة ، ولولا ذلك لما ساغ الإبدال ، لأن النكرة لا تبدل من المعرفة إلا موصوفة ، ولما ساغ وصفها بالتي. وقرئ : جنات عدن. وجنة عدن بالرفع على الابتداء. أى : وعدها وهي غائبة عنهم غير حاضرة. أو هم غائبون عنها لا يشاهدونها. أو بتصديق الغيب والإيمان به. قيل في مَأْتِيًّا مفعول بمعنى فاعل.

والوجه أنّ الوعد هو الجنة وهم يأتونها. أو هو من قولك : أتى إليه إحسانا ، أى : كان وعده مفعولا منجزا.

[سورة مريم (19) : آية 62]

لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً إِلاَّ سَلاماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَعَشِيًّا (62)

اللغو : فضول الكلام وما لا طائل تحته. وفيه تنبيه ظاهر على وجوب تجنب اللغو واتقائه ، حيث نزه الله عنه الدار التي لا تكليف فيها. وما أحسن قوله سبحانه وَإِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً وَإِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقالُوا لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ نعوذ بالله من اللغو والجهل والخوض فيما لا يعنينا. أى : إن كان تسليم بعضهم على بعض أو تسليم الملائكة عليهم لغوا ، فلا يسمعون لغوا إلا ذلك ، فهو من وادى قوله : ولا عيب فيهم غير أنّ سيوفهم بهنّ فلول من قراع الكتائب «2» أو لا يسمعون فيها إلا قولا يسلمون فيه من العيب والنقيصة ، على الاستثناء المنقطع «3».

أو لأن معنى السلام هو الدعاء بالسلامة «4». ودار السلام : هي دار السلامة ، وأهلها عن الدعاء بالسلامة أغنياء ، فكان ظاهره من باب اللغو وفضول الحديث ، لولا ما فيه من فائدة الإكرام.

(1). قوله «لمعانى الفينة» في الصحاح «لقيته الفينة بعد الفينة» أى الحين بعد الحين. وإن شئت حذفت الألف واللام فقلت : لقيته فينة ، كما قالوا لقيته الندرى : وفي ندرى. (ع) [.....]
(2). تقدم شرح هذا الشاهد بصفحة 142 من الجزء الثاني فراجعه إن شئت اه مصححه.
(3). قال محمود : «يجوز أن يكون من قوله :
ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب
وأن يكون استثناء منقطعا» قال أحمد : والفرق بين الوجهين أنه جعل الفلول عيبا على سبيل التجوز ، بتا لنفى العيب بالكلية ، كأنه يقول : إن كان فلول السيوف من القراع عيبا فإنهم ذوو عيب ، معناه : وإن لم يكن عيبا فليس فيهم عيب البتة ، لأنه لا شيء سوى هذا، فهو بعد هذا التجوز والفرض استثناء متصل.
(4). عاد كلامه. قال : «و يجوز أن يكون متصلا على أن يكون السلام هو الدعاء بالسلامة ... الخ» قال أحمد :
وهذا يجعله من المتصل على أصل الحقيقة. لا كالأول الناشئ عن المجاز. وفي هذا الباب بعد ، لأنه يقتضى البت بأن الجنة يسمع فيها لغو وفضول ، وحاش لله ، فلا غول فيها ولا لغو.

من الناس من يأكل الوجبة «1». ومنهم من يأكل متى وجد - وهي عادة المنهومين.

ومنهم من يتغدى ويتعشى - وهي العادة الوسطى المحمودة ، ولا يكون ثم ليل ولا نهار ، ولكن على التقدير ، ولأن المتنعم عند العرب من وجد غداء وعشاء. وقيل : أراد دوام الرزق ودروره ، كما تقول : أنا عند فلان صباحا ومساء وبكرة وعشيا ، يريد : الديمومة ، ولا تقصد الوقتين المعلومين.

[سورة مريم (19) : آية 63]

تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبادِنا مَنْ كانَ تَقِيًّا (63)
نُورِثُ وقرئ : نورّث ، استعارة ، أى : نبقى عليه الجنة كما نبقى على الوارث مال المورّث ولأن الأتقياء يلقون ربهم يوم القيامة قد انقضت أعمالهم وثمرتها باقية وهي الجنة ، فإذا أدخلهم الجنة فقد أورثهم من تقواهم كما يورّث الوارث المال من المتوفى. وقيل : أورثوا من الجنة المساكن التي كانت لأهل النار لو أطاعوا.

[سورة مريم (19) : آية 64]

وَما نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا وَما خَلْفَنا وَما بَيْنَ ذلِكَ وَما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (64)

وَما نَتَنَزَّلُ حكاية قول جبريل صلوات الله عليه حين استبطأه رسول الله صلى الله عليه وسلم. روى أنه احتبس أربعين يوما. وقيل : خمسة عشر يوما ، وذلك حين سئل عن قصة أصحاب الكهف وذى القرنين والروح ، فلم يدر كيف يجيب ورجا أن يوحى إليه فيه ، فشق ذلك عليه مشقة شديدة وقال المشركون : ودّعه ربه وقلاه فلما نزل جبريل عليه السلام قال له النبي صلى الله عليه وسلم : أبطأت حتى ساء ظنى واشتقت إليك. قال : إنى كنت أشوق ولكنى عبد مأمور ، إذا بعثت نزلت ، وإذا حبست احتبست. وأنزل الله سبحانه هذه الآية وسورة الضحى «2». والتنزل على معنيين : معنى النزول على مهل ، ومعنى النزول على الإطلاق ، كقوله :

(1). قوله «من الناس من يأكل الوجبة» أى يأكل كل يوم وليلة مرة ، وقد وجب نفسه توجيبا إذا عودها ذلك ، كذا في الصحاح. (ع)

(2). ذكره الثعلبي عن عكرمة والضحاك وقتادة ومقاتل والكلبي. فقالوا ، احتبس ، فذكره سواء ، وكأنه ملفق عندهم ، فقد ذكره ابن إسحاق في السيرة. قال حدثني شيخ من أهل مصر عن عكرمة عن ابن عباس «أن قريشا جاءوا فقالوا : يا محمد ، أخبرنا عن فتية ذهبوا في الدهر الأول - فذكر القصة - وفيها «فمكث فيما يذكرون خمسة عشرة ليلة لا يحدث اللّه إليه في ذلك وصار لا يأتيه جبريل. فذكره بتغير وزيادة ونقص. ورواه أبو نعيم في الدلائل من طريقه ومن طريق الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس نحوه. وقال أبطأ عنه خمسة عشر يوما لتركه الاستثناء.

فلست لإنسىّ ولكن لملأك تنزّل من جو السّماء يصوب «1»

لأنه مطاوع نزل ، ونزل يكون بمعنى أنزل ، وبمعنى التدريج ، واللائق بهذا الموضع هو النزول على مهل والمراد أن نزولنا في الأحايين وقتا غب وقت ليس إلا بأمر اللّه ، وعلى ما يراه صوابا وحكمة ، وله ما قدامنا وَما خَلْفَنا من الجهات والأماكن وَما بَيْنَ ذلِكَ وما نحن فيها فلا نتمالك أن ننتقل من جهة إلى جهة ومكان إلى مكان إلا بأمر المليك ومشيئته ، وهو الحافظ العالم بكل حركة وسكون ، وما يحدث ويتجدد من الأحوال ، لا يجوز عليه الغفلة والنسيان ، فأنى لنا أن نتقلب في ملكوته إلا إذا رأى ذلك مصلحة وحكمة ، وأطلق لنا الإذن فيه. وقيل : ما سلف من أمر الدنيا وما يستقبل من أمر الآخرة ، وما بين ذلك : ما بين النفختين وهو أربعون سنة. وقيل : ما مضى من أعمارنا وما غبر منها ، والحال التي نحن فيها. وقيل : ما قبل وجودنا وما بعد فنائنا. وقيل : الأرض التي بين أيدينا إذا نزلنا ، والسماء التي وراءنا ، وما بين السماء والأرض ، والمعنى : أنه المحيط بكل شيء لا تخفى عليه خافية ولا يعزب عنه مثقال ذرة ، فكيف نقدم على فعل نحدثه إلا صادرا عما توجبه حكمته ويأمرنا به ويأذن لنا فيه. وقيل معنى وَما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا وما كان تاركا لك ، كقوله تعالى ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلى أى : ما كان امتناع النزول إلا لامتناع الأمر به. وأما احتباس الوحى فلم يكن عن ترك اللّه لك وتوديعه إياك ، ولكن لتوقفه على المصلحة. وقيل : هي حكاية قول المتقين حين يدخلون الجنة ، أى : وما ننزل الجنة إلا بأن من اللّه علينا بثواب أعمالنا وأمرنا بدخولها ، وهو المالك لرقاب الأمور كلها السالفة والمترقبة والحاضرة ،

(1) تعاليت أن تعزى إلى الانس جلة وللانس من يعزوك فهو كذوب
فلست باء نسى ولكن ملأكا تنزل من جو السماء يصوب
لرجل من عبد القيس ، يمدح النعمان بن المنذر. وقيل لأبى وجرة يمدح عبد اللّه بن الزبير. وتعزى : أى تنسب ، والجلة - بالضم وعاء التمر ، وبالكسر : الجماعة العظيمة ، جمع جليل ، وبالفتح : البعرة ، وهو تمييز محول من نائب عن الفاعل ، أى : تعاليت عن أن ينسب وعاءك أى : أصلك إلى الانس. وقوله : وللانس من يعزوك ، فيه تقديم معمول الصلة على الموصول. والمشهور منعه : لأنهم يتوسعون في الظروف ، وزيدت الفاء في خبر الموصول لأنه يشبه الشرط ، ولو جعل شرطا لكان فيه إثبات حرف العلة بعد الجازم للضرورة. والملأك معفل ، بتقديم العين من الألوكة بالفتح وهي الرسالة ، وقال أبو عبيدة : هو مفعل على اسم المكان ، من لأك إذ أرسل ، ولعله جاء على مفعل لتصوير أن الرسول مكان الرسالة. وقال ابن كيسان : هو فعأل من الملك ، فالهمزة زائدة ، وعلى كل يخفف بالنقل فيقال فيه تلك. والصوب : القصد أو الميل عند النزول ، ونصب ملأكا لأنه اسم لكن ، وما بعده صفته ، أى : ولكن ملأكا نازلا من السماء أنت. وفيه : أن المحدث عنه الممدوح لا الملك ، ويمكن أنه قلب للمبالغة كما قالوه في التشبيه المقلوب. ويحتمل أن تقديره : ولكنك كنت ملأكا ، وفيه بعد. والأوجه رواية الصحاح :
فلست لانسى ولكن لملأك
أى : فلست منسوبا لانسى ولكن لملك ، وبالغ في ذلك حتى جعله نازلا من جهة السماء ، يصوب : أى يقصد إلى جهة.

اللاطف في أعمال الخير والموفق لها والمجازى عليها ، ثم قال اللّه تعالى - تقريرا لقولهم - : وما كان ربك نسيا لأعمال العاملين غافلا عما يجب أن يثابوا به ، وكيف يجوز النسيان والغفلة على ذى ملكوت السماء والأرض وما بينهما؟ ثم قال لرسوله صلى اللّه عليه وسلم : فحين عرفته على هذه الصفة ، فأقبل على العمل واعبده : يثبك كما أثاب غيرك من المتقين. وقرأ الأعرج رضى اللّه عنه : وما يتنزل ، بالياء على الحكاية عن جبريل عليه السلام والضمير للوحى.

وعن ابن مسعود رضى اللّه عنه : إلا بقول ربك. يجب أن يكون الخلاف في النسى مثله في البغي.

[سورة مريم (19) : آية 65]

رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (65)

رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ بدل من ربك ، ويجوز أن يكون خبر مبتدإ محذوف ، أى هو رب السموات والأرض فَاعْبُدْهُ كقوله :

وقائلة خولان فانكح فتاتهم «1»

وعلى هذا الوجه يجوز أن يكون وَما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا من كلام المتقين ، وما بعده من كلام رب العزة. فإن قلت : هلا عدى اصْطَبِرْ بعلى التي هي صلته ، كقوله تعالى وَاصْطَبِرْ عَلَيْها؟

قلت : لأن العبادة جعلت بمنزلة القرن في قولك للمحارب : اصطبر لقرنك ، أى اثبت له فيما يورد عليك من شدائد أريد أن العبادة تورد عليك شدائد ومشاق ، فاثبت لها ولا تهن ، ولا يضق صدرك عن إلقاء عداتك من أهل الكتاب إليك الأغاليط ، وعن احتباس الوحى عليك مدة وشماتة المشركين بك. أى : لم يسم شيء بالله قط ، وكانوا يقولون لأصنامهم : آلهة ، والعزى إله وأما الذي عوض فيه الألف واللام من الهمزة ، فمخصوص به المعبود الحق غير مشارك فيه.

(1) وقائلة خولان فانكح فتاتهم وأكرومة الحيين خلو كما هيا
شاعره مجهول. أى : ورب قائلة. وخولان بالفتح اسم قبيلة باليمن ، وهو مبتدأ خبره ما بعده ، والفاء زائدة فيه على رأى الأخفش والفراء ، ومنع سيبويه زيادتها هنا ، لأن المبتدأ لم يشبه الشرط ، فخبره محذوف ، أى : خولان كرام فانكح أى تزوج فتاتهم ، أو هو خبر لمحذوف ، أى : هؤلاء خولان المعروفون بالكرم ، فتزوج بفتاتهم.
وبنى «أكرومة» من الكرم للدلالة على كثرة السكرم ، كما أن أعجوبة من التعجب للدلالة على كثرته ، والجملة حالية ، فيحتمل أنها مانعة من نكاح الفتاة ، أى قالت لي ذلك ، والحال أن أكرومة الحيين أى كريمة حى أبى وحى أمى خلو بالضم : خالية من الأرواح كما كانت ، فهي أولى من الفتاة بالزواج لقرابتها منى. ويحتمل أنها داعية إليه ، فالمعنى : قالت لي ذلك والحال أن الفتاة التي هي أكرومة الحيين ، أى حى أبيها وحى أمها من خولان ، على ما هي عليه من البكارة ، أو من الخلو من الأزواج لم تتزوج أحدا قبلي ، فهي حقيقة بأن أتزوجها لكرم طرفيها ، فعلم أن الكاف بمعنى على. ويجوز أن يشبه حالها الآن بحالها فيما مضى ، فالكاف على أصلها. ويحتمل أن الواو للعطف ، أى : قالت ذلك ، وقالت : إنها خالية لم يطمثها أحد قبلك ، فهي حقيقة بالزواج لذلك ، لكنه بعيد.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : لا يسمى أحد الرحمن غيره. ووجه آخر : هل تعلم من سمى باسمه على الحق دون الباطل ، لأن التسمية على الباطل في كونها غير معتدّ بها كلا تسمية. وقيل : مثلا وشبيها ، أى : إذا صح أن لا معبود يوجه إليه العباد العبادة إلا هو وحده ، لم يكن بد من عبادته والاصطبار على مشاقها وتكاليفها.

[سورة مريم (19) : الآيات 66 إلى 67]

وَيَقُولُ الْإِنْسانُ أَإِذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (66) أَوَ لا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً (67)

يحتمل أن يراد بالإنسان الجنس بأسره ، وأن يراد بعض الجنس وهم الكفرة. فإن قلت : لم جازت إرادة الأناسى كلهم ، وكلهم غير قائلين ذلك؟ قلت : لما كانت هذه المقالة موجودة فيمن هو من جنسهم ، صح إسناده إلى جميعهم ، كما يقولون : بنو فلان قتلوا فلانا ، وإنما القاتل رجل منهم. قال الفرزدق :

فسيف بنى عبس وقد ضربوا به نبا بيدي ورقاء عن رأس خالد «1»

فقد أسند الضرب إلى بنى عبس مع قوله «نبا بيدي ورقاء» وهو ورقاء بن زهير بن جذيمة العبسي.

فإن قلت : بم انتصب إذا وانتصابه بأخرج ممتنع لأجل اللام ، لا تقول : اليوم لزيد قائم؟ قلت : بفعل مضمر يدل عليه المذكور. فإن قلت : لام الابتداء الداخلة على المضارع تعطى معنى الحال ، فكيف جامعت حرف الاستقبال؟ «2» قلت : لم تجامعها إلا مخلصة للتوكيد كما أخلصت الهمزة في يا الله للتعويض واضمحل عنها معنى التعريف. و«ما» في إذا ما للتوكيد أيضا ، فكأنهم قالوا : أحقا أنا سنخرج أحياء حين يتمكن فينا الموت والهلاك؟ على وجه الاستنكار والاستبعاد.

والمراد الخروج من الأرض ، أو من حال الفناء. أو هو من قولهم : خرج فلان عالما ، وخرج شجاعا :

(1). للفرزدق وهذا لقبه ، واسمه همام أو هميم ، يريد : ورقاء بن زهير بن جذيمة العبسي ، أمره سليمان بن عبد الملك بضرب أعناق بعض أسرى الروم ، وأعطاه سيفا لا يقطع فقال : بل أضربهم بسيف أبى رغوان مجاشع ، يعنى نفسه ، فضرب عنق خالد فانحرف السيف وارتفع عن المضرب ، فضحكوا منه. ونسب السيف والضرب إلى بنى عبس مع أنهما لواحد منهم ، تعظيما لهما وتفخيما. وجعله في اليدين إشارة إلى أنه كان مجمعا أمره وحازما عزمه غير متهاون ..
والمعنى : أن الحذر لا ينفع من القدر كما وقع لورقاء ، مع أنه في غاية الحرص ، لا سيما أمام الملك. ويجوز أنه يريد ذم بنى عبس.
(2). قال محمود : «إن قلت كيف اجتمعت اللام وهي للحال مع حرف الاستقبال ... الخ» قال أحمد :
ولاعتقاد تناقض الحرفين : منع الكوفيين اجتماعهما ، وإنما جردت اللام من معناها لتلائم «سوف» دون أن تجرد سوف لتلائم اللام ، لأنه لو عكس هذا للغت سوف ، إذ لا معنى لها سوى الاستقبال. وأما اللام إذا جردت من الحال بقي لها التوكيد ، فلم تلغ ، فتعين ،

إذا كان نادرا في ذلك ، يريد : سأخرج حيا نادرا على سبيل الهزؤ. وقرأ الحسن وأبو حيوة : لسوف أخرج. وعن طلحة بن مصرف رضى اللّه عنه : لسأخرج ، كقراءة ابن مسعود رضى اللّه عنه : ولسيعطيك ، وتقديم الظرف وإيلاؤه حرف الإنكار من قبل أن ما بعد الموت هو وقت كون الحياة منكرة ، ومنه جاء إنكارهم ، فهو كقولك للمسيء إلى المحسن : أحين تمت عليك نعمة فلان أسأت إليه : الواو عطفت لا يَذْكُرُ على يَقُولُ ووسطت همزة الإنكار بين المعطوف عليه وحرف العطف ، يعنى : أيقول ذاك ولا يتذكر حال النشأة الأولى حتى لا ينكر الأخرى «1» فإن تلك أعجب وأغرب وأدل على قدرة الخالق ، حيث أخرج الجواهر والأعراض من العدم إلى الوجود ، ثم أوقع التأليف مشحونا بضروب الحكم التي تحار الفطن فيها ، من غير حذو على مثال واقتداء بمؤلف. ولكن اختراعا وإبداعا من عند قادر جلت قدرته ودقت حكمته. وأما الثانية فقد تقدمت نظيرتها وعادت لها كالمثال المحتذى عليه. وليس فيها إلا تأليف الأجزاء الموجودة الباقية وتركيبها ، وردها إلى ما كانت عليه مجموعة بعد التفكيك والتفريق. وقوله تعالى وَلَمْ يَكُ شَيْئاً دليل على هذا المعنى ، وكذلك قوله تعالى وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ على أن رب العزة سواء عليه النشأتان ، لا يتفاوت في قدرته الصعب والسهل ، ولا يحتاج إلى احتذاء على مثال ولا استعانة بحكيم ، ولا نظر في مقياس ، ولكن يواجه جاحد البعث بذلك دفعا في بحر معاندته ، وكشفا عن صفحة جهله. القراء كلهم على لا يَذْكُرُ بالتشديد إلا نافعا وابن عامر وعاصما رضى اللّه عنهم ، فقد خففوا. وفي حرف أبىّ : يتذكر مِنْ قَبْلُ من قبل الحالة التي هو فيها وهي حالة بقائه.

---

(1). قال محمود : «ذكر اللّه الإنسان النشأة الأولى ليعترف بالأخرى ... الخ» قال أحمد : مذهب أهل السنة أن إعادة المعدوم جائزة عقلا ، ثم واقعة نقلا ، والمعتزلة وإن وافقت على ذلك ، إلا أنها تزعم أن المعدوم له ذات ثابتة في العدم ، يقضى عليها بأنها شيء فليس عندهم عدم صرف ونفى محض قبل الوجود ولا بعده ، فكأنهم لولا ذلك لقالوا بقول الفلاسفة الذين هم مختصرهم ، ولأنكروا إعادة المعدوم كما أنكره القدماء. وعقيدة أهل السنة هي المطابقة للآية ، لأن النشأة الأولى لم يتقدمها وجود ، ولأن المنشأ ابتداء لم يكن شيئا قبل ذلك. وأما النشأة الثانية فقد تقدمها وجود ، وكان المنشأ قبلها شيئا في زمان وجوده ، ثم عدم وبطلت شيئيته ، فظهر فرق ما بين النشأتين كما نطق به القرآن ، وأما المعتزلة فان قالوا : إن الأجسام يعدمها اللّه ثم يوجدها ، فقد قالوا الحق ، لكن لا يتم على أصلهم فرق بين النشأتين ، لأن المعدوم فيهما كان شيئا قبل النشأة ، فان قالوا لا تنعدم الأجسام ، وإنما تتفرق ثم تجمع كما صرح به الزمخشري ، لأنه تفطن لأن القول بأن الأجسام تنعدم ثم يوجدها اللّه تعالى مع القول بأن المعدوم شيء - يبطل الفرق بين النشأتين ولم يطق ذلك ، وقد نطق به القرآن فالتزم أن الأجسام لا تنعدم ليتم له الفرق بين النشأة الثانية - وإنما هي على هذا التقرير جمع وتأليف لموجود - وبين النشأة الأولى التي هي إيجاد معدوم ، فتنبه لبعد غوره ، ولكن هرب من القطر فوقع تحت الميزاب ، فهو والحالة هذه كالمستغيث من الرمضاء بالنار ، واللّه ولى التوفيق. ومعنى تفريق اللّه تعالى بين النشأتين : أن الجاحد متهافت لأنه اعترف بالأولى وهي أصعب بالنسبة إلى قياس العقل ، وأنكر الثانية وهي أسهل وأهون ، لأن ذلك راجع إلى قدرته تعالى. فان الكل لدى قدرة اللّه تعالى هين على سواه.

[سورة مريم (19) : الآيات 68 إلى 70]

فَوَ رَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّياطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (68) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيًّا (69) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلى بِها صِلِيًّا (70)

في إقسام اللّه تعالى باسمه تقدست أسماؤه مضافا إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : تفخيم لشأن رسول اللّه ورفع منه ، كما رفع من شأن السماء والأرض في قوله تعالى فَوَ رَبِّ السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ والواو في وَالشَّياطِينَ يجوز أن تكون للعطف ، وبمعنى مع ، وهي بمعنى «مع» أوقع. والمعنى : أنهم يحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذين أغووهم ، يقرن كل كافر مع شيطان في سلسلة. فإن قلت : هذا إذا أريد بالإنسان الكفرة خاصة ، فإن أريد الأناسى على العموم «1» فكيف يستقيم حشرهم مع الشياطين؟ قلت : إذا حشر جميع الناس حشرا واحدا وفيهم الكفرة مقرونين بالشياطين.

فقد حشروا مع الشياطين كما حشروا مع الكفرة. فإن قلت : هلا عزل السعداء عن الأشقياء في الحشر كما عزلوا عنهم في الجزاء؟ قلت : لم يفرّق بينهم وبينهم في المحشر ، وأحضروا حيث تجاثوا حول جهنم ، وأوردوا معهم النار ليشاهد السعداء الأحوال التي نجاهم اللّه منها وخلصهم ، فيزدادوا لذلك غبطة إلى غبطة وسرورا إلى سرور ، ويشمتوا بأعداء اللّه وأعدائهم ، فتزداد مساءتهم وحسرتهم وما يغيظهم من سعادة أولياء اللّه وشماتتهم بهم. فإن قلت : ما معنى إحضارهم جثيا؟ قلت : أما إذا فسر الإنسان بالخصوص ، فالمعنى أنهم يقبلون من المحشر إلى شاطئ جهنم عتلا «2» على حالهم التي كانوا عليها في الموقف ، جثاة على ركبهم ، غير مشاة على أقدامهم ، وذلك أن أهل الموقف وصفوا بالجثو. قال اللّه تعالى وَتَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً على العادة المعهودة في مواقف المقاولات والمناقلات ، من تجاثى أهلها على الركب ، لما في ذلك من الاستيفاز والقلق

(1). عاد كلامه. قال : «و الإنسان يحتمل أن يراد به العموم ... الخ» قال أحمد : التبست عليه إرادة العموم بتناول العموم وبينهما بون ، ومن ثم خلت عبارته هذه عن التحرز والصون ، فصرح بأن اللّه تعالى أراد بالإنسان العموم ، ومعنى إرادة العموم : أن يريد اللّه تعالى نسبة كلمة الشك والكفر إلى كل فرد من أفراد الإنسان ، ومعاذ اللّه. وقد صرح الزمخشري بأن الناطق بكلمة الشك بعض الجنس ، ففي العبارة خلل كما ترى. والعبارة الصحيحة أن يقال : يحتمل أن يكون التعريف جنسيا ، فيكون عهديا ، فيكون اللفظ من أول وهلة خاصا ، واللّه أعلم.
(2). قوله «عتلا» العتل : الجذب العنيف. أفاده الصحاح - (ع)

وإن فسر بالعموم ، فالمعنى أنهم يتجاثون عند موافاة شاطئ جهنم ، على أن جثيا حال مقدرة كما كانوا في الموقف متجاثين ، لأنه من توابع التواقف للحساب قبل التوصل إلى الثواب والعقاب. والمراد بالشيعة - وهي «فعلة» كفرقة وفتية - الطائفة التي شاعت «1» ، أى تبعت غاويا من الغواة. قال اللّه تعالى إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً يريد : نمتاز من كل طائفة من طوائف الغىّ والفساد أعصاهم فأعصاهم ، وأعتاهم فأعتاهم. فإذا اجتمعوا طرحناهم في النار على الترتيب. نقدم أولاهم بالعذاب فأولاهم.

أو أراد بالذين هم أولى به صليا : المنتزعين كما هم ، كأنه قال : ثم لنحن أعلم بتصلية هؤلاء ، وهم أولى بالصلى من بين سائر الصالين ، ودركاتهم أسفل ، وعذابهم أشدّ. ويجوز أن يريد بأشدّهم عتيا : رؤساء الشيع وأئمتهم ، لتضاعف جرمهم بكونهم ضلالا ومضلين. قال اللّه تعالى الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْناهُمْ عَذاباً فَوْقَ الْعَذابِ بِما كانُوا يُفْسِدُونَ ، وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ واختلف في إعراب أَيُّهُمْ أَشَدُّ فعن الخليل أنه مرتفع على الحكاية. تقديره : لتنزعنّ الذين يقال فيهم أيهم أشد ، وسيبويه على أنه مبنى على الضم لسقوط صدر الجملة التي هي صلته ، حتى لو جيء به لأعرب. وقيل : أيهم هو أشد. ويجوز أن يكون النزع واقعا على مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ ، كقوله سبحانه وَوَهَبْنا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنا أى لننزعن بعض كل شيعة ، فكأنّ قائلا قال : من هم؟ فقيل : أيهم أشد عتيا. وأيهم أشد : بالنصب عن طلحة ابن مصرف وعن معاذ بن مسلم الهراء أستاذ الفراء. فإن قلت : بم يتعلق على والباء ، فإنّ تعلقهما بالمصدرين لا سبيل إليه؟ قلت : هما للبيان لا الصلة. أو يتعلقان بأفعل ، أى : عتوّهم أشد على الرحمن ، وصليهم أولى بالنار ، كقولهم : هو أشد على خصمه ، وهو أولى بكذا.

[سورة مريم (19) : الآيات 71 إلى 72]

وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وارِدُها كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا (71) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا (72)

وَإِنْ مِنْكُمْ التفات إلى الإنسان ، يعضده قراءة ابن عباس وعكرمة رضى اللّه عنهما : وإن منهم. أو خطاب للناس «2» من غير التفات إلى المذكور ، فإن أريد الجنس كله فمعنى الورود دخولهم فيها وهي جامدة ، فيعبرها المؤمنون وتنهار بغيرهم. عن ابن عباس رضى اللّه عنه : يردونها كأنها إهالة. وروى دواية».

(1). قوله «شاعت» في الصحاح : شاعه شياعا : تبعه. (ع)
(2). قال محمود : «يحتمل أن يكون استئنافا خطابا للناس ، ويحتمل أن يكون التفاتا» قال أحمد : احتمال الالتفات مفرع على إرادة العموم من الأول ، فيكون المخاطبون أولا هم المخاطبين ثانيا ، إلا أن الخطاب الأول بلفظ الغيبة ، والثاني بلفظ الحضور. وأما إذا بنينا على أن الأول إنما أريد منه خصوص على التقديرين جميعا ، فالثاني ليس التفاتا ، وإنما هو عدول إلى خطاب العامة عن خطاب خاص لقوم معينين ، واللّه أعلم. [.....]

وعن جابر بن عبد اللّه أنه سأل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن ذلك؟ فقال : إذا دخل أهل الجنة الجنة قال بعضهم لبعض : أليس قد وعدنا ربنا أن نرد النار ، فيقال لهم : قد وردتموها وهي جامدة «2». وعنه رضى اللّه عنه أنه سئل عن هذه الآية؟ فقال : سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول «الورود الدخول ، لا يبقى برّ ولا فاجر إلا دخلها ، فتكون على المؤمنين بردا وسلاما كما كانت على إبراهيم ، حتى إنّ للنار ضجيجا من بردها» «3» وأما قوله تعالى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ فالمراد عن عذابها. وعن ابن مسعود والحسن وقتادة : هو الجواز على الصراط ، لأنّ الصراط ممدود عليها. وعن ابن عباس : قد يرد الشيء الشيء ولا يدخله ، كقوله تعالى وَلَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ ووردت القافلة البلد ، وإن لم تدخله ولكن قربت منه. وعن مجاهد : ورود المؤمن النار هو مس الحمى جسده في الدنيا ، لقوله عليه السلام «الحمى من فيح جهنم» «4» وفي الحديث «الحمى حظ كل مؤمن من النار» «5» ويجوز أن يراد بالورود : جثوّهم حولها. وإن أريد الكفار خاصة ، فالمعنى بين.

الحتم : مصدر حتم الأمر إذا أوجبه ، فسمى به الموجب ، كقولهم : خلق الله ، وضرب الأمير ، أى : كان ورودهم واجبا على الله ، أوجبه على نفسه وقضى به ، وعزم على أن لا يكون غيره. قرئ نُنَجِّي وننجي ، وينجى وينجى ، على ما لم يسم فاعله. إن أريد الجنس بأسره فهو ظاهر ،

(1). قوله «كأنها إهالة وروى دواية» في الصحاح «الاهالة» الودك. وفيه أيضا «الدواية» الجليدة التي يوضع فيها اللبن والمرق. (ع)

(2). روى عن جابر هكذا. قلت المحفوظ عن جابر ما سيأتى بعد. وروى ابن إسحاق وأبو عبيد في الغريب وابن المبارك في الزهد من طريق ومعه خالد بن معدان. قال «إذا جاز المؤمنون الصراط نادى بعضهم بعضا : ألم يعدنا ربنا» فذكره ، ولم يذكره الواحدي والبغوي إلا من هذا الوجه.

(3). رواه أحمد وابن أبى شيبة وعبد بن حميد. قالوا حدثنا سليمان بن حرب وأخرجه أبو يعلى والنسائي في الكنى والبيهقي في الشعب في باب النار ، والحكيم في النوادر. السادس عشر ، كلهم من طريق سليمان. قال حدثنا أبو صالح غالب بن سليمان عن كثير بن زياد عن أبى سمية قال «اختلفنا في الورود ، فسألنا جابرا فذكر الحديث أتم منه» وخالفهم كلّهم الحاكم فرواه من طريق سليمان بهذا الاسناد فقال : عن سمية الأزدية عن عبد الرحمن بن شيبة بدل أبى سمية - عن جابر.

(4). متفق عليه من حديث عائشة رضى الله عنها.

(5). أخرجه البزار عن عائشة بهذا. وقال : تفرد برفعه عثمان بن مخلد عن هشيم بن مغيرة عن إبراهيم عن الأسود عنها. وقال الدارقطني : عثمان لا بأس به ، لكن خولف في رفع هذا الحديث فرواه ببدل عن هشيم موقوفا. قلت : وقد روى مرفوعا من وجه آخر. أخرجه القضاعي من مسند الشهاب من طريق أحمد بن رشد الهلالي عن حميد بن عبد الرحمن الروالى عن الحسن بن صالح عن الحسن بن عمرو عن إبراهيم به. وزاد «و حمى ليلة تكفر خطايا سنة» في الباب عن أبى هريرة عن ابن ماجة والحاكم ، وعن أبى ريحانة عند الطبراني ، وعن أبى أمامة عند أحمد. وعن عثمان عند القتيلى وعن سعد بن معاذ عند ابن سعد في الطبقات وعن أنس عند الطبراني بالأوسط. وكلها ضعيفة وهي بمعناه لا بلفظه.

وإن أريد الكفرة وحدهم فمعنى ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا أنّ المتقين يساقون إلى الجنة عقيب ورود الكفار ، لا أنهم يواردونهم ثم يتخلصون. وفي قراءة ابن مسعود وابن عباس والجحدري وابن أبى ليلى : ثم ننجي ، بفتح الثاء ، أى هناك. وقوله وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا دليل على أنّ المراد بالورود الجثوّ حواليها ، وأن المؤمنين يفارقون الكفرة إلى الجنة بعد تجاثيهم ، وتبقى الكفرة في مكانهم جاثين.

[سورة مريم (19) : آية 73]

وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (73)

بَيِّناتٍ مرتلات الألفاظ ، ملخصات المعاني ، مبينات المقاصد : إما محكمات أو متشابهات ، قد تبعها البيان بالمحكمات. أو بتبيين الرسول قولا أو فعلا. أو ظاهرات الإعجاز تحدّى بها فلم يقدر على معارضتها. أو حججا وبراهين. والوجه أن تكون حالا مؤكدة كقوله تعالى وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لأن آيات الله لا تكون إلا واضحة وحججا لِلَّذِينَ آمَنُوا يحتمل أنهم يناطقون المؤمنون بذلك ويواجهونهم به ، وأنهم يفوهون به لأجلهم وفي معناهم ، كقوله تعالى وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ. قرأ ابن كثير مَقاماً بالضم وهو موضع الإقامة والمنزل ، والباقون بالفتح وهو موضع القيام ، والمراد المكان والموضع.

والندىّ : المجلس ومجتمع القوم ، وحيث ينتدون «1». والمعنى : أنهم إذا سمعوا الآيات وهم جهلة لا يعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا وذلك مبلغهم من العلم ، قالوا : أىّ الفريقين من المؤمنين بالآيات والجاحدين لها أوفر حظا من الدنيا حتى يجعل ذلك عيارا على الفضل والنقص ، والرفعة والضعة. ويروى أنهم كانوا يرجلون شعورهم ويدهنون ويتطيبون ويتزينون بالزين الفاخرة ، ثم يدعون مفتخرين على فقراء المسلمين أنهم أكرم على الله منهم.

[سورة مريم (19) : آية 74]

وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثاثاً وَرِءْياً (74)

كَمْ مفعول أَهْلَكْنا ومِنْ تبيين لإبهامها ، أى : كثيرا من القرون أهلكنا.

وكل أهل عصر قرن لمن بعدهم لأنهم يتقدمونهم. وهُمْ أَحْسَنُ في محل النصب صفة لكم.

ألا ترى أنك لو تركت هُمْ لم يكن لك بدّ من نصب أَحْسَنُ على الوصفية.

الأثاث : متاع البيت. وقيل : هو ماجد من الفرش. والخرثي : ما ليس منها. وأنشد الحسن بن على الطوسي :

(1). قوله «حيث ينتدون» في الصحاح «ندوت» أى حضرت الندى. وانتديت : مثله. (ع)

تقادم العهد من أمّ الوليد بنا دهرا وصار أثاث البيت خرثيّا «1»

قرئ على خمسة أوجه رِءْياً وهو المنظر والهيئة فعل بمعنى مفعول ، من رأيت. وريئا ، على القلب كقولهم راء في رأى. وريا ، على قلب الهمزة ياء والإدغام ، أو من الرىّ الذي هو النعمة والترفه ، من قولهم : ريان من النعيم. وريا ، على حذف الهمزة رأسا ، ووجهه أن يخفف المقلوب وهو «رينا» بحذف همزته وإلقاء حركتها على الياء الساكنة قبلها. وزيا ، واشتقاقه من الزىّ وهو الجمع : لأن الزىّ محاسن مجموعة ، والمعنى : أحسن من هؤلاء.

[سورة مريم (19) : آية 75]

قُلْ مَنْ كانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكاناً وَأَضْعَفُ جُنْداً (75)

أى مدّ له الرحمن ، يعنى : أمهله وأملى له في العمر ، فأخرج على لفظ الأمر إيذانا بوجوب ذلك ، وأنه مفعول لا محالة ، كالمأمور به الممتثل ، لتقطع معاذير الضال ، ويقال له يوم القيامة أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ أو كقوله تعالى إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً أو مَنْ كانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا في معنى الدعاء بأن يمهله الله وينفس في مدّة حياته. في هذه الآية وجهان. أحدهما : أن تكون متصلة بالآية التي هي رابعتها ، والآيتان اعتراض بينهما ، أى قالوا : أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ أى لا يبرحون يقولون هذا القول ويتولعون به لا يتكافون عنه إلى أن يشاهدوا الموعود رأى عين إِمَّا الْعَذابَ في الدنيا وهو غلبة المسلمين عليهم وتعذيبهم إياهم قتلا وأسرا وإظهار الله دينه على الدين كله على أيديهم. وإما يوم القيامة وما ينالهم من الخزي والنكال ، فحينئذ يعلمون عند المعاينة أن الأمر على عكس ما قدروه ، وأنهم شر مكانا وأضعف جندا ، لا خير مقاما وأحسن نديا ، وأن المؤمنين على خلاف صفتهم. والثاني : أن تتصل بما يليها. والمعنى : أن الذين في الضلالة ممدود لهم في ضلالتهم. والخذلان لا صق بهم لعلم الله بهم ، وبأن الألطاف لا تنفع فيهم وليسوا من أهلها. والمراد بالضلالة : ما دعاهم من جهلهم وغلوهم في كفرهم إلى القول الذي قالوه. ولا ينفكون عن ضلالهم إلى أن يعاينوا نصرة الله المؤمنين أو يشاهدوا الساعة ومقدّماتها. فإن قلت : حتى هذه ما هي؟ قلت : هي التي تحكى بعدها الجمل.

(1). أثاث البيت : أمتعته ولوازمه : والخرثى كالكرسى : العتيق من ذلك ، يقول : تقادم وتطاول بنا اللقاء من أم الوليد ، أى : تباعد زمنه. فدهرا : تمييز. ويجوز أنه ظرف ، أى : تباعد عهد اللقاء من محبوبتى زمنا طويلا وصار متاع البيت عتيقا قديما. وفيه تحسر على عدم اللقاء.

ألا ترى الجملة الشرطية واقعة بعدها وهي قوله إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكاناً وَأَضْعَفُ جُنْداً في مقابلة خَيْرٌ مَقاماً وَأَحْسَنُ نَدِيًّا لأن مقامهم هو مكانهم ومسكنهم. والندىّ : المجلس الجامع لوجوه قومهم وأعوانهم وأنصارهم. والجند : هم الأنصار والأعوان.

[سورة مريم (19) : آية 76]

وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيْرٌ مَرَدًّا (76)

وَيَزِيدُ معطوف على موضع فليمدد ، لأنه واقع موقع الخبر ، تقديره : من كان في الضلالة مدّ أو يمدّ له الرحمن. ويزيد : أى يزيد في ضلال الضال بخذلانه ، ويزيد المهتدين هداية بتوفيقه وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ أعمال الآخرة كلها. وقيل : الصلوات. وقيل : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، أى هي خَيْرٌ ثَواباً من مفاخرات الكفار وَخَيْرٌ مَرَدًّا أى مرجعا وعاقبة ، أو منفعة ، من قولهم : ليس لهذا الأمر مردّ : وهل يرد بكاى زندا «1»

فإن قلت : كيف قيل خير ثوابا كأنّ لمفاخراتهم ثوابا ، حتى يجعل ثواب الصالحات خيرا منه؟ قلت : كأنه قيل : ثوابهم النار. على طريقة قوله : فأعتبوا بالصّيلم «2»

وقوله :

شجعاء جرّتها الذّميل تلوكه أصلا إذا راح المطي غراثا «3»

وقوله : تحيّة بينهم ضرب وجيع «4»

ثم بنى عليه خير ثوابا. وفيه ضرب من التهكم الذي هو أغيظ للمتهدد من أن يقال له : عقابك النار. فإن قلت : فما وجه التفضيل في الخير كأن لمفاخرهم شركا فيه؟ قلت : هذا من وجيز كلامهم ، يقولون : الصيف أحرّ من الشتاء ، أى : أبلغ من الشتاء في برده.

(1). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثاني صفحة 525 فراجعه إن شئت اه مصححه
(2). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 105 فراجعه إن شئت اه مصححه
(3). الشجع : سرعة نقل القوائم. والشجعاء : السريعة السير. والجرة - بالكسر - ، ما يجتره البعير من كرشه يمضغه. والذميل : نوع من السير. واللوك : المضغ. والأصل : جمع أصيل ، وهو من العصر للغروب. والرواح : من الظهر إليه. والغراث : الجياع. يصف ناقته بسرعة السير ، وشبه السير عندها بجرتها ، بجامع سرعة الحركة وانطباع الناقة واستلذاذها لكل. وجعلها تبرزه شيئا فشيئا كالجرة للمبالغة. وفيه دلالة على خلو بطنها من العلف إذا راح ، أى : إذا كان غيرها لا يجد قوة على السير ، فالغرث : استعارة. ويجوز أن المعنى أنها سريعة في السير ولو كانت جائعة كغيرها من المطايا ، فالغرث حقيقته.
(4). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 60 فراجعه إن شئت اه مصححه

[سورة مريم (19) : الآيات 77 إلى 80]

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآياتِنا وَقالَ لَأُوتَيَنَّ مالاً وَوَلَداً (77) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً (78) كَلاَّ سَنَكْتُبُ ما يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذابِ مَدًّا (79) وَنَرِثُهُ ما يَقُولُ وَيَأْتِينا فَرْداً (80)

لما كانت مشاهدة الأشياء ورؤيتها طريقا إلى الإحاطة بها علما وصحة الخبر عنها ، استعملوا «أ رأيت» في معنى «أخبر» والفاء جاءت لإفادة معناها الذي هو التعقيب ، كأنه قال : أخبر أيضا بقصة هذا الكافر ، واذكر حديثه عقيب حديث أولئك أَطَّلَعَ الْغَيْبَ من قولهم : أطلع الجبل : إذا ارتقى إلى أعلاه وطلع «1» الثنية. قال جرير : لاقيت مطّلع الجبال وعورا «2»

ويقولون : مرّ مطلعا لذلك الأمر ، أى عاليا له مالكا له ، ولاختيار هذه الكلمة شأن ، يقول : أو قد بلغ من عظمة شأنه أن ارتقى إلى علم الغيب الذي توحد به الواحد القهار. والمعنى : أن ما ادعى أن يؤتاه وتألى عليه لا يتوصل إليه إلا بأحد هذين الطريقين : إما علم الغيب ، وإما عهد من عالم الغيب ، فبأيهما توصل إلى ذلك؟ قرأ حمزة والكسائي : ولدا ، وهو جمع ولد ، كأسد في أسد. أو بمعنى الولد كالعرب في العرب. وعن يحيى بن يعمر : ولدا ، بالكسر. وقيل في العهد : كلمة الشهادة. وعن قتادة : هل له عمل صالح قدّمه فهو يرجو بذلك ما يقول؟ وعن الكلبي : هل عهد اللّه إليه أنه يؤتيه ذلك؟ عن الحسن رحمه اللّه : نزلت في الوليد بن المغيرة ، والمشهور أنها في العاصي بن وائل. قال خباب بن الأرت : كان لي عليه دين فاقتضيته ، فقال : لا واللّه حتى تكفر بمحمد. قلت : لا واللّه لا أكفر بمحمد حيا ولا ميتا ولا حين تبعث. قال : فإنى إذا مت بعثت؟ قلت : نعم. قال : إذا بعثت جئتني وسيكون لي ثم مال وولد فأعطيك «3». وقيل : صاغ له خباب حليا فاقتضاه الأجر ،

(1). قوله «و طلع الثنية» في الصحاح «طلعت الجبل» بالكسر : علوته. (ع)
(2) إنى إذا مضر علىّ تحدثت لاقيت مطلع الجبال وعورا
لجرير. ومضر : اسم قبيلة صرف للضرورة. ومطلع - بتشديد الطاء - : اسم مكان على صورة المفعول ، من اطلع المشدد ، وأصله : اطتلع ، بناء الافتعال ، قلبت طاء وأدغمت فيها ما قبلها ، وهو نصب على الظرفية. والوعور : جمع وعر ، أى : صعب مفعول لاقيت ، أو المفعول هو مطلع. ووعورا : حال ، لا سيما على رواية فتح واوه على أنه صيغة مبالغة، يقول : إذا تقولت على مضر ما لا أرتضيه ، أو تكلمت في قتلى ، وجدت في مطالع الجبال أشياء صعابا فأعجز عن الهرب. أو المعنى : أنه يقتحم الصعاب ولا يبالى بها ويهرب منهم. وعلى الحالية : لاقيت مطلع الجبال حال كونه أماكن صعبة ، والمطلع متعدد لإضافته لمتعدد ، وعلى فتح الواو فظاهر.
(3). متفق عليه من طريق مسروق عن خباب أتم منه. [.....]

فقال : إنكم تزعمون أنكم تبعثون ، وأن في الجنة ذهبا وفضة وحريرا ، فأنا أقضيك ثم ، فإنى أوتى مالا وولدا حينئذ كَلَّا ردع وتنبيه على الخطأ أى : هو مخطئ فيما يصوره لنفسه ويتمناه فليرتدع عنه. فإن قلت : كيف قيل سَنَكْتُبُ بسين التسويف ، وهو كما قاله كتب من غير تأخير ، قال اللّه تعالى ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : سنظهر له ونعلمه أنا كتبنا قوله ، على طريقة قوله :

إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمة «1»

أى تبين وعلم بالانتساب أنى لست بابن لئيمة. والثاني : أن المتوعد يقول للجاني : سوف أنتقم منك ، يعنى أنه لا يخل بالانتصار وإن تطاول به الزمان واستأخر ، فجرد هاهنا لمعنى الوعيد وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذابِ مَدًّا أى نطوّل له من العذاب ما يستأهله ونعذبه بالنوع الذي يعذب به الكفار المستهزءون. أو نزيده من العذاب ونضاعف له من المدد. يقال : مده وأمده بمعنى ، وتدل عليه قراءة علىّ بن أبى طالب : ونمد له بالضم. وأكد ذلك بالمصدر ، وذلك من فرط غضب اللّه ، نعوذ به من التعرّض لما نستوجب به غضبه وَنَرِثُهُ ما يَقُولُ أى نزوى عنه ما زعم أنه يناله في الآخرة ونعطيه من يستحقه. والمعنى مسمى ما يقول. ومعنى ما يَقُولُ وهو المال والولد. يقول الرجل : أنا أملك كذا ، فتقول له : ولى فوق ما تقول ، ويحتمل أنه قد تمنى وطمع أن يؤتيه اللّه في الدنيا مالا وولدا ، وبلغت به أشعبيته «2» أن تألى على ذلك في قوله لَأُوتَيَنَّ لأنه جواب قسم مضمر ، ومن يتأل على اللّه يكذبه ، فيقول اللّه عز وجل هب أنا أعطيناه ما اشتهاه ، إما نرثه منه في العاقبة ويأتينا فردا غدا بلا مال ولا ولد، كقوله عز وجل وَلَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادى ... الآية فما يجدى عليه تمنيه وتأليه. ويحتمل أن هذا القول إنما يقوله ما دام حيا ،

(1) رمتني عن قوس العدو وباعدت عبيدة زاد اللّه ما بيننا بعدا
إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمة ولم تجدى من أن تقرى بها بدا
لزائد بن صعصعة النقعسى ، كانت له امرأة اسمها عبيدة فطمحت عليه وكانت أمها سرية ، فعرض لها بذلك ، يقول : رمتني بأمر قبيح كأنه نبلة صادرة عن قوس العدو ، أو أبعدتنى عنها بعد النبلة عن القوس : أى تسببت في ذلك وبالغت في الرمي، و«زاد اللّه» جملة دعائية ، ثم قال : إذا أظهرنا نسبنا يتبين أنى لم تلدني لئيمة بخلافك ، ولم تجدى مفرا ولا غنى من إقرارك بتلك القضية. ويجوز أن المعنى : أنه لا بد من إقرارك بأمك اللئيمة ، وعلم مرجع الضمير من ذكر المقابلة وهو أمه ، وهذا أدق في التبكيت. ويروى : به ، أى : بذلك النسب. وفي الالتفات من الغيبة إلى الخطاب نوع من التشنيع والتوبيخ ، كأنه عجب الناس أولا من حالها ، ثم التفت يبكتها بلؤم أمها وأنها رقيقة.
(2). قوله «أشعبيته» في الصحاح «أشعب» اسم رجل كان طماعا. وفي المثل : أطمع من أشعب اه. ومنه : أخذت الأشعبية ، بمعنى : خصلة أشعب ، وهي الطمع. (ع)

فإذا قبضناه حلنا بينه وبين أن يقوله ، ويأتينا رافضا له منفردا عنه غير قائل له ، أو لا ننسى قوله هذا ولا نلغيه، بل نثبته في صحيفته لنضرب به وجهه في الموقف ونعيره به وَيَأْتِينا على فقره ومسكنته فَرْداً من المال والولد ، لم نوله سؤله ولم نؤته متمناه ، فيجتمع عليه الخطبان : تبعة قوله ووباله ، وفقد المطموع فيه. فردا على الوجه الأول : حال مقدرة نحو فَادْخُلُوها خالِدِينَ لأنه وغيره سواء في إتيانه فردا حين يأتى ، ثم يتفاوتون بعد ذلك.

[سورة مريم (19) : الآيات 81 إلى 82]

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (81) كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (82)

أى ليتعززوا بآلهتهم حيث يكونون لهم عند اللّه شفعاء وأنصارا ينقذونهم من العذاب كَلَّا ردع لهم وإنكار لتعززهم بالآلهة. وقرأ ابن نهيك كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ أى سيجحدون كلا سيكفرون بعبادتهم ، كقولك : زيدا مررت بغلامه. وفي محتسب ابن جنى : كلا بفتح الكاف والتنوين ، وزعم أن معناه كل هذا الرأى والاعتقاد كلا. ولقائل أن يقول : إن صحت هذه الرواية فهي كلا التي هي للردع ، قلب الواقف عليها ألفها نونا كما في قواريرا. والضمير في سَيَكْفُرُونَ للآلهة ، أى : سيجحدون عبادتهم وينكرونها ويقولون : واللّه ما عبدتمونا وأنتم كاذبون. قال اللّه تعالى وَإِذا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكاءَهُمْ قالُوا رَبَّنا هؤُلاءِ شُرَكاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكاذِبُونَ أو للمشركين : أى ينكرون لسوء العاقبة أن يكونوا قد عبدوها. قال اللّه تعالى : ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا وَاللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا في مقابلة لَهُمْ عِزًّا والمراد ضدّ العز وهو الذل والهوان ، أى : يكونون عليهم ضدا لما قصدوه وأرادوه ، كأنه قيل : ويكونون عليهم ذلا ، لا لهم عزا أو يكونون عليهم عونا ، والضدّ : العون. يقال من أضدادكم : أى أعوانكم وكأن العون سمى ضدا لأنه يضاد عدوك وينافيه بإعانته لك عليه. فإن قلت : لم وحد؟ قلت : وحد توحيده قوله عليه السلام : «و هم يد على من سواهم «1»» لاتفاق كلمتهم وأنهم كشيء واحد لفرط تضامهم وتوافقهم ومعنى كون الآلهة عونا عليهم : أنهم وقود النار وحصب جهنم ، ولأنهم عذبوا بسبب عبادتها وإن رجعت الواو في سيكفرون ويكونون إلى المشركين، فإن المعنى : ويكونون عليهم - أى أعداءهم - ضدا ، أى : كفرة بهم ، بعد أن كانوا يعبدونها.

(1). هذا طرف من حديث لعلى رضى اللّه عنه ، أخرجه أبو داود والنسائي وأحمد وإسحاق والحاكم من طريق قيس بن عباد عن على رضى اللّه عنه «أنه أخرج من قراب سيفه كتابا عهد إليه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فإذا فيه - وذكره. وفيه هذا» وروى ابن

[سورة مريم (19) : آية 83]

أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (83)

الأز ، والهزّ ، والاستفزاز : أخوات ، ومعناها التهييج وشدة الإزعاج ، أى : تغريهم على المعاصي وتهيجهم لها بالوساوس والتسويلات. والمعنى : خلينا بينهم وبينهم «1» ولم نمنعهم ولو شاء لمنعهم قسرا. والمراد تعجيب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الآيات التي ذكر فيها العتاة والمردة من الكفار ، وأقاويلهم ، وملاحتهم ، ومعاندتهم للرسل ، واستهزاؤهم بالدين : من تماديهم في الغىّ وإفراطهم في العناد ، وتصميمهم على الكفر ، واجتماعهم على دفع الحق بعد وضوحه وانتفاء الشكّ عنه ، وإنهما كهم لذلك في اتباع الشياطين وما تسوّل لهم ،

[سورة مريم (19) : آية 84]

فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّما نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (84)

عجلت عليه بكذا : إذا استعجلته منه ، أى : لا تعجل عليهم بأن يهلكوا ويبيدوا ، حتى تستريح أنت والمسلمون من شرورهم ، وتطهر الأرض بقطع دابرهم ، فليس بينك وبين ما تطلب من هلاكهم إلا أيام محصورة وأنفاس معدودة ، كأنها في سرعة تقضيها الساعة التي تعد فيها لو عدت. ونحوه قوله تعالى وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ، كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنْ نَهارٍ وعن ابن عباس رضى الله عنه : أنه كان إذا قرأها بكى وقال: آخر العدد خروج نفسك ، آخر العدد فراق أهلك ، آخر العدد دخول قبرك. وعن ابن السماك أنه كان عند المأمون فقرأها ، فقال : إذا كانت الأنفاس بالعدد ولم يكن لها مدد ، فما أسرع ما تنفد.

[سورة مريم (19) : آية 85]

يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْداً (85)

نصب يَوْمَ بمضمر ، أى يوم نَحْشُرُ ونسوق : نفعل بالفريقين ما لا يحيط به الوصف. أو اذكر يوم نحشر. ويجوز أن ينتصب بلا يملكون. ذكر المتقون بلفظ التبجيل ، وهو أنهم يجمعون إلى ربهم الذي غمرهم برحمته وخصهم برضوانه وكرامته ، كما يفد الوفاد على الملوك منتظرين للكرامة عندهم. وعن علىّ رضى الله عنه : ما يحشرون والله على أرجلهم ، ولكنهم على نوق رحالها ذهب ، وعلى نجائب سروجها ياقوت «2».

(1). قوله «و المعنى خلينا بينهم وبينهم» هذا هو الموافق لمذهب المعتزلة ، من أنه تعالى لا يفعل الشر. أما على مذهب أهل السنة من أنه تعالى يفعل الشر كالخير ، فالمناسب : سلطناهم عليهم. (ع)

(2). أخرجه ابن أبى شيبة وعبد الله بن أحمد في زيادات المسند ، والطبري وابن أبى حاتم من رواية عبد الرحمن ابن إسحاق بن النعمان بن سعد بن على نحوه ، وأخرجه ابن أبى داود في كتاب البعث من هذا الوجه مرفوعا. ورواه ابن عدى من حديث ابن عباس رضى الله عنهما مرفوعا أيضا.

[سورة مريم (19) : آية 86]

وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلى جَهَنَّمَ وِرْداً (86)

وذكر الكافرون بأنهم يساقون إلى النار بإهانة واستخفاف كأنهم نعم عطاش تساق إلى الماء. والورود : العطاش لأنّ من يرد الماء لا يرده إلا لعطش وحقيقة الورد : المسير إلى الماء ، قال : ردى ردى ورد قطاة صمّا كدريّة أعجبها برد الما «1»

فسمى به الواردون. وقرأ الحسن : يحشر المتقون ، ويساق المجرمون.

[سورة مريم (19) : آية 87]

لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً (87)

الواو في لا يَمْلِكُونَ إن جعل ضميرا «2» فهو للعباد ، ودل عليه ذكر المتقين والمجرمين لأنهم على هذه القسمة. ويجوز أن تكون علامة للجمع ، كالتي في «أكلوني البراغيث» والفاعل مَنِ اتَّخَذَ لأنه في معنى الجمع، ومحل مَنِ اتَّخَذَ رفع على البدل ، أو على الفاعلية. ويجوز أن ينتصب على تقدير حذف المضاف ، أى : إلا شفاعة من اتخذ. والمراد : لا يملكون أن يشفع لهم ، واتخاذ العهد : الاستظهار بالإيمان والعمل. وعن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه ذات يوم : «أ يعجز أحدكم أن يتخذ كل صباح ومساء عند الله عهدا» قالوا : وكيف ذلك؟ قال : «يقول كل صباح ومساء : اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة إنى أعهد إليك بأنى أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمدا عبدك ورسولك ،

(1). يخاطب ناقته. وردى : أمر من الورود ، وتكريره للتوكيد. والورد : اسم مصدر منه أيضا ، أو اسم للماء المورود ، أى : ردى الماء كورود قطاء صماء لا تسمع صوت القانص فلا تنفر عن الماء : والكدر - بالضم - نوع من القطار مادى اللون ، والكدرية : نسبة إليه ، من نسبة الجزئى إلى كليه ، وهذه الياء هي الفارقة بين اسم الجنس وواحده ، كروم وروميي. وفيه تشبيه ناقته ضمنا بالقطاة في الخفة والسرعة. وصما والما : بالقصر ، فان رويا بالمد والسكون على أن الشعر من مشطور المنسرح الموقوف ، فمحله حرف الألف.

(2). قال محمود : «يحتمل أن تكون الواو في لا يملكون ضميرا ... الخ» قال أحمد : وفي هذا الوجه تعسف من حيث أنه إذا جعله علامة لمن فقد كشف معناها وأفصح بأنها متناولة جمعا ، ثم أعاد على لفظها بالافراد ضمير اتخذ ، ففيه الاعادة على لفظها بعد الاعادة على معناها بما يخالف ذلك ، وهو مستنكر عندهم لأنه إجمال بعد إيضاح ، وذلك تعكيس في طريق البلاغة ، وإنما محجتها الواضحة الإيضاح بعد الإجمال. والواو على إعرابه ، وإن لم تكن عائدة على من إلا أنها كاشفة لمعناها كشف الضمير العائد له ، فتنبه لهذا العقد ، فانه أروج من النقد :

وفي عنق الحسناء يستحسن العقد

وأنك إن تكلني إلى نفسي تقرّبنى من الشر وتباعدني من الخير ، وأنى لا أثق إلا برحمتك فاجعل لي عندك عهدا توفينيه يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد. فإذا قال ذلك طبع عليه بطابع ووضع تحت العرش ، فإذا كان يوم القيامة نادى مناد : أين الذين لهم عند الرحمن عهد ، فيدخلون الجنة ، «1» وقيل : كلمة الشهادة. أو يكون من «عهد الأمير إلى فلان بكذا» إذا أمره به ، أى لا يشفع إلا المأمور بالشفاعة المأذون له فيها. وتعضده مواضع في التنزيل وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّماواتِ لا تُغْنِي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشاءُ وَيَرْضى ، وَلا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ، يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا.

[سورة مريم (19) : الآيات 88 إلى 91]

وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً (88) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا (89) تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا (90) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً (91)

قرئ إِدًّا بالكسر والفتح. قال ابن خالويه : الإدّ والأدّ : العجب. وقيل : العظيم المنكر. والإدّة : الشدّة. وأدنى الأمر وآدنى : أثقلنى وعظم علىّ إدّا تَكادُ قراءة الكسائي ونافع بالياء. وقرئ «ينفطرن» «2» الانفطار من فطره إذا شقه. والتفطر ، من فطره إذا شققه وكرر الفعل فيه. وقرأ ابن مسعود : ينصدعن ، أى تهد هدّا ، أو مهدودة ، أو مفعول له ، أى : لأنها تهدّ. فإن قلت : ما معنى انفطار السموات وانشقاق الأرض وخرور الجبال؟ ومن أين تؤثر هذه الكلمة في الجمادات؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن الله سبحانه يقول : كدت أفعل هذا بالسماوات والأرض «3» والجبال عند وجود هذه الكلمة غضبا منى على من تفوّه بها ،

(1). أخرجه الثعلبي قال : روى أبو وائل عن عبد الله بن مسعود - فذكره بتمامه ، وروى ابن مردويه في تفسير الأحزاب من طريق عوف بن عبد الله عن رجل من بنى سليم عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «العهد أن تقول : اللهم فاطر السموات والأرض - الحديث أصغر مما ذكر» ورواه الحاكم من وجه آخر عن عون عن ابن ماجة عن الأسود عن ابن مسعود أنه قرأ هذه الآية إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً قال الله تعالى يقول يوم القيامة : من كان له عندي عهد فليقم ، قال فقلنا : فعلمنا يا أبا عبد الرحمن قال : فاقرؤا :

اللهم فاطر السموات والأرض - فذكره مختصرا ، وفي الباب عن أبى بكر رضى الله عنه ، أخرجه الحكيم الترمذي في النوادر في السادس والسبعين بعد المائة.

(2). قوله «و قرئ ينفطرن» يفيد أن القراءة المشهورة «يتفطرن» بالتاء. (ع)

(3). قال محمود : «معناه : كدت أهدّ السموات وأفطر الأرض ... الخ» قال أحمد : ويظهر لي وراءها معنى آخر والله أعلم ، وذلك أن الله تعالى قد استعار لدلالتها على وجوده عز وجل موصوفا بصفات الكمال الواجبة له ، أن جعلها تسبح بحمده. قال تعالى تُسَبِّحُ لَهُ

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد
فالمعتقد نسبة الولد إلى الله تعالى قد عطل دلالة هذه الموجودات على تنزيه الله وتقديسه ، فاستعير لابطال ما فيها من روح الدلالة التي خلقت لأجلها ، إبطال صورها بالهد والانفطار والانشقاق «فسبحان من قسم عباده ، فجعل العباد ، تستلذ فتسبح بتسبيح داود ، يكاد ينهد لمقاله من هو عن باب التوفيق مطرود مردود.

لولا حلى ووقارى ، وأنى لا أعجل بالعقوبة كما قال إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً. والثاني : أن يكون استعظاما للكلمة ، وتهويلا من فظاعتها ، وتصويرا لأثرها في الدين وهدمها لأركانه وقواعده ، وأن مثال ذلك الأثر في المحسوسات : أن يصيب هذه الأجرام العظيمة التي هي قوام العالم ما تنفطر منه وتنشق وتخرّ. وفي قوله لَقَدْ جِئْتُمْ وما فيه من المخاطبة بعد الغيبة ، وهو الذي يسمى الالتفات في علم البلاغة زيادة تسجيل عليهم بالجرأة على الله ، والتعرّض لسخطه ، وتنبيه على عظم ما قالوا. في أَنْ دَعَوْا ثلاثة أوجه : أن يكون مجرورا بدلا من الهاء في منه ، كقوله : على حالة لو أنّ في القوم حاتما على جوده لضنّ بالماء حاتم «1» ومنصوبا بتقدير سقوط اللام وإفضاء الفعل ، أى: هذا لأن دعوا ، علل الخرور بالهدّ ، والهدّ بدعاء الولد للرحمن. ومرفوعا بأنه فاعل هذا ، أى هدها دعاء الولد للرحمن. وفي اختصاص الرحمن وتكريره مرات من الفائدة أنه هو الرحمن وحده ، لا يستحق هذا الاسم غيره ، من قبل أنّ أصول النعم وفروعها منه : خلق العالمين ، وخلق لهم جميع ما معهم ، كما قال بعضهم : فلينكشف عن بصرك غطاؤه ، فأنت وجميع ما عندك عطاؤه. فمن أضاف إليه ولدا فقد جعله كبعض خلقه وأخرجه بذلك عن استحقاق اسم الرحمن. هو من دعا بمعنى سمى المتعدي إلى مفعولين ، فاقتصر على أحدهما الذي هو الثاني ، طلبا للعموم والإحاطة بكل ما دعى له ولدا. أو من دعا بمعنى نسب ، الذي مطاوعه ما في قوله عليه السلام «من ادعى إلى غير مواليه «2»» وقول الشاعر :

إنّا بنى نهشل لا ندّعى لأب «3»

أى لا ننتسب إليه.

---

(1). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 438 فراجعه إن شئت اه مصححه.
(2). لم أره بلفظ «من ادعي» وإنما هو عند مسلم بلفظ «انتمى» أخرجه من حديث على بن أبى طالب رفعه «من ادعى إلى غير أبيه أو انتمى إلى غير مواليه - الحديث»
(3) إنا بنى نهشل لا ندعى لأب عنه ولا هو بالأبناء يشرينا
يكفيه إن نحن متنا أن يسر بنا وهو إذا ذكر الآباء يكفينا
لبشامة بن حزن النهشلي ، ويقال : ادعى فلان في بنى هاشم ولهم وإليهم ، أى : انتسب إليهم وادعى عنهم إذا انتسب لغيرهم. وعدل عنهم يقول : إنا لا ننتسب لأب غير نهشل ، وبنى نهشل : نصب على الاختصاص يفيد المدح ولا هو يشرينا ، أى يبيعنا ويستبدلنا بأبناء غيرنا ، ثم قال : يكفيه منا سروره بنا إن متنا ولحقناه ، حيث أوجبنا له ولنا الثناء الجميل من شجاعتنا وحسن خصالنا. و«إن» بمعنى «إذا» لأن الموت لا شك فيه. ويروى «أن يسب» بباء ، ولعل معناه : لا مسبة له غير موتنا في القتال ، يعنى : إن كان ذلك مسبة وليس كذلك ، ويمكن أن تعبيره بالكفاية ليفيد أنه مستغن عن المدح من جهة أبنائه عند التفاخر. وعند عد مآثر الآباء لا نحتاج لغيره ، فننتسب له لنشرف بشرفه.

[سورة مريم (19) : آية 92]

وَما يَنْبَغِي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً (92)

انبغى : مطاوع «بغى» إذا طلب ، أى : ما يتأتى له اتخاذ الولد وما ينطلب لو طلب مثلا ، لأنه محال غير داخل تحت الصحة. أما الولادة المعروفة فلا مقال في استحالتها. وأما التبني فلا يكون إلا فيما هو من جنس المتبنى ، وليس للقديم سبحانه جنس ، تعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا.

[سورة مريم (19) : الآيات 93 إلى 95]

إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً (93) لَقَدْ أَحْصاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (94) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَرْداً (95)

مَنْ موصوفة لأنها وقعت بعد كل نكرة ، ووقوعها بعد رب في قوله :

ربّ من أنضجت غيظا صدره «1»

وقرأ ابن مسعود وأبو حيوة آتِي الرَّحْمنِ على أصله قبل الإضافة. الإحصاء الحصر والضبط يعنى : حصرهم بعلمه وأحاط بهم وَعَدَّهُمْ عَدًّا الذين اعتقدوا في الملائكة وعيسى وعزير أنهم أولاد الله ، كانوا بين كفرين ،

(1) رب من أنضجت غيظا قلبه قد تمنى لي موتا لم يطع
ويرانى كالشجا في حلقه عسرا مخرجه ما ينتزع
لم يضرني غير أن يحسدني فهو يزقو مثل ما يزقو الضوع
ويحييني إذا لاقيته وإذا يخلو له لحمى رتع
لسويد بن أبى كاهل اليشكري ، ويتعين أن «من» نكرة موصوفة ، لأن رب لا تجر إلا النكرة ، ونضج اللحم والعنب ونحوهما نضجا فهو نضيج وناضج : أدرك وبلغ أوانه واستوى ، أى : رب شخص طبخت قلبه من حر غيظه منى ولم يطع ، أى لا يستطاع تحمل سببه. والشجا : ما نشب في الحلق من عظم ونحوه. وعسرا الخ : حال منه. ومخرجه أى خروجه مرفوع بالوصف ، لم يضرني شيئا من الضرر غير الحسد ، من ضاره يضيره ضيرا إذا ضره ، فهو يزقو أى يصيح مثل صياح الضوع : وهو ذكر اليوم ، وكثر تشبيه العرض المطعون فيه باللحم المأكول على طريق التصريحية ، ثم شبهه الشاعر بالمرعى المخصب ترتع فيه البهائم. أو شبه المغتاب بهيمة في المرعي على طريق المكنية والرتع تخييل. ويحتمل استعارته للأكل الملائم للحم ، ثم للطعن الملائم للعرض على طريق التصريح ، أى : إذا يخلو له عرضي اغتاب كما يريد. [.....]

أحدهما : القول بأن الرحمن يصح أن يكون والدا. والثاني : إشراك الذين زعموهم لله أولادا في عبادته ، كما يخدم الناس أبناء الملوك خدمتهم لآبائهم ، فهدم الله الكفر الأول فيما تقدم من الآيات ، ثم عقبه بهدم الكفر الآخر. والمعنى : ما من معبود لهم في السموات والأرض من الملائكة ومن الناس إلا وهو يأتى الرحمن ، أى : يأوى إليه ويلتجئ إلى ربوبيته عبدا منقادا مطيعا خاشعا خاشيا راجيا ، كما يفعل العبيد وكما يجب عليهم ، لا يدّعى لنفسه ما يدعيه له هؤلاء الضلال. ونحوه قوله تعالى أُولئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخافُونَ عَذابَهُ وكلهم متقلبون في ملكوته مقهورون بقهره وهو مهيمن عليهم محيط بهم وبجمل أمورهم وتفاصيلها وكيفيتهم وكميتهم ، لا يفوته شيء من أحوالهم ، وكل واحد منهم يأتيه يوم القيامة منفردا ليس معه من هؤلاء المشركين أحد وهم برآء منهم.

[سورة مريم (19) : آية 96]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا (96)

قرأ جناح بن حبيش وُدًّا بالكسر : والمعنى : سيحدث لهم في القلوب مودّة ويزرعها لهم فيها من غير تودّد منهم ولا تعرّض للأسباب التي توجب الود ويكتسب بها الناس مودات القلوب ، من قرابة أو صداقة أو اصطناع بمبرة أو غير ذلك ، وإنما هو اختراع منه ابتداء اختصاصا منه لأوليائه بكرامة خاصة ، كما قذف في قلوب أعدائهم الرعب والهيبة إعظاما لهم وإجلالا لمكانهم. والسين إما لأن السورة مكية وكان المؤمنون حينئذ ممقوتين بين الكفرة فوعدهم الله تعالى ذلك إذا دجا الإسلام. وإما أن يكون ذلك يوم القيامة يحببهم إلى خلقه بما يعرض من حسناتهم وينشر من ديوان أعمالهم. وروى أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلى رضى الله عنه : «يا علىّ قل اللهم اجعل لي عندك عهدا ، واجعل لي في صدور المؤمنين مودّة «1»» فأنزل الله هذه الآية. وعن ابن عباس رضى الله عنهما : يعنى يحبهم الله ويحببهم إلى خلقه. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم «يقول الله عز وجل يا جبريل قد أحببت فلانا فأحبه ، فيحبه جبريل ، ثم ينادى في أهل السماء : إنّ الله قد أحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يضع له المحبة في أهل الأرض»» وعن قتادة : ما أقبل العبد إلى الله إلا أقبل الله بقلوب العباد إليه.

(1). أخرجه الثعلبي والطبراني في مسند حمزة الزيات ، وابن مردويه من حديث البراء بن عازب رضى الله عنهما وفيه إسحاق بن بشر عن خالد بن زيد ، وهما متروكان.
(2). متفق عليه من حديث أبى هريرة بمعناه.

[سورة مريم (19) : الآيات 97 إلى 98]

فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا (97) وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً (98)

هذه خاتمة السورة ومقطعها ، فكأنه قال : بلغ هذا المنزل أو بشر به وأنذر ، فإنما أنزلناه بِلِسانِكَ أى بلغتك وهو اللسان العربي المبين ، وسهلناه وفصلناه لِتُبَشِّرَ بِهِ وتنذر.

واللدّ : الشداد الخصومة بالباطل ، الآخذون في كل لديد ، أى في كل شق من المراء والجدال لفرط لجاجهم ، يريد أهل مكة.

وقوله وَكَمْ أَهْلَكْنا تخويف لهم وإنذار. وقرئ تُحِسُّ من حسه إذا شعر به. ومنه الحواس والمحسوسات. وقرأ حنظلة تَسْمَعُ مضارع أسمعت. والركز : الصوت الخفي.

ومنه : ركز الرمح إذا غيب طرفه في الأرض. والركاز : المال المدفون.

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «من قرأ سورة مريم أعطى عشر حسنات بعدد من كذب زكريا وصدق به، ويحيى ومريم وعيسى وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وهرون وإسماعيل وإدريس ، وعشر حسنات بعدد من دعا اللّه في الدنيا وبعدد من لم يدع اللّه» «1».

(1). أخرجه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبىّ.

سورة طه

مكية [إلا آيتي 130و 131 فمدنيتان] وهي 135 آية [نزلت بعد مريم]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة طه (20) : الآيات 1 إلى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

طه (1) ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى (2) إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشى (3) تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّماواتِ الْعُلى(4)

طه أبو عمرو فخم الطاء لاستعلائها. وأمال الهاء وفخمها ابن كثير وابن عامر على الأصل ، والباقون أمالوهما. وعن الحسن رضى اللّه عنه : طه ، وفسر بأنه أمر بالوطء ، وأن النبي صلى اللّه عليه وسلم كان يقوم في تهجده على إحدى رجليه فأمر بأن يطأ الأرض بقدميه «1» معا ، وأن الأصل طأ ، فقلبت همزته هاء ، أو قلبت ألفا في يطأ فيمن قال : لا هناك المرتع «2» ثم بنى عليه الأمر ، والهاء للسكت. ويجوز أن يكتفى بشطرى الاسمين وهما الدالان بلفظهما على المسميين ،

---

(1). أخرجه عبد بن حميد في تفسيره قال : حدثنا هاشم بن القاسم بن أبى جعفر عن الربيع بن أنس قال : كان النبي صلى اللّه عليه وسلم قام على رجل ورفع الأخرى ، فأنزل اللّه طه يعنى طأ الأرض» وروى ابن مردويه من طريق قيس بن الربيع عن قطر بن خليفة عن منذر الثوري عن محمد بن الحنفية عن على «لما نزل يا أيها المزمل قام الليل كله حتى ورمت قدماه فجعل يرفع رجلا ويضع الأخرى فهبط عليه جبريل ، فقال «طه طأ الأرض بقدميك يا محمد» وأخرجه البزار من وجه آخر عن على «كان النبي صلى اللّه عليه وسلم يراوح بين قدميه يقوم على كل رجل حتى نزلت طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى» ومن طريق نهشل عن الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى طه قال «إن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ربما قرأ القرآن إذا صلى ، فقام على رجل واحدة ، فأنزل اللّه طأها برجليك» وأخرجه البيهقي في الشعب الرابع عشر من وجه آخر عن ميمون بن مهران عن ابن عباس «أن النبي صلى اللّه عليه وسلم أول ما أنزل عليه الوحى كان يقوم على صدور قدميه إذا صلى. فأنزل اللّه طه.

(2) نزع ابن بشر وابن عمرو قبله وأخو هراة لمثلها يتوقع
راحت بمسلمة البغال عشية فارعى فزارة لا هناك المرتع

للفرزدق ، يهجو عمرو بن زهرة الفزاري ، وقد ولى العراق بعد عبد الملك بن بشر بن مروان ، وكان على البصرة ومحمد ابن عمرو بن الوليد بن عقبة ، وكان على الكوفة. يقول : ذهب ابن بشر وابن عمرو ، وأخو هراة أى صاحبها وواليها. وهراة من بلاد العراق أيضا. يتوقع : أى يترقب وينتظر مثل حاله من قبله. راحت ، وروى : مضت ، أى ذهبت البغال بمسلمة بن عبد الملك كما يفيد شرح المراح ، وكان يمنع بنى فزارة من الرعي في أرض العراق ، ففر إلى الشام وترك الملك ، فارعى يا فزارة ما شئت يخاطب القبيلة بذلك ، وإشارة إلى أنه كان محرما عليهم ، فأبيح بعد مسلمة. وأرعى : بفتح العين وسكون الياء لأن مضارعه مفتوح العين. ولا هناك المرتع : دعا عليهم. يقال :
هناك الطعام ومراك ، بتخفيف الهمز : انهضم في بطنك وأراحك ونفعك ، فإذا انفرد الثاني قلت : أمراك الطعام ، وتخفيف الهمزة بقبلها ألفا : صرفه كما هنا شاذ ، وقياس تخفيفها في مثل هذا جعلها بين بين لعدم سكون ما قبلها.

واللّه أعلم بصحة ما يقال : إن «طاها» في لغة عك «1» في معنى يا رجل ، ولعل عكا تصرفوا في «يا هذا» كأنهم في لغتهم قالبون الياء طاء ، فقالوا في «يا» : «طا» ، واختصروا هذا فاقتصروا على ها ، وأثر الصنعة ظاهر لا يخفى في البيت المستشهد به : إنّ السّفاهة طاها في خلائقكم لا قدّس اللّه أخلاق الملاعين «2» والأقوال الثلاثة في الفواتح : أعنى التي قدمتها في أول الكاشف عن حقائق التنزيل ، هي التي يعوّل عليها الألباء المتقنون ما أَنْزَلْنا إن جعلت طه تعديدا لأسماء الحروف على الوجه السابق ذكره فهو ابتداء كلام. وإن جعلتها اسما للسورة احتملت أن تكون خبرا عنها وهي في موضع المبتدأ ، والْقُرْآنَ ظاهر أوقع موقع الضمير لأنها قرآن ، وأن يكون جوابا لها وهي قسم. وقرئ : ما نزل عليك القرآن لِتَشْقى لتتعب بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم ، وتحسرك على أن يؤمنوا كقوله تعالى فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ والشقاء يجيء في معنى التعب. ومنه المثل : أشقى من رائض مهر ، أى ما عليك إلا أن تبلغ وتذكر ، ولم يكتب عليك أن يؤمنوا لا محالة ، بعد أن لم تفرط في أداء الرسالة والموعظة الحسنة. وقيل : إن أبا جهل والنضر بن الحرث قالا له : إنك شقى لأنك تركت دين آبائك ، فأريد ردّ ذلك بأن دين الإسلام وهذا القرآن هو السلم إلى نيل كل فوز ، والسبب في درك كل سعادة، وما فيه الكفرة هو الشقاوة بعينها. وروى أنه عليه الصلاة والسلام صلى بالليل حتى اسمعدت «3» قدماه ، فقال له جبريل عليه السلام : أبق على نفسك فإن لها عليك حقا «4». أى : ما أنزلناه لتنهك نفسك بالعبادة وتذيقها المشقة الفادحة ، وما بعثت إلا بالحنيفية السمحة ، وكل واحد من لِتَشْقى وتَذْكِرَةً علة للفعل ، إلا أن الأول وجب مجيئه مع اللام لأنه ليس لفاعل الفعل المعلل ففاتته شريطة الانتصاب على المفعولية ، والثاني

(1). قوله «في لغة عك» في الصحاح عك بن عدنان أخو معد وهو اليوم في اليمن. (ع)
(2). السفاهة : الجهل والحمق والخفة. و«طه» في لغة عك ، معناه يا هذا ، فكأنهم قلبوا الياء طاء وحذفوا ذا. قال الزمخشري : ولا يخفى التصنع في البيت. والخلائق : الطبائع ، ودعا عليهم بأن الله لا يطهر أرواحهم ، ووضع المظهر موضع المضمر لزيادة الذم والتشنيع. وقيل : للدلالة على سبب الدعاء ، أى : فإنهم ملعونون ، ولعل معناه : فإنهم مستحقين للعن وفاعلون سببه.
(3). قوله «حتى اسمغدت» بالغين المعجمة ، أى : تورمت. أفاده الصحاح. (ع)
(4). لم أره هكذا. وفي الدعوات الكبير للبيهقي عن عائشة قالت «لما كانت ليلة النصف من شعبان - فذكر حديثا طويلا - وفيه : فما زال يصلى قائما وقاعدا حتى أصبح وحتى اسمغدت قدماه. فقمت أغمزها - الحديث - وليس فيه كلام جبريل.

كالنصبة في وَاخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ وأما النصبة في تذكره فهي كالتي في ضربت زيدا ، لأنه أحد المفاعيل الخمسة التي هي أصول وقوانين لغيرها. فإن قلت : هل يجوز أن يكون تَذْكِرَةً بدلا من محل لِتَشْقى ؟ قلت : لا ، لاختلاف الجنسين ، ولكنها نصب على الاستثناء المنقطع الذي «إلا» فيه بمعنى «لكن» ويحتمل أن يكون المعنى : إنا أنزلنا عليك القرآن لتحتمل «1» متاعب التبليغ ومقاولة العتاة من أعداء الإسلام ومقاتلتهم وغير ذلك من أنواع المشاق وتكاليف النبوّة ، وما أنزلنا عليك هذا المتعب الشاق إلا ليكون تذكرة ، وعلى هذا الوجه يجوز أن يكون تذكرة حالا ومفعولا له لِمَنْ يَخْشى لمن يؤول أمره إلى الخشية ، ولمن يعلم الله منه أنه يبدل بالكفر إيمانا وبالقسوة خشية. في نصب تَنْزِيلًا وجوه : أن يكون بدلا من تذكرة إذا جعل حالا ، لا إذا كان مفعولا له لأن الشيء لا يعلل بنفسه ، وأن ينصب بنزل مضمرا ، وأن ينصب بأنزلنا ، لأن معنى : ما أنزلناه إلا تذكرة : أنزلناه تذكرة ، وأن ينصب على المدح والاختصاص وأن ينصب بيخشى مفعولا به ، أى : أنزله الله تذكرة لمن يخشى تنزيل الله ، وهو معنى حسن وإعراب بين. وقرئ : تنزيل ، بالرفع على خبر مبتدأ محذوف. ما بعد تَنْزِيلًا إلى قوله لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى تعظيم وتفخيم لشأن المنزل ، لنسبته إلى من هذه أفعاله وصفاته. ولا يخلو من أن يكون متعلقه إما تَنْزِيلًا نفسه فيقع صلة له ، وإما محذوفا فيقع صفة له. فإن قلت : ما فائدة النقلة من لفظ المتكلم إلى لفظ الغائب؟ قلت : غير واحدة منها عادة الافتنان في الكلام وما يعطيه من الحسن والروعة. ومنها أنّ هذه الصفات إنما تسردت مع لفظ الغيبة. ومنها أنه قال أولا أَنْزَلْنا ففخم بالإسناد إلى ضمير الواحد المطاع.

ثم ثنى بالنسبة إلى المختص بصفات العظمة والتمجيد فضوعفت الفخامة من طريقين : ويجوز أن يكون أَنْزَلْنا حكاية لكلام جبريل والملائكة النازلين معه.

وصف السموات بالعلى : دلالة على عظم قدرة من يخلق مثلها في علوها وبعد مرتقاها.

[سورة طه (20) : الآيات 5 إلى 6]

الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى (5) لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَما تَحْتَ الثَّرى (6)
قرئ الرَّحْمنُ مجرورا صفة لمن خلق والرفع أحسن ، لأنه إما أن يكون رفعا على المدح على تقدير : هو الرحمن. وإما أن يكون مبتدأ مشارا بلامه إلى من خلق.

(1). قال محمود : «و يحتمل أن يكون المعنى إنا أنزلنا عليك القرآن لتحتمل ... الخ» قال أحمد : وفي هذا الوجه الثاني بعد ، فان فيه إثبات كون الشقاء سببا في نزوله عكس الأول وإن لم تكن اللام سببية فكانت للصيرورة مثلا ولم يكن فيه ما جرت عادة الله تعالى به مع نبيه صلى الله عليه وسلم من نهيه عن الشقاء والحزن عليهم وضيق الصدر بهم ، وكان مضمون هذه الآية متباينا عن قوله تعالى فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ ، فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثارِهِمْ ولا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ وأمثاله كثيرة فالظاهر والله أعلم هو التأويل الأول.

فإن قلت : الجملة التي هي عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى ما محلها - إذا جررت الرحمن أو رفعته على المدح؟ قلت : إذا جررت فهي خبر مبتدأ محذوف لا غير وإن رفعت جاز أن تكون كذلك وأن تكون مع الرحمن خبرين للمبتدإ. لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك مما يردف الملك ، جعلوه كناية عن الملك فقالوا : استوى فلان على العرش يريدون ملك وإن لم يقعد على السرير البتة ، وقالوه أيضا لشهرته في ذلك المعنى ومساواته ملك في مؤدّاه وإن كان أشرح وأبسط وأدل على صورة الأمر.

ونحوه قولك : يد فلان مبسوطة ، ويد فلان مغلولة ، بمعنى أنه جواد أو بخيل ، لا فرق بين العبارتين إلا فيما قلت ، حتى أنّ من لم يبسط يده قط بالنوال أو لم تكن له يد رأسا قيل فيه يده مبسوطة لمساواته عندهم قولهم :

[سورة طه (20) : الآيات 7 إلى 8]

وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفى (7) اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى (8) أى يعلم ما أسررته إلى غيرك وأخفى من ذلك ، وهو ما أخطرته ببالك ، أو ما أسررته في نفسك وَأَخْفى منه وهو ما ستسره فيها. وعن بعضهم : أن أخفى فعل «1» يعنى أنه يعلم أسرار العباد وأخفى عنهم ما يعلمه ، هو كقوله تعالى يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً وليس بذاك. فإن قلت كيف طابق الجزاء الشرط؟ قلت : معناه وإن تجهر بذكر اللَّه من دعاء أو غيره فاعلم أنه غنى عن جهرك ، فإما أن يكون نهيا عن الجهر كقوله تعالى وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ وإما تعليما للعباد أنّ الجهر ليس لإسماع اللَّه وإنما هو لغرض آخر الْحُسْنى تأنيث الأحسن ، وصفت بها الأسماء لأنّ حكمها حكم المؤنث كقولك :

(1). قال محمود : «هو أفعل التفضيل ، ومنهم من قال إن أخفى فعل ماض ... الخ» قال أحمد : لا يخفى أن جعله فعلا قاصر لفظا ومعنى : أما لفظا فانه يلزم منه عطف الجملة الفعلية على الاسمية إن كان المعطوف عليه الجملة الكبرى ، أو عطف الماضي على المضارع إن كان المعطوف عليه الصغرى ، وكلاهما دون الأحسن. وأما معنى ، فان المقصود الحض على ترك الجهر بإسقاط فائدته من حيث أن اللَّه تعالى يعلم السر وما هو أخفى منه ، فكيف يبقى للجهر فائدة وكلاهما على هذا التأويل مناسب لترك الجهر. وأما إذا جعل فعلا فيخرج عن مقصود السياق وإن اشتمل على فائدة أخرى ، وليس هذا كقوله تعالى يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً لأن بين السياقين اختلافا ، واللَّه سبحانه وتعالى أعلم.

الجماعة الحسنى ، ومثلها مَآرِبُ أُخْرى ، ومِنْ آياتِنَا الْكُبْرى . والذي فضلت به أسماؤه في الحسن سائر الأسماء: دلالتها على معاني التقديس والتمجيد والتعظيم والربوبية ، والأفعال التي هي النهاية في الحسن.

[سورة طه (20) : الآيات 9 إلى 10]

وَهَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى (9) إِذْ رَأى ناراً فَقالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ ناراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً (10)

قفاه بقصة موسى عليه السلام ليتأسى به في تحمل أعباء النبوّة وتكاليف الرسالة والصبر على مقاساة الشدائد ، حتى ينال عند اللَّه الفوز والمقام المحمود. يجوز أن ينتصب إِذْ ظرفا للحديث ، لأنه حدث. أو لمضمر ، أى : حين رَأى ناراً كان كيت وكيت. أو مفعولا لا ذكر استأذن موسى شعيبا عليهما السلام في الخروج إلى أمه وخرج بأهله ، فولد له في الطريق ابن في ليلة شاتية مظلمة مثلجة ، وقد ضلّ الطريق وتفرّقت ماشيته ولا ماء عنده ، وقدح فصلد زنده «1» فرأى النار عند ذلك. قيل : كانت ليلة جمعة. امْكُثُوا أقيموا في مكانكم. الإيناس : الإبصار البين الذي لا شبهة فيه ، ومنه إنسان العين لأنه يتبين به الشيء ، والإنس : لظهورهم ، كما قيل الجنّ لاستتارهم وقيل هو إبصار ما يؤنس به. لما وجد منه الإيناس فكان مقطوعا متيقنا ، حققه لهم بكلمة «إنّ» ليوطن أنفسهم. ولما كان الإتيان بالقبس ووجود الهدى مترقبين متوقعين ، بنى الأمر فيهما على الرجاء والطمع وقال لَعَلِّي ولم يقطع فيقول : إنى آتِيكُمْ لئلا يعد ما ليس بمستيقن الوفاء به. القبس : النار المقتبسة في رأس عود أو فتيلة أو غيرهما. ومنه قيل : المقبسة ، لما يقتبس فيه من سعفة أو نحوها هُدىً أى قوما يهدوننى الطريق أو ينفعوننى بهداهم في أبواب الدين ، عن مجاهد وقتادة ، وذلك لأنّ أفكار الأبرار مغمورة بالهمة الدينية في جميع أحوالهم لا يشغلهم عنها شاغل. والمعنى : ذوى هدى. أو إذا وجد الهداة فقد وجد الهدى. ومعنى الاستعلاء في عَلَى النَّارِ أنّ أهل النار يستعلون المكان القريب منها ، كما قال سيبويه في مررت بزيد : أنه لصوق بمكان يقرب من زيد. أو لأنّ المصطلين بها والمستمتعين بها إذا تكنفوها قياما وقعودا كانوا مشرفين عليها. ومنه قول الأعشى : وبات على النّار النّدى والمحلّق «2»

(1). قوله «فصلد زنده» في الصحاح «صلد الزند» إذا صوت ولم يخرج نارا. (ع)
(2) لعمري لقد لا حت عيون كثيرة إلى ضوء نار في يفاع يخرق
تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلق
رضيعي لبان ثدي أم تقاسما بأسحم داج عوض لا تتفرق

للأعشى يمدح المحلق - بكسر اللام - سمى بذلك لأن بعيره عضه في وجهه فبقى أثر العضة مثل الحلقة ، وهو من نبى عكاظ ، كان فقيرا وله عشر بنات لا يرغب فيهن أحد لفقرهن ، فانعزل بهن إلى بعض المهامة فنزل به الأعشى فنحر له ناقته ولم يكن عنده غيرها وأحسن قراه. فعظم عند الأعشى ، فلما أصبح واستوى على راحلته قال له : ألك حاجة؟
قال : نعم ، أن تسير بذكرى في بنى عكاظ ، لعل أحدا يرغب في بناتي فقد مسهن العنس. فمدحه في عكاظ فلم يلبث حتى خطبت بناته.
ولاحت : لمحت وتشوفت ، واليفاع : المشرف من الأرض. يخرق : أى يخترق ذلك الضوء وينتشر في الأرض. ويروى : تحرق ، بالحاء المهملة ، والضمير للنار. وتشب. منى للمجهول ، يقال : شببت النار أشبها شبا وشبوبا : أو قدتها. والمقروران : اللذان أصابهما القر أي البرد ، وأراد بهما الندى والمحلق ، يعنى أنه هو وكرمه ملازمان لنار القرى ملازمة المقرور لنار التدفؤ ، وبين ذلك بقوله : وبات على النار الندى والمحلق.
ويجوز أن الأعشى أراد نفسه والمحلق ، لكل الأول أوقع في المدح. ومعنى كونهما عليها : أنهما على جانبيها ولأن المتدفئ يكون أعلى منها بحيث يمد يده فوقها. وعطف المحلق على الندى دلالة على أنهما متلازمان متقارنان ، وبين ذلك بقوله : رضيعي لبان ، وهو حال منهما ، شبههما بالتوأمين دلالة على غاية التلازم حتى في الرحم بل وقبله.
واللبان : لبن المرأة خاصة ، وهو مضاف إلى ثدي أم ، وتنوينها للافراد وإضافته له لأنه منه. ويجوز تنوينه.
فثدى : بدل منه. والأسحم : الأسود الداجي المظلم ، أى تحالفا كما هو رواية أيضا في ليل مظلم. أو في الرحم المظلم.
وعوض : ظرف مستقبل ، نصب بما بعده. لا نتفرق : جواب التحالف ، وكى بذلك كله عن شدة التلازم بينه وبين الكرم.

[سورة طه (20) : الآيات 11 إلى 14]

فَلَمَّا أَتاها نُودِيَ يا مُوسى (11) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً (12) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِما يُوحى (13) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي (14)

قرأ أبو عمرو وابن كثير إِنِّي بالفتح ، أى : نودي بأنى أَنَا رَبُّكَ وكسر الباقون ، أى : نودي فقيل يا موسى. أو لأنّ النداء ضرب من القول فعومل معاملته. تكرير الضمير في إِنِّي أَنَا رَبُّكَ لتوكيد الدلالة وتحقيق المعرفة وإماطة الشبهة. روى أنه لما نودي يا مُوسى قال : من المتكلم؟ فقال له الله عز وجل : إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ، وأن إبليس وسوس إليه فقال : لعلك تسمع كلام شيطان. فقال : أنا عرفت أنه كلام الله بأنى أسمعه من جميع جهاتى الست ، وأسمعه بجميع أعضائى. وروى أنه حين انتهى رأى شجرة خضراء من أسفلها إلى أعلاها كأنها نار بيضاء تتقد «1» ، وسمع تسبيح الملائكة ، ورأى نورا عظيما فخاف وبهت ، فألقيت عليه السكينة ثم نودي ، وكانت الشجرة عوسجة. وروى : كلما دنا أو بعد لم يختلف ما كان يسمع من الصوت.

وعن ابن إسحاق : لما دنا استأخرت عنه ، فلما رأى ذلك رجع وأوجس في نفسه خيفة ، فلما أراد الرجعة دنت منه ، ثم كلم. قيل : أمر بخلع النعلين لأنهما كانتا من جلد حمار ميت غير

(1). قوله «كأنها نار بيضاء تتقد ... الخ» عبارة الخازن «أطافت بها نار ... الخ» وعبارة النسفي بدل قوله «رأى شجرة ... الخ» : «وجد نارا بيضاء تتوقد في شجرة خضراء من أعلاها إلى أسفلها وكانت شجرة العناب أو العوسج» (ع) [.....]

مدبوغ «1» عن السدى وقتادة. وقيل : ليباشر الوادي بقدميه متبركا به. وقيل : لأن الحفوة تواضع لله ، ومن ثم طاف السلف بالكعبة حافين ، ومنهم من استعظم دخول المسجد بنعليه ، وكان إذاندر منه الدخول منتعلا تصدق، والقرآن يدل على أن ذلك احترام للبقعة وتعظيم لها وتشريف لقدسها. وروى أنه خلع نعليه وألقاهما من وراء الوادي طُوىً بالضم والكسر منصرف وغير منصرف بتأويل المكان والبقعة. وقيل : مرتين ، نحو ثنى «2» ، أى نودي نداءين أو قدس الوادي كرة بعد كرة وَأَنَا اخْتَرْتُكَ اصطفيتك للنبوة. وقرأ حمزة : وإنا اخترناك.

لِما يُوحى للذي يوحى. أو للوحى. تعلق اللام باستمع ، أو باخترتك لِذِكْرِي لتذكرني فإن ذكرى أن أعبد ويصلى لي. أو لتذكرني فيها لاشتمال الصلاة على الأذكار عن مجاهد. أو : لأنى ذكرتها في الكتب وأمرت بها. أو لأن أذكرك بالمدح والثناء وأجعل لك لسان صدق.

أو لذكرى خاصة لا تشوبه بذكر غيرى أو لإخلاص ذكرى وطلب وجهى لا ترائى بها ولا تقصد بها غرضا آخر. أو لتكون لي ذاكرا غير ناس فعل المخلصين في جعلهم ذكر ربهم على بال منهم وتوكيل هممهم وأفكارهم به ، كما قال لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ. أو لأوقات ذكرى وهي مواقيت الصلاة ، كقوله تعالى إِنَّ الصَّلاةَ كانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتاباً مَوْقُوتاً واللام مثلها في قولك : جئتك لوقت كذا ، وكان ذلك لست ليال خلون. وقوله تعالى يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتِي وقد حمل على ذكر الصلاة بعد نسيانها من قوله عليه السلام «من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها «3»» وكان حق العبارة أن يقال : لذكرها ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا ذكرها» ومن يتمحل له يقول : إذا ذكر الصلاة فقد ذكر الله. أو بتقدير حذف المضاف ، أى : لذكر صلاتي. أو لأن الذكر والنسيان من الله عز وجل في الحقيقة. وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : للذكرى.

[سورة طه (20) : آية 15]

إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكادُ أُخْفِيها لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى (15)

(1). لم أره هكذا وفي الترمذي والحاكم عن عبد الله بن مسعود رفعه «يوم كلم الله موسى كان عليه جبة صوف ونعلان من جلد حمار ميت غير ذكى».
(2). قوله «و قيل مرتين نحو ثنى» في الصحاح : وقال يعنى بعضهم في قوله تعالى بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً طوى مرتين ، أى قدس. وفيه أيضا «الثني» مقصور : الأمر يعاد مرتين اه ، فلعل أصل عبارته أيضا : وقيل طوى مرتين يعنى قدس وطهر مرتين. وظاهر العبارة أن طوى مثل ثنى بمعنى مرتين ، أى : نودي موسى مرتين ، أو قدس الوادي مرتين فهو منصوب بنودى أو بالمقدس. (ع)
(3). متفق عليه من حديث أبى هريرة في قصة النوم عن الصلاة. وفي آخره : من نسى صلاة فليصلها إذا اذكرها فان الله تعالى قال أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي وفي رواية «لذكرى» وهو أيضا متفق عليه من حديث أنس مرفوعا بلفظ «من نسى صلاة أو نام عنها فكفارتها أن يصليها إذا ذكرها» زاد البخاري في رواية «أقم الصلاة لذكرى».

أى أكاد أخفيها فلا أقول هي آتية «1» لفرط إرادتى إخفاءها ولولا ما في الإخبار بإتيانها مع تعمية وقتها من اللطف لما أخبرت به. وقيل : معناه أكاد أخفيها من نفسي ، ولا دليل في الكلام على هذا المحذوف ، ومحذوف لا دليل عليه مطرح. والذي غرهم منه أن في مصحف أبى : أكاد أخفيها من نفسي. وفي بعض المصاحف : أكاد أخفيها من نفسي فكيف أظهركم عليها وعن أبى الدرداء وسعيد بن جبير : أخفيها بالفتح ، من خفاه إذا أظهره ، أى : قرب إظهارها كقوله تعالى اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وقد جاء في بعض اللغات : أخفاه بمعنى خفاه. وبه فسر بيت امرئ القيس :

فإن تدفنوا الدّاء لا نخفه وإن تبعثوا الحرب لا نقعد «2»

فأكاد أخفيها محتمل للمعنيين لِتُجْزى متعلق بآتية بِما تَسْعى بسعيها.

[سورة طه (20) : آية 16]

فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْها مَنْ لا يُؤْمِنُ بِها وَاتَّبَعَ هَواهُ فَتَرْدى (16)

أى : لا يصدنك عن تصديقها والضمير للقيامة. ويجوز أن يكون للصلاة. فإن قلت : العبارة لنهى من لا يؤمن عن صدّ موسى ، والمقصود نهى موسى عن التكذيب بالبعث أو أمره بالتصديق فكيف صلحت هذه العبارة لأداء هذا المقصود؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن صد الكافر عن التصديق بها سبب للتكذيب. فذكر السبب ليدل على المسبب. والثاني أن صد الكافر مسبب عن رخاوة الرجل في الدين ولين شكيمته ، فذكر المسبب ليدل على السبب ، كقولهم : لا أرينك هاهنا ، المراد نهيه عن مشاهدته والكون بحضرته ، وذلك سبب رؤيته إياه. فكان ذكر المسبب دليلا على السبب ، كأنه قيل : فكن شديد الشكيمة صليب المعجم «3» ، حتى لا يتلوح منك لمن يكفر بالبعث أنه يطمع في صدك عما أنت عليه ، يعنى : أن من لا يؤمن بالآخرة هم الجم الغفير إذ لا شيء أطم على الكفرة ولا هم أشد له نكيرا من البعث ،

(1). قال محمود : «معناه قاربت أن لا أقول هي آتية ... الخ» قال أحمد : ولا يقنع في رد هذا التأويل بالهوينا ، فانه بين الفساد ، وذلك أن خفاءها عن الله تعالى محال عقلا ، فكيف يوصف المحال العقلي بقرب الوقوع.
وأحسن ما في محامل الآية ما ذكره الأستاذ أبو على حيث قال : المراد أكاد أزيل خفاءها ، أى : أظهرها ، إذ الخفاء الغطاء ، وهو أيضا ما تجعله المرأة فوق ثيابها يسترها ، ثم تقول العرب : أخفيته ، إذا أزلت خفاءه ، كما تقول أشكيته وأعتبته ، إذا أزلت شكايته وعتبه ، وحينئذ يلتئم القراءتان : أعنى فتح الهمزة وضمها ، والله سبحانه وتعالى أعلم.
(2). يقال : خفاه ، إذا كتمه. وخفاه أيضا : أظهره ، وماهنا منه. والمعنى : إن تكتموا الضغائن التي بيننا نكتمها نحن أيضا ولا نظهرها. شبه الضغينة والعداوة بالداء بجامع نشأة الضرر عن كل على طريق التصريحية.
وشبه الحرب بحيوان على طريق المكنية ، والبعث تخييل. أو استعمل البعث في التسبب مجازا مرسلا أو استعارة تصريحية. والمعنى: وإن تظهروا البغضاء وتوقدوا الهيجاء نغلبكم كما تعلمون منا.
(3). قوله «صليب المعجم» في الصحاح عجمت العود : إذا عضضته لتعلم صلابته من خوره. ورجل صلب المعجم : إذا كان عزيز النفس. (ع)

فلا يهولنك وفور دهمائهم ولا عظم سوادهم ، ولا تجعل الكثرة مزلة قدمك ، واعلم أنهم وإن كثروا تلك الكثرة فقدوتهم فيما هم فيه هو الهوى واتباعه ، لا البرهان وتدبره. وفي هذا حث عظيم على العمل بالدليل ، وزجر بليغ عن التقليد ، وإنذار بأن الهلاك والردى مع التقليد وأهله.

[سورة طه (20) : الآيات 17 إلى 18]

وَما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسى (17) قالَ هِيَ عَصايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْها وَأَهُشُّ بِها عَلى غَنَمِي وَلِيَ فِيها مَآرِبُ أُخْرى(18)

وَما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسى كقوله تعالى وَ هذا بَعْلِي شَيْخاً في انتصاب الحال بمعنى الإشارة : ويجوز أن تكون تِلْكَ اسما موصولا صلته بِيَمِينِكَ إنما سأله ليريه عظم ما يخترعه عز وعلا في الخشبة اليابسة من قلبها حية نضناضة «1» وليقرر في نفسه المباينة البعيدة بين المقلوب عنه والمقلوب إليه ، وينبهه على قدرته الباهرة. ونظيره أن يريك الزرّاد زبرة من حديد ويقول لك : ما هي؟ فتقول : زبرة حديد ، ثم يريك بعد أيام لبوسا مسردا فيقول لك : هي تلك الزبرة صيرتها إلى ما ترى من عجيب الصنعة وأنيق السرد. قرأ ابن أبى إسحاق : عصىّ، على لغة هذيل.

ومثله يا بُشْرى أرادوا كسر ما قبل ياء المتكلم فلم يقدروا عليه ، فقلبوا الألف إلى أخت الكسرة وقرأ الحسن عَصايَ بكسر الياء لالتقاء الساكنين ، وهو مثل قراءة حمزة بِمُصْرِخِيَّ وعن ابن أبى إسحاق : سكون الياء أَتَوَكَّؤُا عَلَيْها أعتمد عليها إذا أعييت أو وقفت على رأس القطيع وعند الطفرة «2». هش الورق : خبطه ، أى : أخبطه على رؤس غنمي تأكله. وعن لقمان ابن عاد : أكلت حقا وابن لبون وجذع. وهشة نخب وسيلا دفع ، والحمد للّه من غير شبع ، سمعته من غير واحد من العرب. ونخب : واد قريب من الطائف كثير السدر. وفي قراءة النخعي : أهش ، وكلاهما من هش الخبز يهش : إذا كان ينكسر لهشاشته. وعن عكرمة : أهس بالسين ، أى : أنحى عليها زاجرا لها. والهس : زجر الغنم. ذكر على التفصيل والإجمال المنافع المتعلقة بالعصا ، كأنه أحس بما يعقب هذا السؤال من أمر عظيم يحدثه اللّه تعالى فقال : ما هي إلا عصا لا تنفع إلا منافع بنات جنسها وكما تنفع العيدان ، ليكون جوابه مطابقا للغرض الذي فهمه من فحوى كلام ربه. ويجوز أن يريد عزّ وجلّ أن يعدّد المرافق الكثيرة التي علقها بالعصا ويستكثرها ويستعظمها ، ثم يريه على عقب ذلك الآية العظيمة ، كأنه يقول له : أين أنت عن هذه المنفعة العظمى والمأربة الكبرى المنسية عندها كل منفعة ومأربة كنت تعتدّ بها وتحتفل بشأنها ،

---

(1). قوله «حية نضناضة» أى تحرك لسانها في فمها. أفاده الصحاح. (ع)
(2). قوله «الطفرة» أى الوثبة. (ع)

وقالوا : إنما سأله ليبسط منه ويقلل هيبته. وقالوا : إنما أجمل موسى ليسأله عن تلك المآرب فيزيد في إكرامه ، وقالوا : انقطع لسانه بالهيبة فأجمل ، وقالوا : اسم العصا نبعة. وقيل في المآرب : كانت ذات شعبتين ومحجن ، فإذا طال الغصن حناه بالمحجن ، وإذا طلب كسره لواه بالشعبتين ، وإذا سار ألقاها على عاتقه فعلق بها أدواته من القوس والكنانة والحلاب وغيرها ، وإذا كان في البرية ركزها وعرض الزندين «1» على شعبتيها وألقى عليها الكساء واستظلّ وإذا قصر رشاؤه وصله بها ، وكان يقاتل بها السباع عن غنمه. وقيل : كان فيها من المعجزات أنه كان يستقى بها فتطول بطول البئر وتصير شعبتاها دلوا ، وتكونان شمعتين بالليل ، وإذا ظهر عدوّ حاربت عنه ، وإذا اشتهى ثمرة ركزها فأورقت وأثمرت ، وكان يحمل عليها زاده وسقاءه فجعلت تماشيه ، ويركزها فينبع الماء ، فإذا رفعها نضب ، وكانت تقيه الهوام.

[سورة طه (20) : الآيات 19 إلى 20]

قالَ أَلْقِها يا مُوسى (19) فَأَلْقاها فَإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعى (20)

السعى : المشي بسرعة وخفة حركة. فإن قلت : كيف ذكرت بألفاظ مختلفة : بالحية ، والجان ، والثعبان؟ قلت : أمّا الحية فاسم جنس يقع على الذكر والأنثى والصغير والكبير. وأمّا الثعبان والجان فبينهما تناف ، لأنّ الثعبان العظيم من الحيات ، والجان الدقيق. وفي ذلك وجهان : أحدهما أنها كانت وقت انقلابها حيه تنقلب حية صفراء دقيقة ، ثم تتورم ويتزايد جرمها حتى تصير ثعبانا ، فأريد يا لجان أوّل حالها ، وبالثعبان مآلها. الثاني : أنها كانت في شخص الثعبان وسرعة حركة الجان. والدليل عليه قوله تعالى : فلما رآها تهتزّ كأنها جانّ. وقيل كان لها عرف كعرف الفرس. وقيل كان بين لحييها أربعون ذراعا.

[سورة طه (20) : آية 21]

قالَ خُذْها وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُها سِيرَتَهَا الْأُولى (21)

لما رأى ذلك الأمر العجيب الهائل ملكه من الفزع والنفاز ما يملك البشر عند الأهوال والمخاوف. وعن ابن عباس : انقلبت ثعبانا ذكرا يبتلع الصخر والشجر ، فلما رآه يبتلع كل شيء خاف ونفر. وعن بعضهم : إنما خافها لأنه عرف ما لقي آدم منها. وقيل : لما قال له ربه لا تَخَفْ بلغ من ذهاب خوفه وطمأنينة نفسه أن أدخل يده في فمها وأخذ بلحيها. السيرة من السير : كالركبة من الركوب. يقال : سار فلان سيرة حسنة ، ثم اتسع فيها فنقلت إلى معنى المذهب والطريقة. وقيل : سير الأوّلين ، فيجوز أن ينتصب على الظرف ، أى : سنعيدها في طريقتها الأولى ، أى : في حال ما كانت عصا ، وأن يكون. أعاد» منقولا من «عاده» بمعنى عاد إليه.

(1). قوله «عرض الزندين» في الصحاح «الزند» العود الذي يقدح به النار وهو الأعلى والزند السفلى فيها ثقب وهي الأنثى فإذا اجتمعا قيل زندان ولم يقل زندتان ، والجمع زناد وأزند وأزناد. ح

ومنه بيت زهير :

وعادك أن تلاقيها عداء «1»

فيتعدى إلى مفعولين. ووجه ثالث حسن : وهو أن يكون سَنُعِيدُها مستقلا بنفسه غير متعلق بسيرتها ، بمعنى أنها أنشئت أوّل ما أنشئت عصا ، ثم ذهبت وبطلت بالقلب حية ، فسنعيدها بعد ذهابها كما أنشأناها أوّلا. ونصب سيرتها بفعل مضمر ، أى : تسير سيرتها الأولى : يعنى سنعيدها سائرة سيرتها الأولى حيث كنت تتوكأ عليها ولك فيها المآرب التي عرفتها.

[سورة طه (20) : الآيات 22 إلى 23]

وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلى جَناحِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرى (22) لِنُرِيَكَ مِنْ آياتِنَا الْكُبْرى (23)

قيل لكل ناحيتين : جناحان ، كجناحى العسكر لمجنبتيه ، وجناحا الإنسان : جنباه ، والأصل المستعار منه جناحا الطائر. سميا جناحين لأنه يجنحهما عند الطيران. والمراد إلى جنبك تحت العضد ، دل على ذلك قوله تَخْرُجْ. السوء : الرداءة والقبح في كل شيء ، فكنى به عن البرص كما كنى عن العورة بالسوأة ، وكان جذيمة صاحب الزباء «2» أبرص فكنوا عنه بالأبرش «3» والبرص أبغض شيء إلى العرب ، وبهم عنه نفرة عظيمة ، وأسماعهم لاسمه مجاجة ، فكان جديرا بأن يكنى عنه ، ولا نرى أحسن ولا ألطف ولا أحز للمفاصل من كنايات القرآن وآدابه.

يروى أنه كان آدم فأخرج يده من مدرعته بيضاء لها شعاع كشعاع الشمس يعشى البصر.

بَيْضاءَ وآيَةً حالان معا. ومِنْ غَيْرِ سُوءٍ من صلة لبيضاء ، كما تقول ابيضت من غير سوء ، وفي نصب آيَةً وجه آخر ، وهو أن يكون بإضمار نحو : خذ ، ودونك ، وما أشبه ذلك ، حذف لدلالة الكلام ، وقد تعلق بهذا المحذوف لِنُرِيَكَ أى خذ هذه الآية أيضا بعد قلب العصاحية لنريك بهاتين الآيتين بعض آياتنا الكبرى. أو لنريك بهما الكبرى من آياتنا.

أو لنريك من آياتنا الكبرى فعلنا ذلك.

(1) فصرم حبلها إذ صرمته وعادك أن تلاقيها عداء
لزهير. أى : اقطع مودتها حيث قطعت مودتك ، شبه المودة بالحبل على طريق الاستعارة التصريحية ، والتصريم ترشيح وتقوية للتشبيه. وعادك : يحتمل أنه من عاد إذا رجع ، فالمعنى : رجعك وردك ، يحتمل أنه مقلوب من عداه إذا صرفه ، كما في «ناء» مقلوب «نأى» فالمعنى صرفك. قال أبو عمير : وعادك بمعنى شغلك. وقال الأصمعي :
بمعنى : عاد إليك ، وبمعنى صرفك. ومن المعلوم أن الفعل إذا كان لازما تعدى بالهمزة إلى المفعول قياسا ، وإذا تعدى بنفسه إلى مفعول واحد تعدى بدخول الهمزة عليه إلى مفعولين. واختلف هل هو قياس أو سماعي؟
وأعاد منه ، فيجري فيه ما ذكر. وأما تعديته إلى أن تلاقيها أيضا فهو بإسقاط الخافض توسعا. والعداء : الشغل أو البعد : ويطلق على الجور ، من عدا عليه. قال الجوهري : العداء - بالفتح - الظلم ، ويجوز كسره بمعنى المانع ، لأن العداء هو ما يعدى به أى يصرف

ويحتمل أن أصله «عدا» بالكسر والقصر جمع عدو. فمد للضرورة ، أى : منعك الأعداء عن لقائها فالاسناد حقيقى
(2). قوله «و كان جذيمة صاحب الزباء» جذيمة ملك الحيرة والزباء ملكة الجزيرة كذا في الصحاح. (ع)
(3). قوله «فكنوا عنه بالأبرش» في الصحاح البرش في الفرس نقط صغار تخالف سائر لونه والفرس أبرش. (ع)

[سورة طه (20) : الآيات 24 إلى 35]

اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى (24) قالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (25) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (26) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي (27) يَفْقَهُوا قَوْلِي (28)وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي (29) هارُونَ أَخِي (30) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (31) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (32) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً (33)وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً (34) إِنَّكَ كُنْتَ بِنا بَصِيراً (35)

لما أمره بالذهاب إلى فرعون الطاغي لعنه الله عرف أنه كلف أمرا عظيما وخطبا جسيما يحتاج معه إلى احتمال ما لا يحتمله إلا ذو جأش «1» رابط وصدر فسيح ، فاستوهب ربه أن يشرح صدره ويفسح قلبه ، ويجعله حليما حمولا يستقبل ما عسى يرد عليه من الشدائد التي يذهب معها صبر الصابر بجميل الصبر وحسن الثبات ، وأن يسهل عليه في الجملة أمره الذي هو خلافة الله في أرضه وما يصحبها من مزاولة معاظم الشؤون ومقاساة جلائل الخطوب. فإن قلت : لِي في قوله اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ما جدواه «2» والكلام بدونه مستتب «3»؟ قلت : قد أبهم الكلام أولا فقيل : اشرح لي ويسر لي ، فعلم أن ثم مشروحا وميسرا ، ثم بين ورفع الإبهام بذكرهما ، فكان آكد لطلب الشرح والتيسير لصدره وأمره ، من أن يقول : اشرح صدري ويسر أمرى على الإيضاح الساذج ، لأنه تكرير للمعنى الواحد من طريقى الإجمال والتفصيل.

(1). قوله «ذو جأش» في الصحاح يقال فلان رابط الجأش أى يربط نفسه عن الفرار لشجاعته. (ع)
(2). قال محمود : «إن قلت ما فائدة لي والكلام مستتب بدونها .. الخ ، قال أحمد : ويحتمل عندي والله أعلم أن تكون فائدتها الاعتراف بأن منفعة شرح الصدر راجعة إليه وعائدة عليه ، فان الله عز وجل لا ينتفع بإرساله ولا يستعين بشرح صدره ، تعالى وتقدس ، على خلاف رسول الملك إذا طلب منه أن يريح عليه فإنما يطلب منه ما يعود نفعه على مرسله ، ويحصل له غرضه من رسالته ، والله أعلم. [.....]
(3). قوله «مستتب» في الصحاح : استتب الأمر تهيأ واستقام. (ع)

عن ابن عباس : كان في لسانه رتة «1» لما روى من حديث الجمرة «2». ويروى أن يده احترقت ، وأن فرعون اجتهد في علاجها فلم تبرأ ، ولما دعاه قال : إلى أى رب تدعوني؟ قال : إلى الذي أبرأ يدي وقد عجزت عنها. وعن بعضهم : إنما لم تبرأ يده لئلا يدخلها مع فرعون في قصعة واحدة فتنعقد بينهما حرمة المواكلة. واختلف في زوال العقدة بكمالها فقيل : ذهب بعضها وبقي بعضها ، لقوله تعالى وَأَخِي هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً وقوله تعالى وَلا يَكادُ يُبِينُ وكان في لسان الحسين بن على رضى الله عنهما رتة «3» فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ورثها من عمه موسى. وقيل : زالت بكمالها لقوله تعالى قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى وفي تنكير العقدة - وإن لم يقل عقدة لساني - : أنه طلب حل بعضها إرادة أن يفهم عنه فهما جيدا ، ولم يطلب الفصاحة الكاملة. ومِنْ لِسانِي صفة للعقدة كأنه قيل : عقدة من عقد لساني.

الوزير من الوزر ، لأنه يتحمل عن الملك أو زاره ومؤنة. أو من الوزر «4» ، لأن الملك يعتصم برأيه ويلجئ إليه أموره. أو من المؤازرة وهي المعاونة. عن الأصمعى قال : وكان القياس أزيرا ، فقلبت الهمزة إلى الواو ، ووجه قلبها أنّ فعيلا جاء في معنى مفاعل مجيئا صالحا ، كقولهم : عشير وجليس وقعيد وخليل وصديق ونديم ، فلما قلبت في أخيه قلبت فيه ، وحمل الشيء على نظيره ليس بعزيز ، ونظرا إلى يوازر وأخواته ، وإلى الموازرة. وَزِيراً وهارُونَ مفعولا قوله اجْعَلْ قدم ثانيهما على أولهما عناية بأمر الوزارة. أو لِي وَزِيراً مفعولاه، وهرون عطف بيان للوزير. وأَخِي في الوجهين بدل من هرون ، وإن جعل عطف بيان آخر جاز وحسن.
قرءوا جميعا اشْدُدْ وَأَشْرِكْهُ على الدعاء. وابن عامر وحده : اشدد. وأشركه ، على الجواب.

(1). قوله «كان في لسانه رتة» في الصحاح «الرتة» بالضم : العجمة في الكلام. وحديث الجمرة : أن موسى كان يلعب بين يدي فرعون وبيده قضيب ، فضرب به رأسه ، فغضب وهمّ بقتله ، فقالت له امرأته. إنه صبى لا يعقل وجربه إن شئت ، فجاءت بطشتين في أحدهما جمر وفي الآخر جوهر ، فمد موسى يده إلى الجوهر ، فحولها جبريل إلى الجمر فوضع جمرة في فمه فاحترق لسانه. (ع)
(2). لم أره هكذا ، وإنما وقع في حديث القنوت الطويل الذي أخرجه النسائي وغيره من طريق القاسم بن أبى أيوب عن سعيد بن جبير «سألت ابن عباس رضى الله عنهما عن قوله تعالى وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً - فذكره بطوله في أربع ورقات - فذكر فيه قصة آسية وفرعون. وقولها : قرب إليه جمرتين ولؤلؤتين وأنه أخذ الجمرتين فانتزعتهما منه مخافة أن يحرقا يده. وهذا يدل على أنه لم يرفعهما إلى فيه. وهو أصح ما ورد في ذلك. وروى الحاكم من طريق وهب بن منبه فذكر قصة وفيها قالت : جربه. إن شئت اجعل في هذا

(3). لم أجده.
(4). قوله «الوزير من الوزر» أى الثقل. وقوله «أو من الوزر» أى الملجأ. أفاده الصحاح. (ع)

وفي مصحف ابن مسعود : أخى واشدد. وعن أبى بن كعب : أشركه في أمرى ، واشدد به أزرى.

ويجوز فيمن قرأ على لفظ الأمر : أن يجعل أَخِي مرفوعا على الابتداء : واشْدُدْ بِهِ خبره ، ويوقف على هارُونَ. الأزر : القوة. وأزره : قواه ، أى : اجعله شريكي في الرسالة حتى نتعاون على عبادتك وذكرك ، فإن التعاون - لأنه مهيج الرغبات - يتزايد به الخير ويتكاثر إِنَّكَ كُنْتَ بِنا بَصِيراً أى عالما بأحوالنا وبأن التعاضد مما يصلحنا ، وأن هرون نعم المعين والشادّ لعضدى ، بأنه أكبر منى سنا وأفصح لسانا.

[سورة طه (20) : آية 36]

قالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى (36)

السؤل : الطلبة ، فعل بمعنى مفعول ، كقولك : خبز ، بمعنى مخبوز. وأكل ، بمعنى مأكول.

[سورة طه (20) : الآيات 37 إلى 39]

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرى (37) إِذْ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّكَ ما يُوحى (38) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي (39)

الوحى إلى أم موسى : إما أن يكون على لسان نبىّ في وقتها ، كقوله تعالى وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ أو يبعث إليها ملكا لا على وجه النبوة ، كما بعث إلى مريم. أو يريها ذلك في المنام فتتنبه عليه. أو يلهمها كقوله تعالى وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أى أوحينا إليها أمرا لا سبيل إلى التوصل إليه ولا إلى العلم به إلا بالوحي ، وفيه مصلحة دينية فوجب أن يوحى ولا يخل به ، أى : هو مما يوحى لا محالة وهو أمر عظيم ، مثله يحق بأن يوحى «أن» هي المفسرة لأن الوحى بمعنى القول. القذف مستعمل في معنى الإلقاء والوضع. ومنه قوله تعالى وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ وكذلك الرمي قال : غلام رماه الله بالحسن يافعا «1»

(1) رآني على ما بي عميلة فاشتكى إلى ماله حالى فواسى وما هجر
ولما رأى المجد استعيرت ثيابه تردى رداء سابغ الذيل واتزر
غلام رماه الله بالحسن يافعا له سيمياء لا تشق على البصر
كأن الثريا علقت فوق نحره وفي أنفه الشعرا وفي خده القمر
لأسيد بن عنقاء الفزاري ، كان من أكبر أهل زمانه وأعلمهم بالأدب ، فطال به عمره ونكبه دهره ، فلقيه عميلة الفزاري فسلم عليه وقال : ما أصارك يا عم إلى ما أرى؟ فقال : يخل مثلك بماله ، وصون وجهى عن مسألة الناس. فقال : لئن بقيت إلى غد لأغيرن ما بك ، فلما كان وقت السحر سمع رغاء الإبل وصهيل الخيل تحت الأموال. فقال : ما هذا؟ قالوا عميلة شطر ماله بينك وبينه ، فأنشأ يقول ذلك ، وشبه ماله بعاقر على طريق المكنية. والشكوى إليه تخييل. وضمير : واسى ، بمعنى أعطى لعميلة. ويجوز أنه للمال ، بناء على التشبيه السابق. وثياب المجد مجاز عن المكارم والإحسان على طريق التصريح ، واستعارتها ترشيح. ومعناه أخذها من أربابها وذهابها من أصحابها ، وذلك كله كناية عن يخل ذوى الأموال. وسابغ الذيل: طويله. واتزر : لبس الإزار. ويقرأ بتشديد التاء. ويجوز فتحها مع همرة ساكنة قبلها على الأصل والمجاز كما تقدم. وذلك كناية عن كثرة جوده. ويجوز أن المعنى لما رأى الناس تفتخر بمفاخر غيرهم فقط صنع هو المكارم بنفسه لنفسه ، ورماه الله بالحسن : وضعه فيه بكثرة ، كأنه قذفه فيه بغير حساب. واليافع : الشاب وهو حال. والسيمياء : العلامة لا تشق على البصر كناية عن ظهورها فلا تحتاج إلى تأمل ، كظهور الكواكب. والنحر : أعلى الصدر وأسفل العنق. والشعرا : نجم كثير الضوء. والبيت الثاني بيان للأول. وروى «حباء الله» وروى «علقت في جبينه» وروى : «و في جيده القمر» وحباه : أعطاه. والجيد : العنق ، وهذه الرواية أقعد.

أى حصل فيه الحسن ووضعه فيه ، والضمائر كلها راجعة إلى موسى. ورجوع بعضها إليه وبعضها إلى التابوت : فيه هجنة ، لما يؤدى إليه من تنافر النظم. فإن قلت : المقذوف في البحر هو التابوت ، وكذلك الملقى إلى الساحل. قلت : ما ضرك لو قلت : المقذوف والملقى هو موسى في جوف التابوت ، حتى لا تفرق الضمائر فيتنافر عليك النظم الذي هو أم إعجاز القرآن. والقانون الذي وقع عليه التحدّى ، ومراعاته أهم ما يجب على المفسر. لما كانت مشيئة الله تعالى وإرادته أن لا تخطئ جرية ماء اليم الوصول به إلى الساحل وألقاه إليه ، سلك في ذلك سبيل المجاز ، وجعل اليم كأنه ذو تمييز ، أمر بذلك ليطيع الأمر ويمتثل رسمه ، فقيل فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ

روى أنه كانت على وجهه مسحة جمال ، وفي عينيه ملاحة ، لا يكاد يصبر عنه من رآه عَلى عَيْنِي لتربى ويحسن إليك وأنا مراعيك وراقبك ، كما يراعى الرجل الشيء بعينيه إذا اعتنى به ، وتقول للصانع : اصنع هذا على عينى أنظر إليك لئلا تخالف به عن مرادى وبغيتي. ولتصنع : معطوف على علة مضمرة ، مثل : ليتعطف عليك وترأم «1» ونحوه. أو حذف معلله ، أى :

(1). قوله «و ترأم» أى تحب وتؤلف. أفاده الصحاح. (ع)

ولتصنع فعلت ذلك. وقرئ : ولتصنع ولتصنع ، بكسر اللام وسكونها. والجزم على أنه أمر.

وقرئ : ولتصنع ، بفتح التاء والنصب ، أى : وليكون عملك وتصرفك على عين منى.

[سورة طه (20) : الآيات 40 إلى 41]

إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْناكَ إِلى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَلا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْناكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلى قَدَرٍ يا مُوسى (40) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (41)

العامل في إِذْ تَمْشِي «1» أَلْقَيْتُ أو لِتُصْنَعَ ويجوز أن يكون بدلا من إِذْ أَوْحَيْنا.

فإن قلت : كيف يصح البدل والوقتان مختلفان متباعدان؟ قلت : كما يصح - وإن اتسع الوقت وتباعد طرفاه - أن يقول لك الرجل : لقيت فلانا سنة كذا ، فتقول : وأنا لقيته إذ ذاك. وربما لقيه هو في أو لها وأنت في آخرها. يروى أن أخته واسمها مريم جاءت متعرفه خبره ، فصادفتهم يطلبون له مرضعة يقبل ثديها ، وذلك أنه كان لا يقبل ثدي امرأة فقالت : هل أدلكم فجاءت بالأمّ فقبل ثديها.

ويروى أن آسية استوهبته من فرعون وتبنته ، وهي التي أشفقت عليه وطلبت له المراضع.

هي نفس القبطي الذي استغاثه عليه الإسرائيلى. قتله وهو ابن اثنتي عشرة سنة : اغتم بسبب القتل خوفا من عقاب اللّه ومن اقتصاص فرعون ، فغفر اللّه له باستغفاره حين قال رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ونجاه من فرعون أن ينشب فيه أظفاره حين هاجر به إلى مدين فُتُوناً يجوز أن يكون مصدرا على فعول في المتعدّى ، كالثبور والشكور والكفور.

وجمع فتن أو فتنة ، على ترك الاعتداد بتاء التأنيث ، كحجوز وبدور ، في حجزة وبدرة : أى فتناك ضروبا من الفتن. سأل سعيد بن جبير ابن عباس رضى اللّه عنه ، فقال : خلصناك من محنة بعد محنة : ولد في عام كان يقتل فيه الولدان ، فهذه فتنة يا ابن جبير. وألقته أمّه في البحر. وهمّ فرعون بقتله. وقتل قبطيا. وأجر نفسه عشر سنين. وضلّ الطريق وتفرّقت غنمه في ليلة مظلمة ، وكان يقول عند كل واحدة : فهذه فتنة يا ابن جبير. والفتنة: المحنة ، وكل ما يشق على الإنسان. وكل ما يبتلى اللّه به عباده : فتنة. قال وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً. مَدْيَنَ على ثماني مراحل من مصر.

(1). قال محمود : «العامل في إِذْ تَمْشِي ألقيت أو تصنع ... الخ» قال أحمد : والمعنى يوجب عمل وَلِتُصْنَعَ فيه لأن معنى صنيعه على عين اللّه عز وجل : تربيته مكلوءا بكلاءته مصونا بحفظه ، وزمان تربيته على هذه الحالة : هو زمان رده إلى أمه المشفقة الحنانة. وأما إلقاه المحبة عليه ، فقيل : ذلك أول ما أخذه فرعون وأحبه ، واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

وعن وهب : أنه لبث عند شعيب ثمانيا وعشرين سنة ، منها مهر ابنته ، وقضى أو في الأجلين. أى سبق في قضائي وقدرى أن أكلمك وأستنبئك ، وفي وقت بعينه قد وقته لذلك ، فما جئت إلا على ذلك القدر غير مستقدم ولا مستأخر. وقيل : على مقدار من الزمان يوحى فيه إلى الأنبياء ، وهو رأس أربعين سنة. هذا تمثيل لما خوّله من منزلة التقريب والتكريم والتكليم. مثل حاله بحال من يراه بعض الملوك لجوامع خصال فيه وخصائص ، أهلا لئلا يكون أحد أقرب منزلة منه إليه ، ولا ألطف محلا ، فيصطنعه بالكرامة والأثرة ، ويستخلصه لنفسه.

ولا يبصر ولا يسمع إلا بعينه وأذنه ، ولا يأتمن على مكنون سره إلا سواء ضميره «1».

[سورة طه (20) : الآيات 42 إلى 44]

اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآياتِي وَلا تَنِيا فِي ذِكْرِي (42) اذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى (43) فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى (44)

الونى. الفتور والتقصير. وقرئ : تنيا ، بكسر حرف المضارعة للإتباع ، أى : لا تنسيانى ولا أزال منكما على ذكر حيثما تقلبتما ، واتخذا ذكرى جناحا تصير ان به مستمدين بذلك العون والتأييد منى ، معتقدين أن أمرا من الأمور لا يتمشى لأحد إلا بذكرى. ويجوز أن يريد بالذكر تبليغ الرسالة ، فإن الذكر يقع على سائر العبادات ، وتبليغ الرسالة من أجلها وأعظمها ، فكان جديرا بأن يطلق عليه اسم الذكر. روى أن الله تعالى أوحى إلى هرون وهو بمصر أن يتلقى موسى. وقيل : سمع بمقبله. وقيل : ألهم ذلك. قرئ لَيِّناً بالتخفيف والقول اللين. نحو قوله تعالى هَلْ لَكَ إِلى أَنْ تَزَكَّى وَأَهْدِيَكَ إِلى رَبِّكَ فَتَخْشى لأنّ ظاهره الاستفهام والمشورة ، وعرض ما فيه من الفوز العظيم. وقيل : عداه شبابا لا يهرم بعده ، وملكا لا ينزع منه إلا بالموت ، وأن تبقى له لذة المطعم والمشرب والمنكح إلى حين موته. وقيل : لا تجبهاه بما يكره ، والطفا له في القول «2» ، لما له من حق تربية موسى ، ولما ثبت له من مثل حق الأبوّة. وقيل : كنياه وهو من ذوى الكنى الثلاث : أبو العباس ، وأبو الوليد ، وأبو مرّة. والترجي لهما ، أى : اذهبا على رجائكما وطمعكما ، وباشرا الأمر مباشرة من يرجو ويطمع أن يثمر عمله ولا يخيب سعيه ، فهو يجتهد بطوقه ، ويحتشد «3» بأقصى وسعه. وجدوى إرسالهما إليه مع العلم بأنه لن يؤمن إلزام الحجة وقطع المعذرة وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْناهُمْ بِعَذابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقالُوا رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آياتِكَ أى : يتذكر ويتأمّل فيبذل النصفة من نفسه والإذعان للحق أَوْ يَخْشى أن يكون الأمر كما تصفان ، فيجرّه إنكاره إلى الهلكة.

(1). قوله «سواء ضميره» في الصحاح «سواء الشي ء» : وسطه. (ع)
(2). قوله «و قيل : لا تجبهاه بما يكره» في الصحاح «جبهته بالمكروه» إذا استقبلته به ، وفيه «الطف في العمل» الرفق به. (ع)
(3). قوله «و يحتشد بأقصى وسعه» أى يستعد ويتأهب. أفاده الصحاح. (ع)

[سورة طه (20) : آية 45]

قالا رَبَّنا إِنَّنا نَخافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا أَوْ أَنْ يَطْغى (45)

فرط : سبق وتقدّم. ومنه الفارط : الذي يتقدّم الواردة. وفرس فرط : يسبق الخيل ، أى : نخاف أن يعجل علينا بالعقوبة ويبادرنا بها. وقرئ يَفْرُطَ من أفرطه غيره إذا حمله على العجلة. خافا أن يحمله حامل على المعاجلة بالعقاب «1» من شيطان ، أو من جبروته واستكباره وادّعائه الربوبية. أو من حبه الرياسة ، أو من قومه القبط المتمرّدين الذين حكى عنهم ربّ العزّة قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ وقرئ : يفرط ، من الإفراط في الأذية ، أى : نخاف أن يحول بيننا وبين تبليغ الرسالة بالمعاجلة. أو يجاوز الحدّ في معاقبتنا إن لم يعاجل ، بناء على ما عرفا وجرّبا من شرارته وعتوّه أَوْ أَنْ يَطْغى بالتخطي إلى أن يقول فيك ما لا ينبغي ، لجرأته عليك وقسوة قلبه. وفي المجيء به هكذا على الإطلاق وعلى سبيل الرمز : باب من حسن الأدب وتحاش عن التفوّه بالعظيمة.

[سورة طه (20) : الآيات 46 إلى 48]

قالَ لا تَخافا إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَأَرى (46) فَأْتِياهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْناكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى (47) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنا أَنَّ الْعَذابَ عَلى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (48)
مَعَكُما أى حافظكما وناصركما أَسْمَعُ وَأَرى ما يجرى بينكما وبينه من قول وفعل ، فأفعل ما يوجبه حفظي ونصرتي لكما ، فجائز أن يقدّر أقوالكم وأفعالكم ، وجائز أن لا يقدّر شيء ، وكأنه قيل : أنا حافظ لكما وناصر

(1). قال محمود : «معنى يفرط علينا يعجل بعقوبتنا ... الخ» قال أحمد : وإذا روعي في الأدب إطلاق هذه اللفظة عن مجروريها ، فلا يبعد أن يراعى في الأدب بالاعتراف بتقلد منة الله عز وجلّ زيادة المجرور في قوله اشْرَحْ لِي صَدْرِي كما قدمته آنفا ، والله أعلم.

[سورة طه (20) : الآيات 49 إلى 50]

قالَ فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسى (49) قالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى (50)

خاطب الاثنين ، ووجه النداء إلى أحدهما وهو موسى ، لأنه الأصل في النبوة ، وهرون وزيره وتابعه. ويحتمل أن يحمله خبثه ودعارته «1» على استدعاء كلام موسى دون كلام أخيه ، لما عرف من فصاحة هرون والرتة في لسان موسى. ويدل عليه قوله أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكادُ يُبِينُ. خَلْقَهُ أول مفعولي أعطى ، أى : أعطى خليقته كل شيء يحتاجون إليه ويرتفقون به. أو ثانيهما ، أى : أعطى كل شيء صورته وشكله الذي يطابق المنفعة المنوطة به ، كما أعطى العين الهيئة التي تطابق الإبصار ، والأذن الشكل الذي يوافق الاستماع ، وكذلك الأنف واليد والرجل واللسان : كل واحد منها مطابق لما علق به من المنفعة ، غير ناب عنه. أو أعطى كل حيوان نظيره في الخلق والصورة ، حيث جعل الحصان والحجر «2» زوجين ، والبعير والناقة ، والرجل والمرأة ، فلم يزاوج منها شيئا غير جنسه وما هو على خلاف خلقه. وقرئ : خلقه ، صفة للمضاف أو للمضاف إليه ، أى : كل شيء خلقه الله لم يخله من عطائه وإنعامه ثُمَّ هَدى أى عرّف كيف يرتفق بما أعطى ، وكيف يتوصل إليه. ولله درّ هذا الجواب ما أخصره وما أجمعه ، وما أبينه لمن ألقى الذهن ونظر بعين الإنصاف وكان طالبا للحق.

[سورة طه (20) : الآيات 51 إلى 54]

قالَ فَما بالُ الْقُرُونِ الْأُولى (51) قالَ عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي فِي كِتابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسى (52) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيها سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْ نَباتٍ شَتَّى (53) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعامَكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى (54)

(1). قوله «يحمله خبثه ودعارته» أى فساده وفسقه. (ع)
(2). قوله «و الحجر» بكسر الحاءو سكون الجيم : الأنثى من الخيلى : اه مصححه. [.....]

سأله عن حال من تقدم وخلا من القرون ، وعن شقاء من شقى منهم وسعادة من سعد ، فأجابه بأنّ هذا سؤال عن الغيب ، وقد استأثر الله به لا يعلمه إلا هو ، وما أنا إلا عبد مثلك لا أعلم منه إلا ما أخبرنى به علام الغيوب، وعلم أحوال القرون مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ ، لا يجوز على الله أن يخطئ شيئا أو ينساه. يقال : ضللت الشيء إذا أخطأته في مكانه فلم تهتد له ، كقولك : ضللت الطريق والمنزل. وقرئ : يضل ، من أضله إذا ضيعه. وعن ابن عباس : لا يترك من كفر به حتى ينتقم منه ، ولا يترك من وحده حتى يجازيه. ويجوز أن يكون فرعون قد نازعه في إحاطة الله بكل شيء وتبيينه لكل معلوم ، فتعنت وقال : ما تقول في سوالف القرون ، وتمادى كثرتهم ، وتباعد أطراف عددهم ، كيف أحاط بهم وبأجزائهم وجواهرهم؟

فأجاب بأنّ كل كائن محيط به علمه ، وهو مثبت عنده في كتاب ، ولا يجوز عليه الخطأ والنسيان ، كما يجوز ان عليك أيها العبد الذليل والبشر الضئيل ، أى : لا يضل كما تضل أنت ، ولا ينسى كما تنسى يا مدعى الربوبية بالجهل والوقاحة الَّذِي جَعَلَ مرفوع صفة لربي. أو خبر مبتدإ محذوف أو منصوب على المدح ، وهذا من مظانه ومجازه مَهْداً قراءة أهل الكوفة ، أى : مهدها مهدا.

أو يتمهدونها فهي لهم كالمهد وهو ما يمهد للصبي وَسَلَكَ من قوله تعالى ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ، سَلَكْناهُ ، نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ أى حصل لكم فيها سبلا ووسطها بين الجبال والأودية والبراري فَأَخْرَجْنا انتقل فيه من لفظ الغيبة إلى لفظ المتكلم المطاع ، لما ذكرت من الافتنان «1» والإيذان بأنه مطاع تنقاد الأشياء المختلفة لأمره ، وتذعن الأجناس المتفاوتة لمشيئة ، لا يمتنع شيء على إرادته. ومثله قوله تعالى وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ نَباتَ كُلِّ شَيْءٍ ، أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ ثَمَراتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوانُها ، أَمَّنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا بِهِ حَدائِقَ ذاتَ بَهْجَةٍ وفيه تخصيص أيضا بأنا نحن نقدر على مثل هذا ،

(1). قال محمود «هذا من باب الالتفات ... الخ» قال أحمد : الالتفات إنما يكون في كلام المتكلم الواحد ، يصرف كلامه على وجوه شتى ، وما نحن فيه ليس من ذلك ، فان الله تعالى حكى عن موسى عليه السلام قوله لفرعون عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي فِي كِتابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسى ثم قوله الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً إلى قوله فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْ نَباتٍ شَتَّى إما أن يجعل من قول موسى فيكون من باب قول خواص الملك : أمرنا وعمرنا ، وإنما يريدون الملك ، وليس هذا بالتفات. وإما أن يكون كلام موسى قد انتهي عند قوله وَلا يَنْسى ثم ابتدأ الله تعالى وصف ذاته بصفات العامة على خلقه ، فليس التفاتا أيضا ، وإنما هو انتقال من حكاية إلى إنشاء خطاب ، وعلى هذا التأويل ينبغي للقارئ أن يقف وقيفة عند قوله وَلا يَنْسى ليستقر بانتهاء الحكاية. ويحتمل وجها آخر : وهو أن موسى وصف الله تعالى بهذه الصفات على لفظ الغيبة فقال الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيها سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْ نَباتٍ شَتَّى فلما حكاه الله تعالى عند أسند الضمير إلى ذاته ، لأن الحاكي هو المحكي في كلام موسى ، فمرجع الضميرين واحد ، وهذا الوجه وجه حسن دقيق الحاشية ، وهذا أقرب الوجوه إلى الالتفات ، لكن الزمخشري لم يعنه ، والله أعلم.

ولا يدخل تحت قدرة أحد أَزْواجاً أصنافا ، سميت بذلك لأنها مزدوجة ومقترنة بعضها مع بعض شَتَّى صفة للأزواج ، جمع شتيت ، كمريض ومرضى. ويجوز أن يكون صفة للنبات ، والنبات مصدر سمى به النابت كما سمى بالنبت ، فاستوى فيه الواحد والجمع ، يعنى أنها شتى مختلفة النفع والطعم واللون والرائحة والشكل ، بعضها يصلح للناس وبعضها للبهائم. قالوا : من نعمته عز وعلا أن أرزاق العباد إنما تحصل بعمل الأنعام ، وقد جعل الله علفها مما يفضل عن حاجتهم ولا يقدرون على أكله ، أى قائلين كُلُوا وَارْعَوْا حال من الضمير في فَأَخْرَجْنا المعنى : أخرجنا أصناف النبات آذنين في الانتفاع بها ، مبيحين أن تأكلوا بعضها وتعلفوا بعضها.

[سورة طه (20) : آية 55]

مِنْها خَلَقْناكُمْ وَفِيها نُعِيدُكُمْ وَمِنْها نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْرى (55)

أراد بخلقهم من الأرض خلق أصلهم هو آدم عليه السلام منها. وقيل إن الملك لينطلق فيأخذ من تربة المكان الذي يدفن فيه فيبدّدها على النطفة فيخلق من التراب والنطفة معا. وأراد بإخراجهم منها أنه يؤلف أجزاءهم المتفرقة المختلطة بالتراب ، ويردّهم كما كانوا أحياء ، ويخرجهم إلى المحشر يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ سِراعاً عدّد الله عليهم ما علق بالأرض من مرافقهم ، حيث جعلها لهم فراشا ومهادا يتقلبون عليها ، وسوّى لهم فيها مسالك يتردّدون فيها كيف شاءوا ، وأنبت فيها أصناف النبات التي منها أقواتهم وعلوفات بهائمهم ، وهي أصلهم الذي منه تفرعوا ، وأمهم التي منها ولدوا ، ثم هي كفاتهم إذا ماتوا «1». ومن ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «تمسحوا بالأرض فإنها بكم برّة» «2».

[سورة طه (20) : آية 56]

وَلَقَدْ أَرَيْناهُ آياتِنا كُلَّها فَكَذَّبَ وَأَبى (56)

أَرَيْناهُ بصرناه أو عرفناه صحتها ويقناه بها. وإنما كذب لظلمه ، كقوله تعالى وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا وقوله تعالى لَقَدْ عَلِمْتَ ما أَنْزَلَ هؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ بَصائِرَ وفي قوله تعالى آياتِنا كُلَّها وجهان ، أحدهما : أن يحذى بهذا التعريف الإضافى حذو التعريف باللام لو قيل الآيات كلها ، أعنى أنها كانت لا تعطى إلا تعريف العهد ، والإشارة إلى الآيات المعلومة التي هي تسع الآيات المختصة بموسى عليه السلام : العصا ، واليد ، وفلق البحر ، والحجر ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، ونتق الجبل. والثاني : أن يكون موسى قد أراه آياته وعدّد عليه ما أوتيه غيره من الأنبياء من آياتهم ومعجزاتهم ، وهو نبيّ صادق لا فرق بين ما يخبر عنه وبين ما يشاهد به ، فكذبها جميعا وَأَبى أن يقبل شيئا منها. وقيل :

(1). قوله «ثم هي كفاتهم إذا ماتوا» أى موضعهم الذي يضمون فيه. أفاده الصحاح. (ع)
(2). أخرجه ابن أبى شيبة عن علية عن عوف عن ابن عثمان به مرسلا. وأخرجه الطبرانى في الصغير من رواية الفرياني عن الثوري عن عوف. وصله بذكر سليمان قال ابن طاهر : المرسل أولى بالصواب.

فكذب الآيات وأبى قبول الحق.

[سورة طه (20) : آية 57]

قالَ أَجِئْتَنا لِتُخْرِجَنا مِنْ أَرْضِنا بِسِحْرِكَ يا مُوسى (57)

يلوح من جيب قوله أَجِئْتَنا لِتُخْرِجَنا مِنْ أَرْضِنا بِسِحْرِكَ أن فرائصه كانت ترعد خوفا مما جاء به موسى عليه السلام ، لعلمه وإيقانه أنه على الحق ، وأن المحق لو أراد قود الجبال لانقادت وأن مثله لا يخذل ولا يقل ناصره، وأنه غالبه على ملكه لا محالة. وقوله بِسِحْرِكَ تعلل وتحير وإلا فكيف يخفى عليه أن ساحرا لا يقدر أن يخرج ملكا مثله من أرضه ويغلبه على ملكه بالسحر.

[سورة طه (20) : الآيات 58 إلى 60]

فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ مَكاناً سُوىً (58) قالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (59) فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتى (60)

لا يخلو الموعد في قوله فَاجْعَلْ بَيْنَنا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً من أن يجعل زمانا أو مكانا أو مصدرا. فإن جعلته زمانا نظرا في أن قوله تعالى مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ مطابق له ، لزمك شيئان أن تجعل الزمان مخلفا ، وأن يعضل عليك ناصب مكانا : وإن جعلته مكانا لقوله تعالى مَكاناً سُوىً لزمك «1». أيضا أن توقع الإخلاف على المكان ، وأن لا يطابق قوله مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وقراءة الحسن غير مطابقة له مكانا وزمانا جميعا ،

(1). قال محمود : «إن جعلت موعدا الأول اسم مكان ليطابق قوله مكانا سوى لزمك ... الخ» قال أحمد : وفي إعماله وقد وصف بقوله لا نُخْلِفُهُ بعد ، إلا أن تجعل الجملة معترضة ، فهو مع ذلك لا يخلو من بعد ، من حيث أن وقوع الجملة عقيب النكرة بحيزها ، الشأن أن تكون صفة ، والله أعلم. ويحتمل عندي وجه آخر أخصر وأسلم ، وهو أن يجعل موعدا اسم مكان فيطابق مكانا ، ويكون بدلا منه ، ويطابق الجواب بالزمان بالتقرير الذي ذكره ، ويبقى عود الضمير ، فنقول : هو والحالة هذه عائد على المصدر المفهوم من اسم المكان ، لأن حروفه فيه. والموعد إذا كان اسم مكان فحاصله مكان وعد ، كما إذا كان اسم زمان فحاصله زمان وعد. وإذا جاز رجوع الضمير إلى ما دلت قوة الكلام عليه وإن لم يكن منطوقا به بوجه ، فرجوعه إلى ما هو كالمنطوق به أولى. ومما يحقق ذلك أنهم قالوا : من صدق كان خيرا له. يعنون : كان الصدق خيرا له ، فأعادوا الضمير على المصدر وقدروه منطوقا به للنطق بالفعل الذي هو مشتق منه. وإذا أوضح ذلك فاسم المكان مشتق من المصدر اشتقاق الفعل منه ، فالنطق به كاف في إعادة الضمير على مصدره والله أعلم. وعلى هذين التأويلين يكون جواب موسى عليه السلام من جوامع كلم الأنبياء لأنه سئل أن يواعدهم مكانا فعلم أنهم لا بد أن يسألوه مواعدة على زمان أيضا ، فأسلف الجواب عنه وضمنها جوابا مفردا ، ولقائل أن يقول : إن كان المسئول منه المواعدة على المكان فلم أجاب بالزمان الذي لم يسئل عنه صريحا ، وجعل جواب ما سئل عنه مضمنا. وجوابه - والله أعلم - أن يقال اكتفى بقرينة السؤال عن صريح الجواب. وأما ما لم يسئل عنه فلو ضمنه لم يفهم قصده إليه ، إذ لا قرينة تدل عليه والله أعلم.

لأنه قرأ يَوْمُ الزِّينَةِ بالنصب ، فبقى أن يجعل مصدرا بمعنى الوعد ، ويقدر مضاف محذوف ، أى : مكان موعد، ويجعل الضمير في نُخْلِفُهُ للموعد ومَكاناً بدل من المكان المحذوف. فإن قلت. فكيف طابقه قوله مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ ولا بد من أن تجعله زمانا ، والسؤال واقع عن المكان لا عن الزمان؟ قلت : هو مطابق معنى وإن لم يطابق لفظا ، لأنهم لا بدّ لهم من أن يجتمعوا يوم الزينة في مكان بعينه ، مشتهر باجتماعهم فيه في ذلك اليوم ، فبذكر الزمان علم المكان. وأما قراءة الحسن فالموعد فيها مصدر لا غير. والمعنى : إنجاز وعدكم يوم الزينة. وطباق هذا أيضا من طريق المعنى. ويجوز أن لا يقدر مضاف محذوف ، ويكون المعنى : اجعل بيننا وبينك وعدا لا نخلفه. فإن قلت : فبم ينتصب مكانا؟ قلت : بالمصدر. أو بفعل يدل عليه المصدر. فإن قلت : فكيف يطابقه الجواب؟

قلت : أما على قراءة الحسن فظاهر. وأما على قراءة العامة فعلى تقدير : وعدكم وعد يوم الزينة.

ويجوز على قراءة الحسن أن يكون مَوْعِدُكُمْ مبتدأ ، بمعنى الوقت. وضُحًى خبره ، على نية التعريف فيه لأنه ضحى ذلك اليوم بعينه. وقيل في يوم الزينة : يوم عاشوراء ، ويوم النيروز «1» ، ويوم عيد كان لهم في كل عام ، ويوم كانوا يتخذون فيه سوقا ويتزينون ذلك اليوم. قرئ نُخْلِفُهُ بالرفع على الوصف للموعد. وبالجزم على جواب الأمر. وقرئ سُوىً وسوى ، بالكسر والضم ، ومنونا وغير منون. ومعناه : منصفا بيننا «2» وبينك عن مجاهد ، وهو من الاستواء لأنّ المسافة من الوسط إلى الطرفين مستوية لا تفاوت فيها. ومن لم ينون فوجهه أن يجرى الوصل مجرى الوقف. قرئ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ بالتاء والياء. يريد : وأن تحشر يا فرعون. وأن يحشر

[سورة طه (20) : آية 61]

قالَ لَهُمْ مُوسى وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذابٍ وَقَدْ خابَ مَنِ افْتَرى (61)

(1). قوله «و يوم النيروذ» لعله النيروز بالزاي كعبارة غيره. (ع)
(2). قوله «منصفا بيننا» أى وسطا ، كما في الصحاح. (ع)
(3). قوله «و كبت الكافر» أى إذلاله. أفاده الصحاح. (ع)

لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً أى لا تدعوا آياته ومعجزاته سحرا. قرئ فَيُسْحِتَكُمْ والسحت لغة أهل الحجاز. والإسحات: لغة أهل نجد وبنى تميم. ومنه قول الفرزدق :

...... إلّا مسحتا أو مجلّف

في بيت لا تزال الركب تصطك في تسوية إعرابه «1» :

[سورة طه (20) : الآيات 62 إلى 64]

فَتَنازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوى (62) قالُوا إِنْ هذانِ لَساحِرانِ يُرِيدانِ أَنْ يُخْرِجاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِما وَيَذْهَبا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلى (63) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلى (64)

عن ابن عباس : إن نجواهم : إن غلبنا موسى اتبعناه. وعن قتادة : إن كان ساحرا فسنغلبه وإن كان من السماء فله أمر. وعن وهب لما قال وَيْلَكُمْ ... الآية قالوا : ما هذا بقول ساحر.

والظاهر أنهم تشاوروا في السر وتجاذبوا أهداب القول ، ثم قالوا : إن هذان لساحران. فكانت نجواهم في تلفيق هذا الكلام وتزويره ، خوفا من غلبتهما. وتثبيطا للناس عن اتباعهما. قرأ أبو عمرو إِنْ هذانِ لَساحِرانِ على الجهة الظاهرة المكشوفة. وابن كثير وحفص : إن هذان لساحران ، على قولك : إن زيد لمنطلق. واللام هي الفارقة بين إن النافية والمخففة من الثقيلة.

وقرأ أبىّ : إن ذان إلا ساحران. وقرأ ابن مسعود : أن هذان ساحران : بفتح أن وبغير لام ، بدل من النجوى. وقيل في القراءة المشهورة إِنْ هذانِ لَساحِرانِ هي لغة بلحرث بن كعب ، جعلوا الاسم المثنى نحو الأسماء التي آخرها ألف ، كعصا وسعدى ، فلم يقلبوها ياء في الجر والنصب. وقال بعضهم : إِنْ بمعنى نعم. ولَساحِرانِ خبر مبتدأ محذوف ، واللام داخلة على الجملة تقديره : لهما ساحران. وقد أعجب به أبو إسحاق. سموا مذهبهم الطريقة الْمُثْلى والسنة الفضلى ، وكل حزب بما لديهم فرحون. وقيل : أرادوا أهل طريقتهم المثلى ، وهم بنو إسرائيل ، لقول موسى فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ وقيل «الطريقة» اسم لوجوه الناس وأشرافهم الذين هم قدوة لغيرهم. يقال : هم طريقة قومهم. ويقال للواحد أيضا : هو طريقة قومه فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ يعضده قوله فَجَمَعَ كَيْدَهُ وقرئ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ أى أزمعوه واجعلوه مجمعا عليه ، حتى لا تختلفوا ولا يخلف عنه واحد منكم ، كالمسألة المجمع عليها. أمروا بأن يأتوا صفا لأنه أهيب في صدور الرائين.

(1). قوله «في بيت لا تزال الركب تصطك في تسوية إعرابه» هو قوله :
وعض زمان يا ابن مروان لم يدع من المال إلا مسحتا أو مجلف
والمسحت : المهلك. والمجلف : الذي أخذ من جوانبه ، كما في الصحاح. (ع)

وروى أنهم كانوا سبعين ألفا مع كل واحد منهم حبل وعصا وقد أقبلوا إقبالة واحدة. وعن أبى عبيدة أنه فسر الصف بالمصلى ، لأن الناس يجتمعون فيه لعيدهم وصلاتهم مصطفين. ووجه صحته أن يقع علما لمصلى بعينه، فأمروا بأن يأتوه. أو يراد.

ائتوا مصلى من المصليات وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلى اعتراض. يعنى : وقد فاز من غلب.

[سورة طه (20) : الآيات 65 إلى 66]

قالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقى (65) قالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذا حِبالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى (66)

أَنْ مع ما بعده إما منصوب بفعل مضمر. أو مرفوع بأنه خبر مبتدإ محذوف. معناه : اختر أحد الأمرين ، أو الأمر إلقاؤك أو إلقاؤنا. وهذا التخيير منهم استعمال أدب حسن معه ، وتواضع له وخفض جناح ، وتنبيه على إعطائهم النصفة من أنفسهم «1» ، وكأن الله عز وعلا ألهمهم ذلك ، وعلم موسى صلوات الله عليه اختيار إلقائهم أو لا ، مع ما فيه من مقابلة أدب بأدب ، حتى يبرزوا ما معهم من مكايد السحر. ويستنفدوا أقصى طوقهم ومجهودهم ، فإذا فعلوا : أظهر الله سلطانه وقذف بالحق على الباطل فدمغه ، وسلط المعجزة على السحر فمحقته ، وكانت آية نيرة للناظرين ، وعبرة بينة للمعتبرين. يقال في «إذا» هذه : إذا المفاجأة. والتحقيق فيها أنها إذا الكائنة بمعنى الوقت ، الطالبة ناصبا لها وجملة تضاف إليها ، خصت في بعض المواضع بأن يكون ناصبها فعلا مخصوصا وهو فعل المفاجأة الجملة ابتدائية لا غير ، فتقدير قوله تعالى فَإِذا حِبالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ ففاجأ موسى وقت تخييل سعى حبالهم وعصيهم. وهذا تمثيل. والمعنى : على مفاجأته حبالهم وعصيهم مخيلة إليه السعى. وقرئ عِصِيُّهُمْ بالضم وهو الأصل ، والكسر إتباع ، ونحوه : دلىّ ودلىّ ، وقسىّ وقسىّ. وقرئ «تخيل» على إسناده إلى ضمير الحبال والعصى وإبدال قوله أَنَّها تَسْعى من الضمير بدل الاشتمال ، كقولك : أعجبنى زيد كرمه ، وتخيل على كون الحبال والعصىّ مخيلة سعيها. وتخيل. بمعنى تتخيل. وطريقه طريق تخيل. ونخيل : على أنّ الله تعالى هو المخيل للمحنة والابتلاء. يروى أنهم لطخوها بالزئبق ، فلما ضربت عليها الشمس اضطربت واهتزت ، فخيلت ذلك.

(1). قال محمود : «لقد ألهمهم الله حسن الأدب مع موسى عليه السلام في تخييره وإعطاء النصفة من أنفسهم» قال أحمد : وقبل ذلك تأدبوا معه بقولهم فَاجْعَلْ بَيْنَنا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لا نُخْلِفُهُ ففوضوا ضرب الموعد إليه ، وكما ألهم الله عز وجل موسى هاهنا أن يجعلهم مبتدئين بما معهم ليكون إلقاؤه العصا بعد قذفا بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، كذلك ألهمه من الأول أن يجعل موعدهم يوم زينتهم وعيدهم ، ليكون الحق أبلج على رؤس الأشهاد ، فيكون أفصح لكيدهم وأهتك لستر حرمهم ، والله أعلم

[سورة طه (20) : الآيات 76 إلى 69]

فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى (67) قُلْنا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى (68) وَأَلْقِ ما فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ ما صَنَعُوا إِنَّما صَنَعُوا كَيْدُ ساحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى (69)

إيجاس الخوف : إضمار شيء منه ، وكذلك توجس الصوت : تسمع نبأة يسيرة «1» منه ، وكان ذلك لطبع الجبلة البشرية ، وأنه لا يكاد يمكن الخلو من مثله. وقيل : خاف أن يخالج الناس شك فلا يتبعوه إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى فيه تقرير لغلبته وقهره ، وتوكيد بالاستئناف وبكلمة التشديد وبتكرير الضمير وبلام التعريف وبلفظ العلوّ وهو الغلبة الظاهرة وبالتفضيل. وقوله ما فِي يَمِينِكَ ولم يقل عصاك «2» : جائز أن يكون تصغيرا لها ، أى : لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم ، وألق العويد الفرد الصغير الجرم الذي في يمينك ، فإنه بقدرة الله يتلقفها على وحدته وكثرتها ، وصغره وعظمها. وجائز أن يكون تعظيما لها «3» أى : لا تحتفل بهذه الأجرام الكبيرة الكثيرة ، فإن في يمينك شيئا أعظم منها كلها ، وهذه على كثرتها أقل شيء وأنزره عنده ، فألقه يتلقفها بإذن الله ويمحقها. وقرئ تَلْقَفْ بالرفع على الاستئناف. أو على الحال ، أى : ألقها متلقفة. وقرئ : تلقف ، بالتخفيف «4».

(1). قوله «نبأة يسيرة» في الصحاح «النبأة» : الصوت الخفي. (ع)
(2). قال محمود : «و قال ما في يمينك ولم يقل عصاك ... الخ» قال أحمد : وإنما المقصود بتحقيرها في جنب القدرة تحقير كيد السحرة بطريق الأولى لأنها إذا كانت أعظم منه وهي حقيرة في جانب قدرة الله تعالى ، فما الظن بكيدهم وقد تلقفته هذه الحقيرة الضئيلة؟ ولأصحاب البلاغة طريق في علو المدح بتعظيم جيش عدو الممدوح ، ليلزم من ذلك تعظيم جيش الممدوح وقد قهره واستولى عليه ، فصغر الله أمر العصا ليلزم منه تصغير كيد السحرة الداحض بها في طرفة عين.
(3). عاد كلامه. قال محمود : «و يجوز أن يكون تعظيما لأمرها إذ فيه تثبيت لقلب موسى على النصر» قال أحمد :
وهاهنا لطيفة : وهو أنه تلقى من هذا النظم أو لا قصد التحقير ، وثانيا قصد التعظيم ، فلا بد من نكتة تناسب الأمرين وتلك - والله أعلم - هي إرادة المذكور مبهما ، لأن ما في يمينك أبهم من عصاك. وللعرب مذهب في التنكير والإبهام والإجمال ، تسلكه مرة لتحقير شأن ما أبهمته وأنه عند الناطق به أهون من أن يخصه ويوضحه ، ومرة لتعظيم شأنه وليؤذن أنه من عناية المتكلم والسامع بمكان يعنى فيه الرمز والاشارة ، فهذا هو الوجه في إسعاده بهما جميعا.

وعندي في الآية وجه سوى قصد لتعظيم والتحقير والله أعلم ، وهو أن موسى عليه السلام أول ما علم أن العصا آية من الله تعالى عند ما سأله عنها بقوله تعالى وَما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسى ثم أظهر له تعالى آيتها ، فلما دخل وقت الحاجة إلى ظهور الآية منها قال تعالى وألق ما في يمينك ليتيقظ بهذه الصيغة للوقت الذي قال الله تعالى له وَما تِلْكَ بِيَمِينِكَ وقد أظهر له آيتها ، فيكون ذلك تنبيها له وتأنيسا حيث خوطب بما عهد أن يخاطب به وقت ظهور آيتها ، وذلك مقام يناسب التأنيس والتثبيت. ألا ترى إلى قوله تعالى فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى ، والله سبحانه وتعالى أعلم.
(4). قوله «و قرئ تلقف بالتخفيف» عبارة النسفي : تلقف بسكون اللام والفاء وتخفيف القاف : حفص.
وتلقف : ابن ذكوان. الباقون تلقف ، فليحرر. (ع)

صَنَعُوا هاهنا بمعنى زوّروا وافتعلوا ، كقوله تعالى تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ قرئ كَيْدُ ساحِرٍ بالرفع والنصب. فمن رفع فعلى أنّ ما موصولة. ومن نصب فعلى أنها كافة. وقرئ : كيد سحر ، بمعنى : ذى سحر : أو ذوى سحر. أو هم لتوغلهم في سحرهم كأنهم السحر بعينه وبذاته. أو بين الكيد «1» ، لأنه يكون سحرا وغير سحر ، كما تبين المائة بدرهم. ونحوه : علم فقه ، وعلم نحو. فإن قلت : لم وحد ساحر ولم يجمع؟ قلت : لأنّ القصد في هذا الكلام إلى معنى الجنسية ، لا إلى معنى العدد ، فلو جمع ، لخيل أنّ المقصود هو العدد.

ألا ترى إلى قوله وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ أى هذا الجنس. فإن قلت : فلم نكر أوّلا وعرف ثانيا؟

قلت : إنما نكر من أجل تنكير المضاف ، لا من أجل تنكيره في نفسه ، كقول العجاج : في سعى دنيا طالما قد مدّت «2»

وفي حديث عمر رضى الله عنه «لا في أمر دنيا ولا في أمر آخرة»»

المراد تنكير الأمر ، كأنه قيل : إن ما صنعوا كيد سحري. وفي سعى دنيوى. وأمر دنيوى وآخري حَيْثُ أَتى كقولهم : حيث سير ، وأية سلك ، وأينما كان.

[سورة طه (20) : آية 70]

فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هارُونَ وَمُوسى (70)

سبحان الله ما أعجب أمرهم. قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود ثم ألقوا رؤسهم بعد ساعة للشكر والسجود، فما أعظم الفرق بين الإلقاءين! «4» وروى أنهم لم يرفعوا رؤسهم حتى رأوا الجنة والنار ورأوا ثواب أهلها. وعن عكرمة : لما خروا سجدا أراهم الله في سجودهم منازلهم التي يصيرون إليها في الجنة.

(1). قوله «أو بين الكيد» لعله بعده سقطا تقديره «بالسحر». (ع) [.....]
(2) الحمد لله الذي استقلت باذنه السماء واطمأنت
باذنه الأرض وما تعنت أوحى لها القرار فاستقرت
وشدها بالراسيات الثبت والجاعل الغيث غياث الأمت
والجامع الناس ليوم البعث بعد الممات وهو محيى الموت
يوم ترى النفوس ما أعدت من نزل إذا الأمور غبت
في سعى دنيا طالما تعنت
استقلت : ارتفعت. واطمأنت : انخفضت. وفي الشعر التضمين. والتعنت : الاتعاب أو التأخر والتثاقل ، من العنا وهو التعب. وأوحى لها : ألهمها. واثبت : جمع ثابت ، والوقف على هاء التأنيث ، كالأمت بالتاء قليل.
والموت : جمع مائت. والنزل : ما يعد للضيف ، استعارة لما يقدمه الإنسان من الأعمال. وغبت : بلغت غبها وغايتها. وفي سعى : متعلق به ، أو بتعنت بعده ، أى : تعبت أو أتعبت. وضمن على المعنى الأول للنفوس ، وعلى الثاني للدنيا ، ونكرها لتنكير السعى دلالة على التقليل ، أى : في سعي دنيوى قليل.
(3). ذكره صاحب النهاية بغير إسناد. وفي الباب عن ابن مسعود. وسيأتى في أَلَمْ نَشْرَحْ أتم من هذا.
(4). قال محمود : «سبحان من فرق بين الالقاءين إلقائهم حبالهم وعصيهم ... الخ» قال أحمد : وفي تكرير لفظ الإلقاء والعدول عن مثل : فسجد السحرة ، إيقاظ السامع لألطاف الله تعالى في نقله عباده من غاية الكفر والعناد إلى نهاية الايمان والسداد ، وهذا الإيقاظ لا يحصل على الوجه إلى هذا القصد إلا بتكرير لفظ واحد على معنيين متناقضين ، وهو يناسب ما قدمته آنفا في إيجاز الخطاب في قوله وَأَلْقِ ما فِي يَمِينِكَ ، وَما تِلْكَ بِيَمِينِكَ فتأمله فان الحق حسن متناسب ، والله الموفق.

[سورة طه (20) : آية 71]

قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنا أَشَدُّ عَذاباً وَأَبْقى (71)

لَكَبِيرُكُمُ لعظيمكم ، يريد : أنه أسحرهم وأعلاهم درجة في صناعتهم. أو لمعلمكم ، من قول أهل مكة للمعلم : أمرنى كبيرى ، وقال لي كبيرى : كذا يريدون معلمهم وأستاذهم في القرآن وفي كل شيء. قرئ فَلَأُقَطِّعَنَّ ولأصلبنّ. بالتخفيف. والقطع من خلاف : أن تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى ، لأنّ كل واحد من العضوين خالف الآخر ، بأن هذا يد وذاك رجل ، وهذا يمين وذاك شمال. و«من» لابتداء الغاية : لأن القطع مبتدأ وناشئ من مخالفة العضو العضو ، لا من وفاقه إياه. ومحل الجار والمجرور النصب على الحال ، أى : لأقطعنها مختلفات ، لأنها إذا خالف بعضها بعضا فقد اتصفت بالاختلاف. شبه تمكن المصلوب في الجذع بتمكن الشيء الموعى في وعائه ، فلذلك قيل فِي جُذُوعِ النَّخْلِ. أَيُّنا يريد نفسه لعنه الله وموسى صلوات الله عليه بدليل قوله آمَنْتُمْ لَهُ واللام مع الإيمان في كتاب الله لغير الله تعالى ، كقوله تعالى يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وفيه نفاجة «1» باقتداره وقهره ، وما ألفه وضرى به : من تعذيب الناس بأنواع العذاب. وتوضيع لموسى عليه السلام ، واستضعاف له مع الهزء به : لأن موسى لم يكن قط من التعذيب في شيء.

[سورة طه (20) : الآيات 72 إلى 76]

قالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلى ما جاءَنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَالَّذِي فَطَرَنا فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ إِنَّما تَقْضِي هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا وَما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقى (73) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيها وَلا يَحْيى (74) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحاتِ فَأُولئِكَ لَهُمُ الدَّرَجاتُ الْعُلى (75) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَذلِكَ جَزاءُ مَنْ تَزَكَّى (76)

(1). قوله «و فيه نفاجة» في الصحاح «رجل نفاج» إذا كان صاحب فخر وكبر. (ع)

وَالَّذِي فَطَرَنا عطف على ما جاءنا أو قسم. قرئ تَقْضِي هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا ووجهها أن الحياة في القراءة المشهورة منتصبة على الظرف ، فاتسع في الظرف بإجرائه مجرى المفعول به ، كقولك في «صمت يوم الجمعة» : «صيم يوم الجمعة» وروى أن السحرة - يعنى رؤسهم - كانوا اثنين وسبعين : الاثنان من القبط ، والسائر من بنى إسرائيل ، وكان فرعون أكرههم على تعلم السحر. وروى أنهم قالوا لفرعون : أرنا موسى نائما ففعل ، فوجدوه تحرسه عصاه ، فقالوا : ما هذا بسحر الساحر ، لأن الساحر إذا نام بطل سحره ، فأبى إلا أن يعارضوه تَزَكَّى تطهر من أدناس الذنوب. وعن ابن عباس : قال لا إله إلا الله. قيل في هذه الآيات الثلاث : هي حكاية قولهم. وقيل : خبر من الله ، لا على وجه الحكاية.

[سورة طه (20) : الآيات 77 إلى 79]

وَلَقَدْ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لا تَخافُ دَرَكاً وَلا تَخْشى (77) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ (78) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَما هَدى (79)

فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فاجعل لهم ، من قولهم : ضرب له في ماله سهما. وضرب اللبن : عمله.

اليبس : مصدر وصف به. يقال : يبس يبسا ويبسا «1». ونحوهما : العدم والعدم. ومن ثم وصف به المؤنث فقيل : شاتنا يبس ، وناقتنا يبس : إذا جف لبنها. وقرئ : يبسا ، ويابسا.

ولا يخلو اليبس من أن يكون مخففا عن اليبس. أو صفة على فعل. أو جمع يابس ، كصاحب وصحب ، ووصف به الواحد تأكيدا ، كقوله : ...... ومعى جياعا «2»

(1). قال محمود : «قرئ بسكون الباء وبفتحها ... الخ» قال أحمد : ووجه آخر وهو أن قدر كل جزء من أجزاء الطريق طريقا ، وقد كانت بهذه المثابة لأنها كانت اثنى عشر طريقا لكل سبط طريق ، والله أعلم.

(2) كأن قتود رحلي حين ضمت حوالب غرزا ومعى جياعا
على وحشية خذلت حلوج وكان لها طلا طفل فضاعا
فكرت تبتغيه فصادفته على دمه ومصرعه السباعا
للقطامى في مدح زفر بن الحرث الكلابي. والقتود : عيدان الرحل : جمع أقتاد : جمع قتد. والحالبان. عرقان يكتنفان السرة. والغرز : جمع غارز - بتقديم الراء - قليلات اللبن ، ضد الغزر بتقديم الزاى. والمعي : مجرى الطعام في البطن من الحوايا. وصفه بصورة الجمع - وهو جياعا - مبالغة. والمعنى : جائعا. وهذا كناية عن هزال الناقة من شدة السير. وفيه إيماء لفقره وفاقته. و«على وحشية» خبر كان. والوحشية : الظبية. وخذلت : صفتها ، أى : تركها سرب الظباء. وخلوج : صفة أخرى. وخلج واختلج : اضطرب وذهب. وخلجه واختلجه : انتزعه واجتذبه. والخلوج : التي اختلج ولدها من الظباء أو الإبل. أو التي اختلج قلها لعدم رؤيته. والطلاء : ولد

محل طرحه على الأرض. شبه النافة بها في تلك الحال لسرعتها ويقظتها.

جعله لفرط جوعه كجماعة جياع لا تَخافُ حال من الضمير في فَاضْرِبْ وقرئ : لا تخف ، على الجواب. وقرأ أبو حيوة دَرَكاً بالسكون. والدرك والدرك : اسمان من الإدراك ، أى : لا يدركك فرعون وجنوده ولا يلحقونك. في وَلا تَخْشى إذا قرئ : لا تخف ، ثلاثة أوجه : أن يستأنف ، كأنه قيل وأنت لا تخشى ، أى : ومن شأنك أنك آمن لا تخشى ، وأن لا تكون الألف المنقلبة عن الياء التي هي لام الفعل ولكن زائدة للإطلاق من أجل الفاصلة ، كقوله فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ، وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا وأن يكون مثله قوله : كأن لم ترى قبلي أسيرا بمانيا «1»

ما غَشِيَهُمْ من باب الاختصار ، ومن جوامع الكلم التي تستقل مع قلتها بالمعاني الكثيرة ، أى : غشيهم ما لا يعلم كنهه إلا الله. وقرئ : فغشاهم من اليم ما غشاهم. والتغشية : التغطية.

وفاعل غشاهم : إما الله سبحانه. أو ما غشاهم. أو فرعون ، لأنه الذي ورّط جنوده وتسبب لهلاكهم. وقوله وَما هَدى تهكم به «2» في قوله وَما أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشادِ.

[سورة طه (20) : الآيات 80 إلى 81]
يا بَنِي إِسْرائِيلَ قَدْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَواعَدْناكُمْ جانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوى (80) كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوى (81)

(1) وتضحك منى شيخة عبشمية كأن لم ترى قبلي أسيرا يمانيا
وظل نساء الحي حولي ركدا يراودن منى ما تريد نسائيا
لعبد يغوث بن وقاص الحارثي ، أسر يوم الكلاب في بنى تميم ، فقال قصيدة يذكر فيها حاله منها ذلك. والشيخة : العجوز. والعبشمية : المنسوبة لعبد شمس. وهو باب من النحت. وأثبت الألف في «ترى» مع أنه مجزوم لضرورة الوزن ، أو للاتساع. وقيل إنها عين الفعل. وأصله ترای حذفت لامه للجزم. ونقلت حركة الهمزة للراء ، وأبدلت الفاء. وحكى إعمال «لم» للنصب. وحكى أيضا إهمالها. وقياس النسبة إلى «يمن» : «يمنى» لكنهم حذفوا إحدى ياءى النسب ه وعوضوا عنها الألف ، وكان الذي يقوده صبيا ، فسألته : من أنت؟ فقال : سيد القوم ، فضحكت منه. والركد - كركع - : جمع راكدة ، أى مقيمة لا تذهب من عنده. والمراودة : مفاعلة من راد يرود إذا تعرف حال المكان متطلبا للخصب ، وهو قريب من معنى أراد يريد ، أى : يتطلبن منى بلطف واختبار :
هل أرضى أولا؟ الشيء الذي تريده نسائي منى ، وهو الجماع.
(2). قال محمود : «إنما قيل وما هدى تهكما به» قال أحمد : فان قلت : التهكم أن يأتى بعبارة والمقصود عكس مقتضاها ، كقولهم : إنك لأنت الحليم الرشيد ، وغرضهم وصفه بضد هذين الوصفين. وأما قوله تعالى وَما هَدى فمضمونه هو الواقع ، فهو حينئذ مجرد إخبار عن عدم هدايته لقومه. قلت : هو كذلك ، ولكن العرف مثل ما هدى زيد عمرا ثبوت كون زيد عالما بطريق الهداية ، مهتديا في نفسه ، ولكنه لم يهد عمرا. وفرعون أضل الضالين في نفسه ، فكيف يتوهم أنه يهدى غيره. وتحقيق ذلك : أن قوله تعالى وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ كاف في الاخبار بعدم هدايته لهم مع مزيد إضلاله إياهم ، فان من لا يهدى قد لا يضل ، فيكون كفافا. وإذا تحقق غناء الأول في الاخبار ، تعين كون الثاني لمعنى سواه ، وهو التهكم. والله أعلم.

يا بَنِي إِسْرائِيلَ خطاب لهم بعد إنجائهم من البحر وإهلاك آل فرعون. وقيل : هو للذين كانوا منهم في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم منّ الله عليهم بما فعل بآبائهم والوجه هو الأوّل ، أى : قلنا يا بنى إسرائيل ، وحذف القول كثير في القرآن. وقرئ «أنجيتكم» إلى «رزقتكم» ، وعلى لفظ الوعد والمواعدة. وقرئ الْأَيْمَنَ بالجر على الجوار ، نحو «جحر ضب خرب». ذكرهم النعمة في نجاتهم وهلاك عدوهم ، وفيما واعد موسى صلوات الله عليه من المناجاة بجانب الطور ، وكتب التوراة في الألواح. وإنما عدى المواعدة إليهم لأنها لا بستهم واتصلت بهم حيث كانت لنبيهم ونقبائهم ، وإليهم رجعت منافعها التي قام بها دينهم وشرعهم ، وفيما أفاض عليهم من سائر نعمه وأرزاقه. طغيانهم في النعمة : أن يتعدّوا حدود الله فيها بأن يكّفروها ويشغلهم اللهو والتنعم عن القيام بشكرها ، وأن ينفقوها في المعاصي : وأن يزووا حقوق الفقراء فيها ، وأن يسرفوا في إنفاقها، وأن يبطروا فيها ويأشروا ويتكبروا. قرئ فَيَحِلَّ وعن عبد الله : لا يحلن «1» وَمَنْ يَحْلِلْ المكسور في معنى الوجوب ، من حل الدين يحل إذا وجب أداؤه. ومنه قوله تعالى حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ والمضموم في معنى النزول.

وغضب الله عقوباته «2» ولذلك وصف بالنزول هَوى هلك. وأصله أن يسقط من جبل فيهلك.

قالت : هوى من رأس مرقبة ففتّت تحتها كبده «3»

(1). قوله «قرئ فيحل وعن عبد الله ... الخ» يفيد أن القراءة المشهورة : فيحل. ومن يحلل - بالكسر.
ولتحرر قراءة «لا يحلن» هل هي بالكسر أو بالضم. (ع)
(2). قال محمود : «الغضب عقوبة الله تعالى لهم ... الخ» قال أحمد : لا يسعه أن يحمل الغضب إلا على العقوبة لأنه ينفى صفة الارادة في جملة ما ينفونه من صفات الكمال. وأما على قاعدة السنة فيجوز أن يكون المراد من الغضب إرادة العقوبة ، فيكون من أوصاف الذات. ويحتمل أن يراد به معاملتهم بما يعامل به من غضب عليه شاهدا ، فيكون من صفات الأفعال. وأما وصفه بالحلول فلا يتأتى حمله على الارادة ، ويكون بمنزلة قوله عليه الصلاة والسلام «تنزل ربنا إلى سماء الدنيا» على التأويل المعروف. أو عبر عن حلول أثر الارادة بحلولها تعبيرا عن الأثر بالمؤثر ، كما يقول الناظر إلى عجيب من مخلوقات الله تعالى : انظر إلى قدرة الله يعنى أثر القدرة لا نفسها ، والله أعلم.
(3) هوى ابني من على شرف يهول عقابه صعده
هوى من رأس مرقبة ففتت تحتها كبده
ألام على تبكيه وألمسه فلا أجده
وكيف يلام محزون كسير فاته ولده
لأعرابى» يقول : سقط ابني من فوق جبل عال. فعلى بمعنى فوق ، ولو قرئ : على ، بالضم - جمع علية - لجاز ، أى : سقط عن ذرى جبل عال ، فالشرف : مصدر مستعمل في الوصف مجاز ، يهول : أى يخيف ، عقابه : ارتفاعه.
وصعد - بالكسر - صعدا - بفتحتين وضمتين - صعودا : ارتفع ، والضمير للعقاب أو للشرف ، فهو من إضافة المصدر لفاعله. ويجوز أنه من اضافته لمفعوله ، أى : صعوده عليه. وخص العقاب ، لأنه أشد الطير صعودا ، لا سيما عقاب ذلك الجبل العارف به. وكرر «هوى» لإظهار التحزن ، أى : سقط من رأس ثنية عالية يرقب فيها الرقيب ، فمزقت كبده تحتها ، أى : بجانبها ، فكيف ببقية جسمه. ويروى : ففزت. بتشديد الزاى بمعنى فزعت.
وروى «ففرت» بتشديد الراء ، وأصله : فريت. وهذه لغة طيئ. يقولون : المرأة دعت في دعيت. والدار بنت في بنيت ، ثم قال : يلومني الناس على البكاء مع أننى ألمسه ، من بابى قتل وضرب ، أى : أريد لمسه فلا أجده ، وكيف يلام حزين هرم يئس من رجوع ولده إليه ، أو من أوان التوالد. وقيل : إن القائل أم القتيل ، لكن يروى بعد البيت الأول :
فلا أم فتبكيه ولا أخت فتفتقده
هوى عن صخرة صلد ففرت تحتها كبده
إلى آخره.

ويقولون : هوت أمّه. أو سقط سقوطا لا نهوض بعده.

[سورة طه (20) : آية 82]

وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدى (82)

الاهتداء : هو الاستقامة والثبات على الهدى المذكور وهو التوبة والايمان والعمل الصالح ، ونحوه قوله تعالى إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا وكلمة التراخي دلت على تباين المنزلتين دلالتها على تباين الوقتين في «جاءني زيد ثم عمرو» أعنى أنّ منزلة الاستقامة على الخير مباينة لمنزلة الخير نفسه ، لأنها أعلى منها وأفضل.

[سورة طه (20) : الآيات 83 إلى 84]

وَما أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يا مُوسى (83) قالَ هُمْ أُولاءِ عَلى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضى (84)

وَما أَعْجَلَكَ أى شيء عجل بك عنهم على سبيل الإنكار ، وكان قد مضى مع النقباء إلى الطور على الموعد المضروب. ثم تقدمهم شوقا إلى كلام ربه وتنجز ما وعد به ، بناء على اجتهاده وظنه أن ذلك أقرب إلى رضا الله تعالى ، وزل عنه أنه عز وجل ما وقت أفعاله إلا نظرا إلى دواعي الحكمة ، وعلما بالمصالح المتعلقة بكل وقت ، فالمراد بالقوم : النقباء. وليس لقول من جوز أن يراد جميع قومه وأن يكون قد فارقهم قبل الميعاد وجه صحيح ، يأباه قوله هُمْ أُولاءِ عَلى أَثَرِي وعن أبى عمرو ويعقوب : إثرى ، بالكسر وعن عيسى بن عمر : أثرى بالضم.

وعنه أيضا : أولى بالقصر. والإثر أفصح من الأثر. وأما الأثر فمسموع في فرند السيف «1» مدوّن في الأصول. يقال : إثر السيف وأثره ، وهو بمعنى الأثر غريب. فإن قلت : ما أَعْجَلَكَ.

(1). قوله «فرند السيف» أى ربده ووشيه ، كذا في الصحاح. (ع)

سؤال عن سبب العجلة «1» فكان الذي ينطبق عليه من الجواب أن يقال : طلب زيادة رضاك أو الشوق إلى كلامك وتنجز موعدك. وقوله هُمْ أُولاءِ عَلى أَثَرِي كما ترى غير منطبق عليه.

قلت : قد تضمن ما واجهه به رب العزة شيئين ، أحدهما : إنكار العجلة في نفسها. والثاني : السؤال عن سبب المستنكر والحامل عليه ، فكان أهمّ الأمرين إلى موسى بسط العذر وتمهيد العلة في نفس ما أنكر عليه ، فاعتل بأنه لم يوجد منى إلا تقدّم يسير ، مثله لا يعتدّ به في العادة ولا يحتفل به. وليس بيني وبين من سبقته إلا مسافة قريبة يتقدّم بمثلها الوفد رأسهم ومقدمهم ، ثم عقبه بجواب السؤال عن السبب فقال وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضى ولقائل أن يقول : حار لما ورد عليه من التهيب لعتاب اللّه ، فأذهله ذلك عن الجواب المنطبق المرتب على حدود الكلام.

[سورة طه (20) : آية 85]

قالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (85)

أراد بالقوم المفتونين : الذين خلفهم مع هرون وكانوا ستمائة ألف ما نجا من عبادة العجل منهم إلا اثنا عشر ألفا. فإن قلت : في القصة أنهم أقاموا بعد مفارقته عشرين ليلة ، وحسبوها أربعين مع أيامها ، وقالوا : قد أكملنا العدة، ثم كان أمر العجل بعد ذلك ، فكيف التوفيق بين هذا وبين قوله تعالى لموسى عند مقدمه فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ؟ قلت : قد أخبر اللّه تعالى عن الفتنة المترقبة ، بلفظ الموجودة الكائنة على عادته. أو افترص السامري غيبته فعزم على إضلالهم غب انطلاقه ، وأخذ في تدبير ذلك. فكان بدء الفتنة موجودا. قرئ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ أى وهو أشدّهم ضلالا : لأنه ضال مضل ، وهو منسوب إلى قبيلة من بنى إسرائيل يقال لها السامرة. وقيل : السامرة قوم من اليهود يخالفونهم في بعض دينهم : وقيل : كان من أهل باجرما.

وقيل : كان علجا من كرمان ، واسمه موسى بن ظفر ، وكان منافقا قد أظهر الإسلام ، وكان من قوم يعبدون البقر.

[سورة طه (20) : الآيات 86 إلى 88]

فَرَجَعَ مُوسى إِلى قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفاً قالَ يا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (86) قالُوا ما أَخْلَفْنا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنا وَلكِنَّا حُمِّلْنا أَوْزاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْناها فَكَذلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (87) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ فَقالُوا هذا إِلهُكُمْ وَإِلهُ مُوسى فَنَسِيَ (88)

(1). قال محمود : «إن قلت : سئل عن سبب العجلة ... الخ» قال أحمد : وإنما أراد اللّه تعالى بسؤاله عن سبب العجلة وهو أعلم : أن يعلم موسى أدب السفر ، وهو أنه ينبغي تأخير رئيس القوم عنهم في المسير ليكون نظره محيطا بطائفته ونافذا فيهم ومهيمنا عليهم. وهذا المعنى لا يحصل في تقدمه عليهم ، ألا ترى اللّه عز وجل كيف علم هذا الأدب لوطا فقال : وَاتَّبِعْ أَدْبارَهُمْ فأمره أن يكون أخيرهم. على أن موسى عليه السلام إنما أغفل هذا الأمر مبادرة إلى رضا اللّه عز وجل ، ومسارعة إلى الميعاد ، وذلك شأن الموعود بما يسره ، يود لو ركب إليه أجنحة الطير ، ولا أسر من مواعدة اللّه تعالى له صلى اللّه عليه وسلم.

الأسف : الشديد الغضب. ومنه قوله عليه السلام في موت الفجأة «رحمة المؤمن وأخذة أسف للكافر «1»» وقيل : الحزين. فإن قلت. متى رجع إلى قومه؟ قلت : بعد ما استوفى الأربعين : ذا القعدة وعشر ذى الحجة. وعدهم اللّه سبحانه أن يعطيهم التوراة التي فيها هدى ونور ، ولا وعد أحسن من ذاك وأجمل ، حكى لنا أنها كانت ألف سورة كل سورة ألف آية ، يحمل أسفارها سبعون جملا الْعَهْدُ الزمان ، يريد : مدّة مفارقته لهم. يقال : طال عهدى بك ، أى : طال زماني بسبب مفارقتك. وعدوه أن يقيموا على أمره وما تركهم عليه من الإيمان ، فأخلفوا موعده بعبادتهم العجل بِمَلْكِنا قرئ بالحركات الثلاث ، أى : ما أخلفنا موعدك بأن ملكنا أمرنا ، لو ملكنا أمرنا وخلينا وراءنا لما أخلفناه ، ولكنا غلبنا من جهة السامري وكيده. أى : حملنا أحمالا من حلىّ القبط التي استعرناها منهم. أو أرادوا بالأوزار : أنها آثام وتبعات ، لأنهم كانوا معهم في حكم المستأمنين في دار الحرب. وليس للمستأمن أن يأخذ مال الحربي ، على أن الغنائم لم تكن تحل حينئذ فَقَذَفْناها في نار السامري ، التي أوقدها في الحفرة وأمرنا أن نطرح فيها الحلىّ. وقرئ حملنا فَكَذلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ أراهم أنه يلقى حليا في يده مثل ما ألقوا. وإنما ألقى التربة التي أخذها من موطئ حيزوم فرس جبريل. أوحى إليه وليه الشيطان أنها إذا خالطت مواتا صار حيوانا فَأَخْرَجَ لَهُمْ السامري من الحفرة عجلا خلقه اللّه من الحلىّ التي سبكتها النار يخور كما تخور العجاجيل.

فإن قلت : كيف أثرت تلك التربة في إحياء الموات؟ قلت : أما يصحّ أن يؤثر اللّه سبحانه روح القدس بهذه الكرامة الخاصة كما آثره بغيرها من الكرامات ، وهي أن يباشر فرسه بحافره تربة إذا لاقت تلك التربة جمادا أنشأه اللّه إن شاء عند مباشرته حيوانا. ألا ترى كيف أنشأ المسيح من غير أب عند نفخه في الدرع.

(1). أخرجه أحمد من طريق عبد اللّه بن عبيد بن عمير عن عائشة «سألت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن موت الفجأة - فذكره وله طريق أخرى عند عبد الرازق مرفوعة. وفيها يحيى بن العلاء الرازي وهو ضعيف. ورواه هو وابن أبى شيبة والطبراني من حديثهما موقوفا. وعن ابن مسعود أيضا موقوفا ، وفي الباب عن أنس في الجنائز لابن شاهين وعن عبيد بن خالد عند أبى داود بلفظ «موت الفجأة أخذة أسف». [.....]

فإن قلت : فلم خلق اللّه العجل من الحلىّ حتى صار فتنة لبنى إسرائيل «1» وضلالا؟ قلت : ليس بأوّل محنة محن اللّه بها عباده ليثبت اللّه الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل اللّه الظالمين. ومن عجب من خلق العجل ، فليكن من خلق إبليس أعجب. والمراد بقوله فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ هو خلق العجل للامتحان، أى : امتحناهم بخلق العجل وحملهم السامري على الضلال ، وأوقعهم فيه حين قال لهم هذا إِلهُكُمْ وَإِلهُ مُوسى فَنَسِيَ أى : فنسي موسى أن يطلبه هاهنا ، وذهب يطلبه عند الطور. أو فنسي السامري : أى ترك ما كان عليه من الإيمان الظاهر.

[سورة طه (20) : الآيات 89 إلى 91]

أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعاً (89) وَلَقَدْ قالَ لَهُمْ هارُونُ مِنْ قَبْلُ يا قَوْمِ إِنَّما فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (90) قالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنا مُوسى (91)

يَرْجِعُ من رفعه فعلى أنّ أن مخففة من الثقيلة. ومن نصب فعلى أنها الناصبة للأفعال مِنْ قَبْلُ من قبل أن يقول لهم السامري ما قال ، كأنهم أوّل ما وقعت عليه أبصارهم حين طلع من الحفرة افتتنوا به واستحسنوه ، فقبل أن ينطق السامري بادرهم هرون عليه السلام بقوله إِنَّما فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمنُ.

[سورة طه (20) : الآيات 92 إلى 93]

قالَ يا هارُونُ ما مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (92) أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (93)

لا مزيدة. والمعنى ما منعك أن تتبعني في الغضب للّه وشدة الزجر عن الكفر والمعاصي؟

وهلا قاتلت من كفر بمن آمن؟ ومالك لم تباشر الأمر كما كنت أبا شره أنا لو كنت شاهدا؟

أو مالك لم تلحقني.

[سورة طه (20) : آية 94]

قالَ يَا بْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (94)

(1). قال محمود : «إن قلت لم خلق اللّه العجل فتنة لهم» قال أحمد : هذا السؤال وجوابه تقدما له في أول سورة الأعراف. وقد أوضحنا أن اللّه تعالى إنما تعبدنا بالبحث عن علل أحكامه لا علل أفعاله. وجواب هذا السؤال في قوله تعالى لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ فهذا الامر جائز. وقد أخبر اللّه تعالى بوقوعه فلا نبتغي وراء ذلك سبيلا ، لكن الزمخشري تقتضي قاعدته في وجوب رعاية المصالح على اللّه تعالى وتحتم هداية الخلق عليه : أن يؤول ذلك ويحرفه ، فذرهم وما يفترون.

قرئ لِحْيَتِي بفتح اللام «1» وهي لغة أهل الحجاز ، كان موسى صلوات اللّه عليه رجلا حديدا مجبولا على الحدة والخشونة والتصلب في كل شيء ، شديد الغضب للّه ولدينه ، فلم يتمالك حين رأى قومه يعبدون عجلا من دون اللّه بعد ما رأوا من الآيات العظام ، أن ألقى ألواح التوراة لما غلب ذهنه من الدهشة العظيمة ، غضبا للّه واستنكافا وحمية ، وعنف بأخيه وخليفته على قومه ، فأقبل عليه إقبال العدّو المكاشف قابضا على شعر رأسه - وكان أفرع «2» - وعلى شعر وجهه يجرّه إليه. أى : لو قاتلت بعضهم ببعض لتفرقوا وتفانوا ، فاستأنيتك أن تكون أنت المتدارك بنفسك ، المتلافى برأيك وخشيت عتابك على إطراح ما وصيتنى به من ضم النشر وحفظ الدهماء «3» ، ولم يكن لي بد من رقبة وصيتك والعمل على موجبها.

[سورة طه (20) : الآيات 95 إلى 96]

قالَ فَما خَطْبُكَ يا سامِرِيُّ (95) قالَ بَصُرْتُ بِما لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُها وَكَذلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (96)

الخطب : مصدر خطب الأمر إذا طلبه ، فإذا قيل لمن يفعل شيئا : ما خطبك؟ فمعناه : ما طلبك له؟ قرئ بَصُرْتُ بِما لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ بالكسر «4» ، والمعنى : علمت ما لم تعلموه ، وفطنت ما لم تفطنوا له. قرأ الحسن قَبْضَةً بضم القاف وهي اسم المقبوض ، كالغرفة والمضغة.

وأما القبضة فالمرة من القبض ، وإطلاقها على المقبوض من تسمية المفعول بالمصدر ، كضرب الأمير. وقرأ أيضا : فقبصت قبصة ، بالصاد المهملة. الضاد : بجميع الكف. والصاد : بأطراف الأصابع. ونحوهما : الخضم، والقضم : الخاء بجميع الفم ، والقاف بمقدمه : قرأ ابن مسعود : من أثر فرس الرسول. فإن قلت : لم سماه الرسول دون جبريل وروح القدس؟ قلت : حين حل ميعاد الذهاب إلى الطور أرسل الله إلى موسى جبريل راكب حيزوم فرس الحياة ليذهب به ، فأبصره السامري فقال : إنّ لهذا شأنا ، فقبض قبضة من تربة موطئه ، فلما سأله موسى عن قصته قال : قبضت من أثر فرس المرسل إليك يوم حلول الميعاد ، ولعله لم يعرف أنه جبريل.

[سورة طه (20) : آية 97]

قالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَياةِ أَنْ تَقُولَ لا مِساسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلى إِلهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً (97)

---

(1). قوله «قرئ بلحيتي بفتح اللام» والقراءة المشهورة : بالكسر. (ع)
(2). قوله «و كان أفرع» أى تام الشعر. أفاده الصحاح. (ع)
(3). قوله «و حفظ الدهماء» أى الجماعة ، أفاده الصحاح. (ع)
(4). قوله «و قرئ بصرت بما لم يبصروا به بالكسر» والقراءة المشهورة بالضم. وقرئ : تبصروا به. بالتاء : وعبارة النسفي : وبالتاء حمزة وعلى ، ولعلها سقطت هنا سهوا من الناسخ ، فليحرر. (ع)

عوقب في الدنيا بعقوبة لا شيء أطم منها وأوحش ، وذلك أنه منع من مخالطة الناس منعا كليا ، وحرم عليهم ملاقاته ومكالمته ومبايعته ومواجهته وكل ما يعايش به الناس بعضهم بعضا ، وإذا اتفق أن يماس أحدا رجلا أو امرأة ، حم الماس والممسوس ، فتحامى الناس وتحاموه ، وكان يصيح : لا مساس ، وعاد في الناس أوحش من القاتل اللاجئ إلى الحرم ، ومن الوحشي النافر في البرية. ويقال : إن قومه باق فيهم ذلك إلى اليوم. وقرئ لا مِساسَ بوزن فجار.

ونحوه قولهم في الظباء. إذا وردت الماء فلا عباب ، وإن فقدته فلا أباب : وهي أعلام للمسة والعبة والأبة ، وهي المرة من الأب وهو الطلب لَنْ تُخْلَفَهُ أى لن يخلفك الله موعده الذي وعدك على الشرك والفساد في الأرض، ينجزه لك في الآخرة بعد ما عاقبك بذلك في الدنيا ، فأنت ممن خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين. وقرئ لن تخلفه. وهذا من أخلفت الموعد إذا وجدته خلفا. قال الأعشى :

أثوى وأقصر ليله ليزوّدا فمضى وأخلف من قتيلة موعدا «1»

وعن ابن مسعود : نخلفه ، بالنون ، أى : لن يخلفه الله ، كأنه حكى قوله عز وجل كما مر في لِأَهَبَ لَكِ . ظَلْتَ وظلت ، وظلت والأصل ظللت ، فحذفوا اللام الأولى ونقلوا حركتها إلى الظاء ، ومنهم من لم ينقل لَنُحَرِّقَنَّهُ ولنحرقنه ولنحرقنه. وفي حرف ابن مسعود : لنذبحنه ، ولنحرقنه ، ولنحرقنه : القراءتان من الإحراق. وذكر أبو على الفارسي في لنحرقنه انه يجوز أن يكون حرّق مبالغة في حرق إذا برد بالمبرد. وعليه القراءة الثالثة ، وهي قراءة على بن أبى طالب رضى الله عنه لَنَنْسِفَنَّهُ بكسر السين وضمها ، وهذه عقوبة ثالثة وهي إبطال ما افتتن به وفتن ، وإهدار سعيه ، وهدم مكره وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ.

---

(1) أثوى وأقصر ليله ليزودا فمضت وأخلف من قتيلة موعدا
ومضى لحاجته وأصبح حبله خلقا وكان بحالة لن ينكدا
للأعشى. وأقصر عن الشيء : أقلع عنه وامتنع منه. وأقصره : وجده قصيرا. وروى «قصر» بالتشديد. وروى «ليله» بالاضافة إلى الضمير ، لكن الذي في ديوان الأعشى «ليلة» بالتاء. وثوى بالمكان : أقام به ، وأثوى به : لغة فيه ، ويستعمل متعديا أيضا. يقول :

وأخلف الموعد من قتيلة ، أى : وجده خلفا ، فسافر كما كان إلى حاجته ، واستعار الحبل للوداد أو للطمع فيه على طريق التصريحية والخلق ترشيح ، أى : يئس من مودته ، وكان الحبل أو العاشق بحالة حسنة ، هي أنه لن ينكدا ، أى لن يتنغص ، ولن يتكدر ، ولن يتعسر شأنه ، وزوال النعمة بعد نوالها يشق على النفس ، وخلق - بالضم - فهو خلق ، كحسن ، وهو في الأصل مصدر. وينكد كيتعب.

[سورة طه (20) : آية 98]

إِنَّما إِلهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً (98)

قرأ طلحة : اللّه الذي لا إله إلا هو الرحمن رب العرش وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً وعن مجاهد وقتادة : وسع ، ووجهه أن وسع متعدّ إلى مفعول واحد ، وهو كل شيء. وأمّا عِلْماً فانتصابه على التمييز ، وهو في المعنى فاعل ، فلما ثقل نقل إلى التعدية إلى مفعولين ، فنصبهما معا على المفعولية لأنّ المميز فاعل في المعنى ، كما تقول في «خاف زيد عمرا» خوفت زيدا عمرا ، فترد بالنقل ما كان فاعلا مفعولا.

[سورة طه (20) : الآيات 99 إلى 101]

كَذلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ ما قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْناكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً (99) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وِزْراً (100) خالِدِينَ فِيهِ وَساءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ حِمْلاً (101)

الكاف في كَذلِكَ منصوب المحل ، وهذا موعد من اللّه عزّ وجل لرسوله صلى اللّه عليه وسلم ، أى : مثل ذلك الاقتصاص ونحو ما اقتصصنا عليك قصة موسى وفرعون ، نقصّ عليك من سائر أخبار الأمم وقصصهم وأحوالهم ، تكثيرا لبيناتك ، وزيادة في معجزاتك ، وليعتبر السامع ويزداد المستبصر في دينه بصيرة ، وتتأكد الحجة على من عاند وكابر ، وأن هذا الذكر الذي آتيناك يعنى القرآن مشتملا على هذه الأقاصيص والأخبار الحقيقة بالتفكر والاعتبار ، لذكر عظيم وقرآن كريم ، فيه النجاة والسعادة لمن أقبل عليه ، ومن أعرض عنه فقد هلك وشقى. يريد بالوزر : العقوبة الثقيلة الباهظة ، سماها وزرا تشبيها في ثقلها على المعاقب وصعوبة احتمالها بالحمل الذي يفدح «1» لحامل ، وبنقض ظهره ، ويلقى عليه بهره «2» : أو لأنها جزاء الوزر وهو الإثم. وقرئ : يحمل. جمع خالِدِينَ على المعنى ، لأنّ من معلق متناول لغير معرض واحد. وتوحيد الضمير في أعرض وما بعده للحمل على اللفظ. ونحوه قوله تعالى وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها. فِيهِ أى في ذلك الوزر. أو في احتماله ساءَ في حكم بئس. والضمير الذي فيه يجب أن يكون مبهما يفسره حِمْلًا والمخصوص بالذم محذوف لدلالة الوزر السابق عليه ، تقديره : ساء حملا وزرهم ، كما حذف في قوله تعالى

(1). قوله «يفدح الحامل» أى يثقله. أفاده الصحاح. (ع)
(2). قوله «بهره» أى غلبته. أفاده الصحاح. (ع)

نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ أيوب هو المخصوص بالمدح. ومنه قوله تعالى وَساءَتْ مَصِيراً أى وساءت مصيرا جهنم. فإن قلت : اللام في لَهُمْ ما هي؟ وبم تتعلق؟ قلت : هي للبيان ، كما في هَيْتَ لَكَ. فإن قلت. ما أنكرت «1» أن يكون في ساء ضمير الوزر؟ قلت : لا يصح أن يكون في ساء وحكمه حكم بئس ضمير شيء بعينه غير مبهم فإن قلت : فلا يكن ساء الذي حكمه حكم بئس ، وليكن ساء الذي منه قوله تعالى سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بمعنى أهم وأحزن؟ قلت : كفاك صادّا عنه أن يؤول كلام اللّه إلى قولك : وأحزن الوزر لهم يوم القيامة حملا ، وذلك بعد أن تخرج عن عهدة هذا اللام وعهدة هذا المنصوب.

[سورة طه (20) : الآيات 102 إلى 104]

يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً (102) يَتَخافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً (103) نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْماً (104)

أسند النفخ إلى الآمريه فيمن قرأ : ننفخ ، بالنون. أو لأن الملائكة المقرّبين وإسرافيل منهم بالمنزلة التي هم بها من رب العزة ، فصح لكرامتهم عليه وقربهم منه أن يسند ما يتولونه إلى ذاته تعالى. وقرئ : ينفخ ، بلفظ ما لم

وقرئ فِي الصُّورِ بفتح الواو جمع صورة ، وفي الصور : قولان ، أحدهما : أنه بمعنى الصور وهذه القراءة تدل عليه. والثاني : أنه القرن. قيل في الزرق قولان ، أحدهما : أن الزرقة أبغض شيء من ألوان العيون إلى العرب لأنّ الروم أعداؤهم وهم زرق العيون ولذلك قالوا في صفة العدوّ : أسود الكبد ، أصهب السبال ، أزرق العين. والثاني : أنّ المراد العمى ، لأنّ حدقة من يذهب نور بصره تزراقّ. تخافتهم لما يملأ صدورهم من الرعب والهول ، يستقصرون مدّة لبثهم في الدنيا : إما لما يعاينون من الشدائد التي تذكرهم أيام النعمة والسرور فيتأسفون عليها ويصفونها بالقصر لأن أيام السرور قصار ، وإما لأنها ذهبت عنهم وتقضت ، والذاهب وإن طالت مدّته قصير بالانتهاء. ومنه توقيع عبد الله بن المعتز تحت «أطال الله بقاءك» : «كفى بالانتهاء قصرا» وإما لاستطالتهم الآخرة وأنها أبد سرمد يستقصر إليها عمر الدنيا ، ويقال لبث أهلها فيها بالقياس إلى لبثهم في الآخرة. وقد استرجح الله قول من يكون أشدّ تقاولا منهم في قوله تعالى إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً ونحوه قوله تعالى قالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعادِّينَ وقيل : المراد لبثهم في القبور.

(1). قوله «ما أنكرت» لعله «لم أنكرت». غ

ويعضده قوله عز وجل وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ ، وَقالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللَّهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ.

[سورة طه (20) : الآيات 105 إلى 107]

وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً (105) فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً (106) لا تَرى فِيها عِوَجاً وَلا أَمْتاً(107)

يَنْسِفُها يجعلها كالرمل ، ثم يرسل عليها الرياح فتفرّقها كما يذرى الطعام فَيَذَرُها «1» أى فيذر مقارّها ومراكزها. أو يجعل الضمير للأرض وإن لم يجر لها ذكر ، كقوله تعالى ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ. فإن قلت : قد فرّقوا بين العوج والعوج ، فقالوا : العوج بالكسر في المعاني. والعوج بالفتح في الأعيان ، والأرض عين ، فكيف صح فيها المكسور العين؟ قلت : اختيار هذا اللفظ له موقع حسن بديع في وصف الأرض بالاستواء والملاسة ، ونفى الاعوجاج عنها على أبلغ ما يكون ، وذلك أنك لو عمدت إلى قطعة أرض فسوّيتها وبالغت في التسوية على عينك وعيون البصراء من الفلاحة ، واتفقتم على أنه لم يبق فيها اعوجاج قط ، ثم استطلعت رأى المهندس فيها وأمرته أن يعرض استواءها على المقاييس الهندسية ، لعثر فيها على عوج في غير موضع ، لا يدرك ذلك بحاسة البصر ولكن بالقياس الهندسي ، فنفى الله عزّ وعلا ذلك العوج الذي دقّ ولطف عن الإدراك ، اللهمّ إلا بالقياس الذي يعرفه صاحب التقدير والهندسة ، وذلك الاعوجاج لما لم يدرك إلا بالقياس دون الإحساس لحق بالمعاني ، فقيل فيه : عوج بالكسر. الأمت : النتوّ اليسير ، يقال : مدّ حبله حتى ما فيه أمت.

[سورة طه (20) : الآيات 108 إلى 109]

يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْواتُ لِلرَّحْمنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً (108) يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً (109)

أضاف اليوم إلى وقت نسف الجبال في قوله يَوْمَئِذٍ أى يوم إذ نسفت ، ويجوز أن يكون بدلا بعد بدل من يوم القيامة. والمراد : الداعي إلى المحشر. قالوا : هو إسرافيل قائما على صخرة بيت المقدس يدعو الناس ، فيقبلون من كل أوب إلى صوبه لا يعدلون لا عِوَجَ لَهُ أى لا يعوجّ له مدعوّ ، بل يستوون إليه من غير انحراف متبعين لصوته.

(1). قوله تعالى فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً في الصحاح : أن كلا من القاع والصفصف بمعنى المستوى من الأرض ، فكأن الصفصف تأكيد. (ع)

أى : خفضت الأصوات من شدة الفزع وخفتت «1» فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً وهو الركز الخفي. ومنه الحروف المهموسة. وقيل : هو من همس الإبل وهو صوت أخفافها إذا مشت ، أى : لا تسمع إلا خفق الأقدام ونقلها إلى المحشر مَنْ يصلح أن يكون مرفوعا ومنصوبا ، فالرفع على البدل من الشفاعة بتقدير حذف المضاف ، أى : لا تنفع الشفاعة إلا شفاعة من أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ والنصب على المفعولية. ومعنى أذن له وَرَضِيَ لَهُ لأجله. أى : أذن للشافع ورضى قوله لأجله. ونحو هذه اللام اللام في قوله تعالى وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ.

[سورة طه (20) : آية 110]

يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً (110)

أى يعلم ما تقدّمهم من الأحوال وما يستقبلونه ، ولا يحيطون بمعلوماته علما.

[سورة طه (20) : آية 111]

وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً (111)

المراد بالوجوه وجوه العصاة ، وأنهم إذا عاينوا - يوم القيامة - الخيبة والشقوة وسوء الحساب ، صارت وجوههم عانية ، أى ذليلة خاشعة ، مثل وجوه العناة وهم الأسارى. ونحوه قوله تعالى فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ. وقوله تعالى وَقَدْ خابَ وما بعده اعتراض ، كقولك : خابوا وخسروا. وكلّ من ظلم فهو خائب خاسر.

[سورة طه (20) : آية 112]

وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً (112)

الظلم : أن يأخذ من صاحبه فوق حقه. والهضم : أن يكسر من حق أخيه فلا يوفيه له ، كصفة المطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ويسترجحون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. أى : فلا يخاف جزاء ظلم ولا هضم ، لأنه لم يظلم ولم يهضم. وقرئ : فلا يخف ، على النهى.

[سورة طه (20) : آية 113]

وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً (113)

وَكَذلِكَ عطف على كَذلِكَ نَقُصُّ أى : ومثل ذلك الإنزال ، وكما أنزلنا عليك هؤلاء الآيات المضمنة للوعيد «2» أنزلنا القرآن كله على هذه الوتيرة ، مكرّرين فيه آيات الوعيد ،

(1). قوله «و خفتت» في الصحاح «خفت الصوت» سكن. (ع)
(2). قال محمود : «معناه وكما أنزلنا عليك هذه الآيات المضمنة للوعيد ... الخ» قال أحمد : الصواب في تفسيرها :
ليكونوا على رجاء التقوى والتذكر ، وإلا فلو أراد اللّه من جميعهم التقوى لوقعت. وقد تقدمت أمثالها. والعجب أنه نقل عن سيبويه في تفسير لعل أول هذه السورة عند قوله تعالى لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى أن معناه : كونا على رجائكما ، ثم رجع عن ذلك هاهنا لأن المعتقد الفاسد يحذوه إلى هذا التأويل الباطل ، واللّه الموفق.

ليكونوا بحيث يراد منهم ترك المعاصي أو فعل الخير والطاعة. والذكر - كما ذكرنا - يطلق على الطاعة والعبادة. وقرئ : نحدث وتحدث ، بالنون والتاء ، أى : تحدث أنت. وسكن بعضهم الثاء للتخفيف ، كما في :
فاليوم أشرب غير مستحقب إثما من اللّه ولا واغل «1»

[سورة طه (20) : آية 114]

فَتَعالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً (114)

فَتَعالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ استعظام له ولما يصرف عليه عباده من أوامره ونواهيه ووعده ووعيده والإدارة بين ثوابه وعقابه على حسب أعمالهم ، وغير ذلك مما يجرى عليه أمر ملكوته ولما ذكر القرآن وإنزاله قال على سبيل الاستطراد : وإذا لقنك جبريل ما يوحى إليك من القرآن ، فتأنّ عليك ريثما يسمعك ويفهمك ، ثم أقبل عليه بالتحفظ بعد ذلك ، ولا تكن قراءتك مساوقة لقراءته. ونحوه قوله تعالى لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ وقيل معناه: لا تبلغ ما كان منه مجملا حتى يأتيك البيان. وقرئ : حتى تقضى إليك وحيه. وقوله تعالى رَبِّ زِدْنِي عِلْماً متضمن للتواضع للّه تعالى والشكر له عند ما علم من ترتيب التعلم ، أى علمتني يا رب لطيفة في باب التعلم وأدبا جميلا ما كان عندي ، فزدني علما إلى علم ، فإنّ لك في كل شيء حكمة وعلما.

وقيل : ما أمر اللّه رسوله بطلب الزيادة في شيء إلا في العلم.

[سورة طه (20) : آية 115]

وَلَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً (115)

يقال في أوامر الملوك ووصاياهم : تقدّم الملك إلى فلان وأوعز إليه ، وعزم عليه ، وعهد إليه.

(1) حلت لي الخمر وكنت امرأ عن شربها في شغل شاغل
فاليوم أشرب غير مستحقب إثما من اللّه ولا واغل
لامرئ القيس ، كان حلف لا يشرب الخمر حتى يقتل بنى أسد الذين قتلوا أباه حجرا ، فلما قتل جماعة منهم قال :
حلت لي الخمر بعد أن كانت حراما على وكنت في شغل شاغل لي عن شربها ، فاليوم حين أخذت الثأر أشرب ، وكان حقه الرفع لعدم الجازم ، فسكن تخفيفا للوزن. والمستحقب للشيء : الحامل له على ظهره. ومنه الحقيبة ، فشبه الإثم بالشيء المحمول لمشقته على النفس ، والاستحقاب تخييل ، والواغل : الداخل على الشاربين من غير أن يدعوه ، أى : فاليوم أشرب ما شئت حال كوني غير متحمل ذنبا من اللّه. حيث بررت في قسمي ، ولا متطفل على الشاربين.

عطف اللّه سبحانه قصة آدم على قوله وَصَرَّفْنا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ والمعنى : وأقسم قسما لقد أمرنا أباهم آدم ووصيناه أن لا يقرب الشجرة ، وتوعدناه بالدخول في جملة الظالمين إن قربها ، وذلك من قبل وجودهم ومن قبل أن نتوعدهم ، فخالف إلى ما نهى عنه ، وتوعد في ارتكابه مخالفتهم ، ولم يلتفت إلى الوعيد كما لا يلتفتون ، كأنه يقول : إنّ أساس أمر بنى آدم على ذلك ، وعرقهم راسخ فيه. فإن قلت : ما المراد بالنسيان؟ قلت يجوز أن يراد النسيان الذي هو نقيض الذكر ، وأنه لم يعن بالوصية العناية الصادقة ، ولم يستوثق منها بعقد القلب عليها وضبط النفس ، حتى تولد من ذلك النسيان. وأن يراد الترك وأنه ترك ما وصى به من الاحتراس عن الشجرة وأكل ثمرتها. وقرئ : فنسي ، أى : نساه الشيطان. العزم : التصميم والمضىّ على ترك الأكل ، وأن يتصلب في ذلك تصلبا يؤيس الشيطان من التسويل له. والوجود : يجوز أن يكون بمعنى العلم ، ومفعولاه لَهُ عَزْماً وأن يكون نقيض العدم كأنه قال : وعدمنا له عزما.

[سورة طه (20) : آية 116]

وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبى (116)

إِذْ منصوب بمضمر ، أى : واذكر وقت ما جرى عليه من معاداة إبليس ووسوسته إليه وتزيينه له الأكل من الشجرة ، وطاعته له بعد ما تقدّمت معه النصيحة والموعظة البليغة والتحذير من كيده ، حتى يتبين لك أنه لم يكن من أولى العزم والثبات. فإن قلت : إبليس كان جنيا بدليل قوله تعالى كانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ فمن أين تناوله الأمر وهو للملائكة خاصة؟ قلت كان في صحبتهم ، وكان يعبد اللّه تعالى عبادتهم ، فلما أمروا بالسجود لآدم والتواضع له كرامة له ، كان الجنى الذي معهم أجدر بأن يتواضع ، كما لو قام لمقبل على المجلس علية أهله وسراتهم ، كان القيام على واحد بينهم هو دونهم في المنزلة أوجب ، حتى إن لم يقم عنف. وقيل له : قد قام فلان وفلان ، فمن أنت حتى تترفع عن القيام؟ فإن قلت : فكيف صحّ استثناؤه وهو جنى عن الملائكة؟ قلت : عمل على حكم التغليب في إطلاق اسم الملائكة عليهم وعليه ، فأخرج الاستثناء على ذلك ، كقولك : خرجوا إلا فلانة ، لامرأة بين الرجال أَبى جملة مستأنفة ، كأنه جواب قائل قال : لم لم يسجد. والوجه أن لا يقدّر له مفعول ، وهو السجود المدلول عليه بقوله فَسَجَدُوا وأن يكون معناه أظهر الإباء وتوقف وتثبط

[سورة طه (20) : آية 117]

فَقُلْنا يا آدَمُ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى (117)

فَلا يُخْرِجَنَّكُما فلا يكونن سببا لإخراجكما. وإنما أسند إلى آدم وحده فعل الشقاء دون حوّاء بعد إشراكهما في الخروج ، لأنّ في ضمن شقاء الرجل وهو قيم أهله وأميرهم شقاءهم ، كما أنّ في ضمن سعادته سعادتهم ، فاختصر الكلام بإسناده إليه دونها. مع المحافظة على الفاصلة.

أو أريد بالشقاء التعب في طلب القوت ، وذلك معصوب برأس الرجل وهو راجع إليه. وروى أنه أهبط إلى آدم ثور أحمر فكان يحرث عليه ويمسح العرق من جبينه. قرئ : وَأَنَّكَ بالكسر والفتح. ووجه الفتح العطف على أَلَّا تَجُوعَ. فإن قلت : إنّ لا تدخل على أن ، فلا يقال : إنّ أن زيدا منطلق ، والواو نائبة عن إنّ وقائمة مقامها فلم أدخلت عليها؟ قلت : الواو لم توضع لتكون أبدا نائبة عن إنّ ، إنما هي نائبة عن كل عامل ، فلما لم تكن حرفا موضوعا للتحقيق خاصة - كإن - لم يمتنع اجتماعهما كما امتنع اجتماع إنّ وأن.

[سورة طه (20) : الآيات 118 إلى 119]

إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيها وَلا تَعْرى (118) وَأَنَّكَ لا تَظْمَؤُا فِيها وَلا تَضْحى (119)

الشبع والرىّ والكسوة والكنّ : هي الأقطاب التي يدور عليها كفاف الإنسان ، «1» فذكره استجماعها له في الجنة ، وأنه مكفى لا يحتاج إلى كفاية كاف ولا إلى كسب كاسب كما يحتاج إلى ذلك أهل الدنيا ، وذكرها بلفظ النفي لنقائضها التي هي الجوع والعرى والظمأ والضحو «2» ، ليطرق سمعه بأسامى أصناف الشقوة التي حذره منها ، حتى يتحامى السبب الموقع فيها كراهة لها.

[سورة طه (20) : آية 120]

فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطانُ قالَ يا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلى (120)

---

(1). قال محمود : «ذكر تعالى الأصناف التي بها قوام الإنسان ... الخ» قال أحمد : تنبيه حسن ، وفي الآية سر بديع من البلاغة يسمى قطع النظير عن النظير ، وذلك أنه قطع الظمأ عن الجوع والضحو عن الكسوة ، مع ما بينهما من التناسب. والغرض من ذلك تحقيق تعداد هذه النعم وتصنيفها ، ولو قرن كلا بشكله لتوهم المعدودات نعمة واحدة ، وقد رمق أهل البلاغة سماء هذا المعنى قديما وحديثا فقال الكندي الأول :
كأنى لم أركب جوادا للذة ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال
ولم أرشف الرزق الروى ولم أقل لخيلى كرى كرة بعد إجفال
فقطع ركوب الجواد عن قوله «لخيلى كرى كرة» وقطع تبطن الكاعب عن ترشف الكأس مع التناسب ، وغرضه أن يعدد ملاذه ومفاخره ويكثرها ، وتبعه الكندي الآخر فقال : وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلى هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم
فاعترضه سيف الدولة بأنه ليس فيه قطع الشيء عن نظيره ، ولكنه على فطنته قصر فهمه عما طالت إليه يد أبى الطيب من هذا المعنى الطائل البديع ، على أن في هذه الآية سرا لذلك زائدا على ما ذكر ، وهو أن قصد تناسب الفواصل ، ولو قرن الظمأ بالجوع فقيل : إن لك أن لا تجوع فيها ولا تظمأ ، لانتثر سلك رؤس الآي ، وأحسن به منتظما ، والله أعلم. [.....]
(2). قوله «و الضحو» الذي في الصحاح : ضحيت للشمس ضحا - ممدود - إذا برزت الشمس لها ، وضحيت - بالفتح - مثله. (ع)

فإن قلت : كيف عدى وسوس تارة باللام في قوله فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطانُ وأخرى بإلى؟

قلت : وسوسة الشيطان كولولة الثكلى «1» ووعوعة الذئب ووقوفة الدجاجة ، في أنها حكايات للأصوات وحكمها حكم صوت وأجرس. ومنه : وسوس المبرسم ، وهو موسوس بالكسر.

والفتح لحن. وأنشد ابن الأعرابى :

وسوس يدعو مخلصا ربّ الفلق «2»

فإذا قلت : وسوس له ، فمعناه لأجله ، كقوله :

أجرس لها يا ابن أبى كباش «3»

ومعنى «وسوس إليه» أنهى إليه الوسوسة ، كقولك. حدّث إليه. وأسرّ إليه. أضاف الشجرة إلى الخلد وهو الخلود ، لأن من أكل منها خلد بزعمه ، كما قيل لحيزوم : فرس الحياة ، لأنّ من باشر أثره حيي وَمُلْكٍ لا يَبْلى دليل على قراءة الحسن بن على وابن عباس رضى الله عنهم :

إِلَّا أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ بالكسر.

[سورة طه (20) : آية 121]

فَأَكَلا مِنْها فَبَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما وَطَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى (121)

(1). قوله «كولولة الثكلى» أى الحزينة. (ع)

(2)وسوس يدعو مخلصا رب الفلق سرا وقد أونّ تأوين العقق

في الزرب لو يمضغ شربا ما بصق

لرؤبة ، يصف قانصا. وسوس : تكلم في نفسه ، يدعو لله مخلصا أنه يظفره بالصيد ، وقوله «سرا» ساقه مساق الظرف للتوكيد ، أى تعلق بوسوس ، وللتأسيس إن تعلق بيدعو ، وتكون الجملة حالية مبينة للوسوسة. وقد أونّ أى : الحمير الوحشية ، والجملة أيضا حالية، والتأوين : امتلاء الجنبين من الأون ، وهو جانب الخرج الممتلئ. والأوثان الجانبان الممتلئان. والعقق : الحوامل ، واحده عقوق كعروس ، وقيل : هو العقوق ، أى امتلأت بطونهن ماء لكثرة شربهن كامتلاء بطون الحوامل في الزرب ، حال من ضمير القانص. والزرب والزربة : قترته التي يكمن فيها وانزرب القانص : دخل الزرب. وقوله «لو يمضغ» في معنى الحال أيضا ، أى : ساكنا بحيث لو يمضغ شربا ، أى :

لو يلوك بفمه مقدارا من مائه وهو الريق ، لم يبصق لئلا يسمع الصيد صوته. وأصل الشرب : النصيب من الماء ، استعاره لما يجتمع بفمه من الريق ، وبين الزرب والشرب الجناس المضارع.

(3)أجرس لها يا ابن أبى كباش فما لها الليلة من أنفاش

غير السرى وسائق نجاش

«أجرس» بقطع الهمزة وبالسين المهملة ، أى : صوت واحد للإبل في السير ، فما لها في هذه الليلة انفاش ، أى : إطلاق في المرعى. والسرى : سير الليل. ونجشت الإبل : جمعتها بعد تفرق. ونجاش : صيغة مبالغة ، أى : ليس لها رعى ، بل سير شديد. وروى «اجرش» بوصل الهمزة والشين المشالة ، وهو بمعناه هنا. والجرس - بالمهملة - : الصوت الخفي ، وبالمشالة : صوت المشط في الشعر. وما شابه ذلك.

«طفق يفعل كذا» مثل : جعل يفعل ، وأخذ ، وأنشأ. وحكمها حكم كاد في وقوع الخبر فعلا مضارعا ، وبينها وبينه مسافة قصيرة هي للشروع في أوّل الأمر. وكاد لمشارفته والدنوّ منه. قرئ يَخْصِفانِ للتكثير والتكرير ، من خصف النعل وهو أن يخرز عليها الخصاف ، أى : يلزقان الورق بسوآتهما للتستر وهو ورق التين. وقيل كان مدورا فصار على هذا الشكل من تحت أصابعهما. وقيل كان لباسهما الظفر ، فلما أصابا الخطيئة نزع عنهما وتركت هذه البقايا في أطراف الأصابع. عن ابن عباس : لا شبهة في أنّ آدم لم يمتثل ما رسم الله له ، وتخطى فيه ساحة الطاعة ، وذلك هو العصيان. ولما عصى خرج فعله من أن يكون رشدا وخيرا ، فكان غيا لا محالة ، لأنّ الغى خلاف الرشد ، ولكن قوله وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى بهذا الإطلاق وبهذا التصريح ، وحيث لم يقل : وزل آدم وأخطأ وما أشبه ذلك ، مما يعبر به عن الزلات والفرطات : فيه لطف بالمكلفين ومزجرة بليغة وموعظة كافة ، وكأنه قيل لهم : انظروا واعتبروا كيف نعيت على النبي المعصوم حبيب الله الذي لا يجوز عليه إلا اقتراف الصغيرة غير المنفرة زلته بهذه الغلطة وبهذا اللفظ الشنيع ، فلا تتهاونوا بما يفرط منكم من السيئات والصغائر ، فضلا أن تجسروا على التورّط في الكبائر. وعن بعضهم فَغَوى فبشم «1» من كثرة الأكل، وهذا - وإن صح على لغة من يقلب الياء المكسور ما قبلها ألفا فيقول في «فنى ، وبقي» : «فنا ، وبقا» وهم بنو طيّ - تفسير خبيث.

[سورة طه (20) : آية 122]

ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَهَدى (122)

فإن قلت : ما معنى ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ؟ قلت : ثم قبله بعد التوبة وقرّبه إليه ، من جبى إليّ كذا فاجتبيته. ونظيره : جليت علىّ العروس فاجتليتها. ومنه قوله عز وجل وَإِذا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَها أى هلا جبيت إليك فاجتبيتها. وأصل الكلمة الجمع. ويقولون : اجتبت الفرس نفسها إذا اجتمعت نفسها راجعة بعد النفار. وَهَدى أى وفقه لحفظ التوبة وغيره من أسباب العصمة والتقوى.

[سورة طه (20) : آية 123]

قالَ اهْبِطا مِنْها جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقى (123)
لما كان آدم وحواء عليهما السلام أصلى البشر ، والسببين اللذين منهما نشؤا وتفرعوا : جعلا كأنهما البشر في أنفسهما ، فخوطبا مخاطبتهم ، فقيل فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ على لفظ الجماعة.

(1). قوله «فبشم من كثرة الأكل» في الصحاح «البشم» التخمة ، (ع)

ونظيره إسنادهم الفعل إلى السبب ، وهو في الحقيقة للمسبب هُدىً كتاب وشريعة. وعن ابن عباس : ضمن الله لمن اتبع القرآن أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ، ثم تلا قوله فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقى والمعنى أنّ الشقاء في الآخرة هو عقاب من ضلّ في الدنيا عن طريق الدين فمن اتبع كتاب الله وامتثل أوامره وانتهى عن نواهيه نجا من الضلال ومن عقابه.

[سورة طه (20) : الآيات 124 إلى 126]

وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى (124) قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً (125) قالَ كَذلِكَ أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسِيتَها وَكَذلِكَ الْيَوْمَ تُنْسى (126)

الضنك : مصدر يستوي في الوصف به المذكر والمؤنث. وقرئ ضَنْكاً على فعلى. ومعنى ذلك : أن مع الدين التسليم والقناعة والتوكل على الله وعلى قسمته فصاحبه ينفق ما رزقه بسماح وسهولة ، فيعيش عيشا رافغا كما قال عز وجل فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً والمعرض عن الدين ، مستول عليه الحرص الذي لا يزال يطمح به إلى الازدياد من الدنيا ، مسلط عليه الشح الذي يقبض يده عن الإنفاق ، فعيشه ضنك وحاله مظلمة ، كما قال بعض المتصوّفة : لا يعرض أحد عن ذكر ربه إلا أظلم عليه وقته وتشوّش عليه رزقه. ومن الكفرة من ضرب الله عليه الذلة والمسكنة لكفره : قال الله تعالى وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَباؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وقال وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ وَما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وقال وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ وقال اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً وقال وَأَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقاً وعن الحسن : هو الضريع والزقوم في النار. وعن أبى سعيد الخدري : عذاب القبر. وقرئ وَنَحْشُرُهُ بالجزم عطفا على محل فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً لأنه جواب الشرط.

وقرئ : ونحشره ، بسكون الهاء على لفظ الوقف ، وهذا مثل قوله وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمًّا وكما فسر الزرق بالعمى كَذلِكَ أى مثل ذلك فعلت أنت ، ثم فسر بأن آياتنا أتتك واضحة مستنيرة ، فلم تنظر إليها بعين المعتبر ولم تتبصر ، وتركتها وعميت عنها ، فكذلك اليوم نتركك على عماك ولا نزيل غطاءه عن عينيك.

[سورة طه (20) : آية 127]

وَكَذلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآياتِ رَبِّهِ وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقى (127)

لما توعد المعرض عن ذكره بعقوبتين : المعيشة الضنك في الدنيا ، وحشره أعمى في الآخرة - ختم آيات الوعيد بقوله وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقى كأنه قال : وللحشر على العمى الذي لا يزول أبدا أشدّ من ضيق العيش المنقضى. أو أراد : ولتركنا إياه في العمى أشدّ وأبقى من تركه لآياتنا.

[سورة طه (20) : آية 128]

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى (128)

فاعل فَلَمْ يَهْدِ الجملة بعده يريد : ألم يهد لهم هذا بمعناه ومضمونه. ونظيره قوله تعالى وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلامٌ عَلى نُوحٍ فِي الْعالَمِينَ أى تركنا عليه هذا الكلام. ويجوز أن يكون فيه ضمير الله أو الرسول ، ويدل عليه

[سورة طه (20) : آية 129]

وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكانَ لِزاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى (129)

الكلمة السابقة : هي العدة بتأخير جزائهم إلى الآخرة ، يقول : لولا هذه العدة لكان مثل إهلاكنا عادا وثمودا لازما لهؤلاء الكفرة. واللزام : إما مصدر لازم وصف به ، وإما فعال بمعنى مفعل ، أى ملزم ، كأنه آلة اللزوم لفرط لزومه ، كما قالوا : لزاز خصم وَأَجَلٌ مُسَمًّى لا يخلو من أن يكون معطوفا على كَلِمَةٌ أو على الضمير في لَكانَ أى لكان الأخذ العاجل وأجل مسمى لازمين لهم كما كانا لازمين لعاد وثمود ، ولم ينفرد الأجل المسمى دون الأخذ العاجل

[سورة طه (20) : آية 130]

فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِها وَمِنْ آناءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرافَ النَّهارِ لَعَلَّكَ تَرْضى (130)

بِحَمْدِ رَبِّكَ في موضع الحال ، أى : وأنت حامد لربك على أن وفقك للتسبيح وأعانك عليه. والمراد بالتسبيح الصلاة. أو على ظاهره قدم الفعل على الأوقات أوّلا ، والأوقات على الفعل آخرا ، فكأنه قال : صل للّه قبل طلوع الشمس يعنى الفجر ، وقبل غروبها يعنى الظهر والعصر ، لأنهما واقعتان في النصف الأخير من النهار بين زوال الشمس وغروبها ، وتعمد آناء الليل وأطراف النهار مختصا لهما بصلاتك ، وذلك أن أفضل الذكر ما كان بالليل ، لاجتماع القلب وهدو الرجل والخلو بالرب. وقال اللّه عز وجل إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلًا وقال أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِداً وَقائِماً ولأنّ الليل وقت السكون والراحة ، فإذا صرف إلى العبادة كانت على النفس أشد وأشق ، وللبدن أتعب وأنصب ، فكانت أدخل في معنى التكليف وأفضل عند اللّه. وقد تناول التسبيح في آناء الليل صلاة العتمة ، وفي أطراف النهار صلاة المغرب وصلاة الفجر على التكرار ، إرادة الاختصاص ، كما اختصت في قوله حافِظُوا عَلَى الصَّلَواتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطى عند بعض المفسرين. فإن قلت : ما وجه قوله وَأَطْرافَ النَّهارِ على الجمع ، وإنما هما طرفان كما قال أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ؟ قلت : الوجه أمن الإلباس ، وفي التثنية زيادة بيان. ونظير مجيء الأمرين في الآيتين : مجيئهما في قوله : ظهراهما مثل ظهور الترسين «1»

وقرئ : وأطراف النهار ، عطفا على آناء الليل ، ولعل للمخاطب ، أى : اذكر اللّه في هذه الأوقات ، طمعا ورجاء أن تنال عند اللّه ما به ترضى نفسك ويسر قلبك. وقرئ : ترضى ، أى يرضيك ربك.

[سورة طه (20) : آية 131]

وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقى (131)

وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ أى نظر عينيك ، ومدّ النظر : تطويله ، وأن لا يكاد يرده ، استحسانا للمنظور إليه وإعجابا به، وتمنيا أن يكون له ، كما فعل نظارة قارون حين قالوا يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ حتى واجههم أو لو العلم والإيمان ب وَيْلَكُمْ ثَوابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً وفيه أن النظر غير الممدود معفو عنه ،

(1) ومهمهين قذفين مرتين ظهراهما مثل ظهور الترسين
جبتهما بالنعت لا بالنعتين
لخطام المجاشعي. وقيل : لهميان بن قحافة. والمهمه : المفازة. والقذف - بالتحريك - : الذي يقذف سالكه فلا يمكث فيه أحد. وقيل : البعيد. والمرت - بالسكون - : القفر لا ماء فيه ولا نبات. والترس : حيوان ناتئ الظهر. وثنى ظهراهما على الأصل ، وجمع فيما بعد لأمن اللبس ، ولأنه ربما كره اجتماع تثنيتين ، لا سيما عند تتابع التثنية كما هنا. وقال النحاة : كل مثنى في المعنى مضاف إلى متضمنه ، يختار في لفظه الجمع لتعدد معناه وكراهة اجتماع تثنيتين في اللفظ. ويجوز مجيئه على الأصل كما هنا. ويجوز إفراده كقوله :
حمامة بطن الواديين ترنمي

والجواب : القطع. والنعت : الوصف ، ويروى : «بالسمت لا بالسمتين» والسمت : الهيئة والقصد والجهة والطريق والمراد أنهما وصفا ، أو ذكرت هيأتهما له مرة واحدة. يقول : رب موضعين قفرين لا أنيس فيهما ، لهما ظهران مرتفعان ، كظهرى الترسين ، قطعتهما بالسير بنعت واحد ، لا بوصفهما لي مرتين أو ثلاثة كغيرى. ويجوز أن المعنى بذكر نعت واحد من نعوتها ، لا بذكر نعتين ، فالنعت بمعنى الصفة القائمة بالشيء. وفي الكلام دلالة على شجاعته وحذقه.

وذلك مثل نظر من باده الشيء بالنظر ثم غض الطرف ، ولما كان النظر إلى الزخارف كالمركوز في الطباع ، وأنّ من أبصر منها شيئا أحب أن يمدّ إليه نظره ويملأ منه عينيه : قيل وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ أى لا تفعل ما أنت معتاد له وضاربه ، ولقد شدّد العلماء من أهل التقوى في وجوب غض البصر عن أبنية الظلمة وعدد الفسقة في اللباس والمراكب وغير ذلك ، لأنهم إنما اتخذوا هذه الأشياء لعيون النظارة ، فالناظر إليها محصل لغرضهم ، وكالمغري لهم على اتخاذها أَزْواجاً مِنْهُمْ أصنافا من الكفرة. ويجوز أن ينتصب حالا من هاء الضمير ، والفعل واقع على مِنْهُمْ كأنه قال : إلى الذي متعنا به وهو أصناف بعضهم وناسا منهم. فإن قلت : علام انتصب زَهْرَةَ؟ قلت : على أحد أربعة أوجه : على الذم وهو النصب على الاختصاص. وعلى تضمين مَتَّعْنا معنى أعطينا وخوّلنا ، وكونه مفعولا ثانيا له. وعلى إبداله من محل الجار والمجرور. وعلى إبداله من أزواجا ، على تقدير ذوى زهرة.

فإن قلت : ما معنى الزهرة فيمن حرّك «1»؟ قلت : معنى الزهرة بعينه وهو الزينة والبهجة ، كما جاء في الجهرة الجهرة. وقرئ : أرنا الله جهرة. وأن تكون جمع زاهر ، وصفا لهم بأنهم زاهروا هذه الدنيا ، لصفاء ألوانهم مما يلهون ويتنعمون ، وتهلل وجوههم «2» وبهاء زيهم وشارتهم «3» ، بخلاف ما عليه المؤمنون والصلحاء : من شحوب الألوان والتقشف في الثياب لِنَفْتِنَهُمْ لنبلوهم حتى يستوجبوا العذاب ، لوجود الكفران منهم. أو لنعذبهم في الآخرة بسببه وَرِزْقُ رَبِّكَ هو ما ادّخر له من ثواب الآخرة الذي هو خير منه في نفسه وأدوم. أو ما رزقه من نعمة الإسلام والنبوّة. أو لأن أموالهم الغالب عليها الغصب والسرقة والحرمة «4» من بعض الوجوه ، والحلال خَيْرٌ وَأَبْقى لأن الله لا ينسب إلى نفسه إلا ما حل وطاب دون ما حرم وخبث ، والحرام لا يسمى رزقا أصلا «5».

(1). قوله «حرك» أى حرك الهاء بالفتح. (ع)
(2). قوله «و تهلل وجوههم» الذي في الصحاح : تهلل وجه الرجل من فرحه ، وهلهل النساج الثوب. أرق نسجه وخففه. (ع)
(3). قوله «و بهاء زيهم وشارتهم» في الصحاح : الزي والشارة : اللباس والهيئة. (ع)
(4). قال محمود : «معناه أن رزق هؤلاء المتمتعين في الدنيا أكثره مكتسب من الحرام ... الخ» قال أحمد :
لولا أن غرض القدرية من هذا إثبات رازق غير الله تعالى كما أثبتوا خالقا سوى الله تعالى لكان البحث لفظيا.
فالحق والسنة أن كل ما تقوم به البنية رزق من الله تعالى ، سواء كان حلالا أو غيره ، لا يلزم من كون الله تعالى رزقه أن يكون حلالا ، فكما يخلق الله تعالى على يدي العبد ما نهاه عنه ، كذلك يرزقه ما أباح له تناوله وما لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ والله الموفق الصواب.
(5). قوله «و الحرام لا يسمي رزقا أصلا» هذا عند المعتزلة ، ويسمى رزقا عند أهل السنة. (ع)

وعن عبد الله بن قسيط عن رافع قال : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يهودى وقال : «قل له يقول لك رسول الله أقرضنى إلى رجب» فقال : والله لا أقرضته إلا برهن ، فقال رسول الله «إنى لأمين في السماء وإنى لأمين في الأرض ، احمل إليه درعي «1» الحديد» فنزلت : ولا تمدّنّ عينيك.

[سورة طه (20) : آية 132]

وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْها لا نَسْئَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعاقِبَةُ لِلتَّقْوى (132)

وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ أى وأقبل أنت مع أهلك على عبادة الله والصلاة ، واستعينوا بها على خصاصتكم ولا تهتم بأمر الرزق والمعيشة ، فإنّ رزقك مكفىّ من عندنا ، ونحن رازقوك ولا نسألك أن ترزق نفسك ولا أهلك ففرّغ بالك لأمر الآخرة. وفي معناه قول الناس : من دان في عمل الله كان الله في «2» عمله. وعن عروة بن الزبير أنه كان إذا رأى ما عند السلاطين قرأ وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ... الآية ثم ينادى الصلاة الصلاة رحمكم الله. وعن بكر بن عبد الله المزني كان إذا أصابت أهله خصاصة قال : قوموا فصلوا ، بهذا أمر الله رسوله ، ثم يتلو هذه الآية.

[سورة طه (20) : آية 133]

وَقالُوا لَوْلا يَأْتِينا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ ما فِي الصُّحُفِ الْأُولى (133)

اقترحوا على عادتهم في التعنت آية على النبوّة ، فقيل لهم : أو لم تأتكم آية هي أمّ الآيات وأعظمها في باب الإعجاز يعنى القرآن ، من قبل أنّ القرآن برهان ما في سائر الكتب المنزلة ودليل صحته لأنه معجزة ، وتلك ليست بمعجزات ، فهي مفتقرة إلى شهادته على صحة ما فيها ، افتقار المحتج عليه إلى شهادة الحجة. وقرئ : الصحف. بالتخفيف. ذكر الضمير الراجع إلى البينة لأنها في معنى البرهان والدليل.

[سورة طه (20) : آية 134]

وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْناهُمْ بِعَذابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقالُوا رَبَّنا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزى (134)

(1). قلت وقع فيه تحريف في الراويين. وإنما هو عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن أبى رافع. ولعل ذلك من النساخ. والحديث أخرجه إسحاق وابن أبى شيبة وأبو يعلى والبزار والطبري والطبراني من هذا الوجه مطولا.
وفيه موسى بن عبيدة الزبيري وهو متروك. واستدل على بطلان ما رواه أنه وقع فيه «أن قوله تعالى وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ الآية نزلت في هذه القصة وسورة طه مكية - وهذه القصة إنما كانت في المدينة كما في الصحيح. وهذا يمكن الجواب عنه إذ لا مانع أن تكون الآية وحدها مدنية. وبقية السورة مكي. وأما حمله على تعدد القصة فلم يصب.
(2). قوله «من دان في عمل الله كان الله في عمله» دان : ذل ، ودانه : أذله ، كذا في الصحاح. (ع)

قرئ نَذِلَّ وَنَخْزى على لفظ ما لم يسم فاعله.

[سورة طه (20) : آية 135]

قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحابُ الصِّراطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدى (135)

كُلٌّ أى كل واحد منا ومنكم مُتَرَبِّصٌ للعاقبة ولما يؤول إليه أمرنا وأمركم.

وقرئ : السواء ، بمعنى الوسط والجيد. أو المستوى والسوء والسوأى والسوي تصغير السوء.

وقرئ : فتمتعوا فسوف تعلمون. قال أبو رافع : حفظته من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «من قرأ سورة طه أعطى يوم القيامة ثواب المهاجرين والأنصار «1»» وقال : «لا يقرأ أهل الجنة من القرآن إلا طه ويس «2»»

سورة الأنبياء

مكية وآياتها 112 [نزلت بعد سورة إبراهيم]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الأنبياء (21) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (1)

هذه اللام : لا تخلو من أن تكون صلة لاقترب ، أو تأكيدا لإضافة الحساب إليهم ، كقولك : «أزف للحىّ رحيلهم» الأصل : أزف رحيل الحىّ ، ثم أزف للحىّ الرحيل ، ثم أزف للحىّ رحيلهم. ونحوه ما أورده سيبويه في «باب ما يثنى فيه المستقرّ توكيدا» عليك زيد حريص عليك. وفيك زيد راغب فيك. ومنه قولهم : لا أبالك : لأنّ اللام مؤكدة لمعنى الإضافة. وهذا الوجه أغرب من الأوّل. والمراد اقتراب الساعة. وإذا اقتربت الساعة فقد اقترب ما يكون فيها من الحساب والثواب والعقاب وغير ذلك. ونحوه وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ.

(1). أخرجه الثعلبي من رواية زياد عن الحسن مرسلا. [.....]
(2). أخرجه ابن مردويه من حديث أبى بن كعب.

فإن قلت : كيف وصف بالاقتراب وقد عدّت دون هذا القول أكثر من خمسمائة عام؟

قلت : هو مقترب عند الله والدليل عليه قوله عزّ وجلّ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ولأنّ كلّ آت - وإن طالت أوقات استقباله وترقبه - قريب ، إنما البعيد هو الذي وجد وانقرض ، ولأنّ ما بقي في الدنيا أقصر وأقل مما سلف منها ، بدليل انبعاث خاتم النبيين الموعود مبعثه في آخر الزمان. وقال عليه السلام «1» «بعثت في نسم الساعة «2»» وفي خطبة بعض المتقدّمين : ولت الدنيا حذاء ، ولم تبق إلا صبابة كصبابة الإناء. وإذا كانت بقية الشيء وإن كثرت في نفسها قليلة بالإضافة إلى معظمه ، كانت خليقة بأن توصف بالقلة وقصر الذرع. وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أنّ المراد بالناس : المشركون. وهذا من إطلاق اسم الجنس على بعضه للدليل القائم ، وهو ما يتلوه من صفات المشركين. وصفهم بالغفلة مع الإعراض ، على معنى : أنهم غافلون عن حسابهم ساهون ، لا يتفكرون في عاقبتهم ، ولا يتفطنون لما ترجع إليه خاتمة أمرهم ، مع اقتضاء عقولهم أنه لا بدّ من جزاء للمحسن والمسيء ، وإذا قرعت لهم العصا ونبهوا عن سنة الغفلة وفطنوا لذلك بما يتلى عليهم من الآيات والنذر ، أعرضوا وسدوا أسماعهم ونفروا.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 2 إلى 3]

ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (2) لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هذا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (3)

قرّر إعراضهم عن تنبيه المنبه وإيقاظ الموقظ : بأنّ الله يجدّد لهم الذكر وقتا فوقتا ، ويحدث لهم الآية بعد الآية والسورة بعد السورة ، ليكرّر على أسماعهم التنبيه والموعظة لعلهم يتعظون ، فما يزيدهم استماع الآي والسور وما فيها من فنون المواعظ والبصائر - التي هي أحق الحق وأجدّ الجدّ - إلا لعبا وتلهيا واستسخارا. والذكر : هو الطائفة النازلة من القرآن.

(1). أخرجه البزار بإسناد حسن ، من حديث أبى جبير بن الضحاك الأنصارى وأخرجه الحسن بن سفيان.
ومن طريقه أبو نعيم في الحلية. وفي الباب عن المستورد بن شداد رفعه «بعثت في نفس الساعة - الحديث» أخرجه الترمذي. وقوله : وفي خطب بعض المتقدمين «ولت الدنيا حذاء لم يبق إلا صبابة كصبابة الإناء» هو عبد الله بن غزوان. أخرجه مسلم من حديثه مطولا.
(2). قوله «بعثت في نسم الساعة» في الصحاح «نسم الريح» أو لها حين تقبل بلين قبل أن تشتد. ومنه الحديث «بعثت في نسم الساعة» أى حين ابتدأت وأقبلت أوائلها. والنسيم أيضا : جمع نسمة وهي النفس. (ع)

وقرأ ابن أبى عبلة مُحْدَثٍ بالرفع صفة على المحل. قوله وَهُمْ يَلْعَبُونَ لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ حالان مترادفتان أو متداخلتان. ومن قرأ لاهِيَةً بالرفع فالحال واحدة ، لأن لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ خبر بعد خبر ، لقوله وَهُمْ واللاهية : من لها عنه إذا ذهل وغفل ، يعنى أنهم وإن فطنوا فهم في قلة جدوى فطنتهم كأنهم لم يفطنوا أصلا ، وثبتوا على رأس غفلتهم وذهولهم عن التأمّل والتبصر بقلوبهم. فإن قلت : النجوى وهي اسم من التناجي لا تكون إلا خفية ، فما معنى قوله وَأَسَرُّوا؟ قلت : معناه : وبالغوا في إخفائها. أو جعلوها بحيث لا يفطن أحد لتناجيهم ولا يعلم أنهم متناجون ، أبدل الَّذِينَ ظَلَمُوا من واو وأسرّوا ، إشعارا بأنهم الموسومون بالظلم الفاحش فيما أسرّوا به. أو جاء على لغة من قال «أكلونى البراغيث» أو هو منصوب المحل على الذم. أو هو مبتدأ خبره وَأَسَرُّوا النَّجْوَى قدم عليه : والمعنى : وهؤلاء أسروا النجوى.

فوضع المظهر موضع المضمر تسجيلا على فعلهم بأنه ظلم هَلْ هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ هذا الكلام كله في محل النصب بدلا من النجوى ، أى : وأسروا هذا الحديث. ويجوز أن يتعلق بقالوا مضمرا : اعتقدوا أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكون إلا ملكا ، وأن كل من ادّعى الرسالة من البشر وجاء بالمعجزة هو ساحر ومعجزته سحر ، فلذلك قالوا على سبيل الإنكار : أفتحضرون السحر وأنتم تشاهدونوتعاينون أنه سحر. فإن قلت : لم أسروا هذا الحديث وبالغوا في إخفائه؟ قلت : كان ذلك شبه التشاور فيما بينهم ، والتحاور في طلب الطريق إلى هدم أمره ، وعمل المنصوبة في التثبيط عنه «1». وعادة المتشاورين في خطب أن لا يشركوا أعداءهم في شوراهم ، ويتجاهدوا في طىّ سرّهم عنهم ما أمكن واستطيع. ومنه قول الناس «استعينوا على حوائجكم بالكتمان» ويرفع إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم «2».
ويجوز أن يسرّوا نجواهم بذلك ثم يقولوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين : إن كان ما تدعونه حقا فأخبرونا بما أسررنا.

[سورة الأنبياء (21) : آية 4]

قالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (4)

---

(1). قوله «و عمل المنصوبة في التثبيط عنه» كأن فيه سقطا. وفي الصحاح : نصبت لفلان نصبا : إذا عاديته. (ع)
(2). روى موقوفا. قال : ويرفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب الثالث والأربعين وابن عدى من رواية سعيد بن سلام العطار عن ثور بن زيد عن خالد بن معدان عن معاذ بن جبل. وسعيد. قال البخاري : يذكر بالوضع ، وتابعه حسين بن علوان عن ثور. وكان أيضا يضع الحديث. قاله ابن عدى وابن حبان وقال هاهنا عن أحمد وابن معين : هو حديث موضوع. وقال ابن أبى حاتم عن أبيه : منكر لا يعرف له أصل. وفي الباب عن أبى هريرة أخرجه حمزة السهمي في تاريخ جرجان. وفيه شميل بن عبد الرحمن الجرجاني رواه محمد بن مطرف وعند الهيثم بن أيوب الطالقاني ، وعن ابن عباس أخرجه ابن حبان في الضعفاء. وفيه طاهر بن الفضل الحلبي. وهو متهم بالوضع. وله طريق أخرى من رواية الخلفاء للحسن بن على صاحب السلعة عن إبراهيم بن على ابن مالونة البلخي عن الطالبي عن إبراهيم بن معقل بسنده. وليس فيه غير الطالبي.

فإن قلت : هلا قيل : يعلم السر لقوله وَأَسَرُّوا النَّجْوَى «1»؟ قلت : القول عام يشمل السرّ والجهر ، فكان في العلم به العلم بالسرّ وزيادة ، فكان آكد في بيان الاطلاع على نجواهم من أن يقول : يعلم السرّ ، كما أنّ قوله : يعلم السرّ ، آكد من أن يقول : يعلم سرهم. ثم بين ذلك بأنه السميع العليم لذاته فكيف تخفى عليه خافية. فإن قلت: فلم ترك هذا الآكد في سورة الفرقان في قوله قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ؟ قلت : ليس بواجب أن يجيء بالآكد في كل موضع ، ولكن يجيء بالوكيد تارة وبالآكد أخرى ، كما يجيء بالحسن في موضع وبالأحسن في غيره ليفتنّ الكلام افتنانا ، وتجمع الغاية وما دونها ، على أن أسلوب تلك الآية خلاف أسلوب هذه ، من قبل أنه قدم هاهنا أنهم أسروا النجوى ، فكأنه أراد أن يقول :
إن ربى يعلم ما أسروه ، فوضع القول موضع ذلك للمبالغة ، وثم قصد وصف ذاته بأن أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض ، فهو كقوله علام الغيوب عالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ. وقرئ قالَ رَبِّي حكاية لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم.

[سورة الأنبياء (21) : آية 5]

بَلْ قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَراهُ بَلْ هُوَ شاعِرٌ فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ كَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (5)

أضربوا عن قولهم هو سحر إلى أنه تخاليط أحلام ، ثم إلى أنه كلام مفترى من عنده ، ثم إلى أنه قول شاعر ، وهكذا الباطل لجلج «2» ، والمبطل متحير رجاع غير ثابت على قول واحد.

ويجوز أن يكون تنزيلا من الله تعالى لأقوالهم في درج الفساد : وأن قولهم الثاني أفسد من الأول ، والثالث أفسد من الثاني ، وكذلك الرابع من الثالث. صحة التشبيه في قوله كَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ من حيث أنه في معنى : كما أتى الأوّلون بالآيات ، لأنّ إرسال الرسل متضمن للإتيان بالآيات ألا ترى أنه لا فرق بين أن تقول : أرسل محمد صلى الله عليه وسلم ، وبين قولك : أتى محمد بالمعجزة.

(1). قال محمود : «إن قلت لم عدل عن قوله يعلم السر مع أن المتقدم وأسروا النجوى ... الخ» قال أحمد :
وهذا من إتباع القرآن للرأى ، نعوذ بالله من ذلك لا سيما رأى ينفى صفات الكمال عن الله تعالى وما الذي دل عليه السَّمِيعُ الْعَلِيمُ من نفى صفتي السمع والعلم في تفسيرهما بذلك ، مع أنه لا يفهم في اللغة سميع إلا بسمع ، ولا عليم إلا بعلم ، فإنها صفات مشتقات من مصادر لا بد من فهمها وثبوتها أولا ، ثم ثبوت ما اشتقت منه. ومن أنكر السمع والعلم فقد سارع إلى إنكار السميع العليم وهو لا يشعر. وليس غرضنا في هذا المصنف سوى الإيقاظ لما الطوى عليه الكشاف من غوائل البدع ليتجنبها الناظر. وأما الأدلة الكلامية فمن فنها تتلقى. وحاله فيما يورده من أمثال هذه النزغات مختلف : فمرة يوردها عند كلام يتخيل في ظاهره إشعارا بغرضه ، فوظيفتنا معه حينئذ أن ننازع في الظهور ، ثم قد نترقى إلى بيان ظهوره في عكس مراده أو نصوصيته ، حتى لا يحتمل ما يدعيه بوجه ما ، وقد يلجئنا الانصاف إلى تسليم الظهور له فنذكر وجه التأويل الذي يرشد إليه دليل العقل. ومرة يورد نبذا من هذا الرأى عند كلام لا يحتمله ولا يشعر به بوجه ، وغرضه التعف حتى لا يخلى شيئا من كلامه من تعصب وإصرار على باطل ، فننبه على ذلك أيضا. وما ذكره عند هذه الآية من قبيل ما يدل النص على عكس مراده فيه ، وقد أوضحناه.
(2). قوله «الباطل لجلج» في الصحاح : الحق أبلج والباطل لجلج ، أى : يردد من غير أن ينفد. (ع)

[سورة الأنبياء (21) : آية 6]

ما آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (6)

أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ فيه أنهم أعتى من الذين اقترحوا على أنبيائهم الآيات وعاهدوا أنهم يؤمنون عندها ، فلما جاءتهم نكثوا أو خالفوا ، فأهلكهم الله. فلو أعطيناهم ما يقترحون لكانوا أنكث وأنكث.

[سورة الأنبياء (21) : آية 7]

وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (7)

أمرهم أن يستعلموا أهل الذكر وهم أهل الكتاب ، حتى يعلموهم أن رسل الله الموحى إليهم كانوا بشرا ولم يكونوا ملائكة كما اعتقدوا ، وإنما أحالهم على أولئك لأنهم كانوا يشايعون المشركين في معاداة رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال الله تعالى وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً فلا يكاذبونهم فيما هم فيه ردء لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

[سورة الأنبياء (21) : آية 8]

وَما جَعَلْناهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَما كانُوا خالِدِينَ (8)

لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ صفة لجسدا ، والمعنى : وما جعلنا الأنبياء عليهم السلام قبله ذوى جسد غير طاعمين. ووحد الجسد لإرادة الجنس ، كأنه قال : ذوى ضرب من الأجساد. وهذا ردّ لقولهم ما لِهذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ. فإن قلت : نعم قد ردّ إنكارهم أن يكون الرسول بشرا يأكل ويشرب بما ذكرت. فما ذا ردّ من قولهم بقوله وَما كانُوا خالِدِينَ؟ قلت : يحتمل أن يقولوا إنه بشر مثلنا يعيش كما نعيش ويموت كما نموت. أو يقولوا : هلا كان ملكا لا يطعم ويخلد : إما معتقدين أن الملائكة لا يموتون. أو مسمين حياتهم المتطاولة وبقاءهم الممتدّ خلودا.

[سورة الأنبياء (21) : آية 9]

ثُمَّ صَدَقْناهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْناهُمْ وَمَنْ نَشاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (9)

صَدَقْناهُمُ الْوَعْدَ مثل واختار موسى قومه. والأصل في الوعد : ومن قومه. ومنه :

صدقوهم القتال. وصدقنى سنّ بكره وَمَنْ نَشاءُ هم المؤمنون ومن في بقائه مصلحة.

[سورة الأنبياء (21) : آية 10]

لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ (10)

ذِكْرُكُمْ شرفكم وصيتكم ، كما قال وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ أو موعظتكم. أو فيه مكارم الأخلاق التي كنتم تطلبون بها الثناء أو حسن الذكر «1» ، كحسن الجوار ، والوفاء بالعهد ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، والسخاء ، وما أشبه ذلك ،

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 11 إلى 15]

وَكَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ كانَتْ ظالِمَةً وَأَنْشَأْنا بَعْدَها قَوْماً آخَرِينَ (11) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنا إِذا هُمْ مِنْها يَرْكُضُونَ (12) لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلى ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَساكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ (13) قالُوا يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ (14) فَما زالَتْ تِلْكَ دَعْواهُمْ حَتَّى جَعَلْناهُمْ حَصِيداً خامِدِينَ (15)

وَكَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ واردة عن غضب شديد ومنادية على سخط عظيم ، لأنّ القصم أفظع الكسر وهو الكسر الذي يبين تلاؤم الأجزاء ، بخلاف الفصم. وأراد بالقرية : أهلها ، ولذلك وصفها بالظلم. وقال قَوْماً آخَرِينَ لأن المعنى : أهلكنا قوما وأنشأنا قوما آخرين. وعن ابن عباس : أنها «حضور» وهي و«سحول» قريتان باليمن ، تنسب إليهما الثياب. وفي الحديث «كفن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثوبين سحوليين «2»» وروى «حضوريين «3»» بعث الله إليهم نبيا فقتلوه ، فسلط الله عليهم بخت نصر كما سلطه على أهل بيت المقدس فاستأصلهم. وروى : أنهم لما أخذتهم السيوف ونادى مناد من السماء يا لثارات الأنبياء ، ندموا واعترفوا بالخطإ ، وذلك حين لم ينفعهم الندم. وظاهر الاية على الكثرة. ولعل ابن عباس ذكر «حضور» بأنها إحدى القرى التي أرادها الله بهذه الآية. فلما علموا شدّة عذابنا وبطشتنا علم حسّ ومشاهدة ، لم يشكوا فيها ، ركضوا من ديارهم. والركض : ضرب الدابة بالرجل. ومنه قوله تعالى ارْكُضْ بِرِجْلِكَ فيجوز أن يركبوا دوابهم يركضونها هاربين منهزمين من قريتهم لما أدركتهم مقدمة العذاب.

ويجوز أن يشبهوا في سرعة عدوهم على أرجلهم بالراكبين الراكضين لدوابهم ، فقيل لهم.

لا تَرْكُضُوا والقول محذوف. فإن قلت : من القائل؟ قلت يحتمل أن يكون بعض الملائكة أو من ثم من المؤمنين أو يجعلوا خلفاء بأن يقال لهم ذلك وإن لم يقل.

(1). قوله «تطلبون بها الثناء أو حسن الذكر» لعله «و حسن الذكر» بالواو فقط. (ع)
(2). متفق عليه عن عائشة بلفظ «كفن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثلاثة أثواب سحولية».
(3). أخرجه الدارقطني في العلل من حديث ابن عمر رضى الله عنهما ، بلفظ «ثلاثة أثواب : ثوبين حضوريين وثوب حبرة» وقال : تفرد به محمد بن إسحاق الصاغاني عن ابن الحوأب عن الثوري عن عاصم بن عبد الله عن سالم عن أبيه بهذا.
«فائدة» «حضور» بفتح المهملة وضم المعجمة : قرية بصنعاء قريبة من قرية عبد الرزاق.

أو يقوله رب العزة ويسمعه ملائكته لينفعهم في دينهم. أو يلهمهم ذلك فيحدثوا به نفوسهم وَارْجِعُوا إِلى ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ من العيش الرأفة والحال الناعمة. والإتراف : إبطار النعمة وهي الترفة لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ تهكم بهم وتوبيخ ، أى: ارجعوا إلى نعيمكم ومساكنكم لعلكم تسئلون غدا عما جرى عليكم ونزل بأموالكم ومساكنكم ، فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة. أو ارجعوا واجلسوا كما كنتم في مجالسكم. وترتبوا في مراتبكم حتى يسألكم عبيدكم وحشمكم ومن تملكون أمره وينفذ فيه أمركم ونهيكم ويقول لكم : بم تأمرون؟ وبماذا ترسمون؟ وكيف نأتى ونذر كعادة المنعمين المخدّمين؟

أو يسألكم الناس في أنديتكم المعاون في نوازل الخطوب ، ويستشيرونكم في المهمات والعوارض ويستشفون بتدابيركم ، ويستضيئون بآرائكم. أو يسألكم الوافدون عليكم والطماع ويستمطرون سحائب أكفكم ، ويمترون أخلاف «1» معروفكم وأياديكم : إما لأنهم كانوا أسخياء ينفقون أموالهم رئاء الناس وطلب الثناء ، أو كانوا بخلاء فقيل لهم ذلك تهكما إلى تهكم ، وتوبيخا إلى توبيخ تِلْكَ إشارة إلى يا ويلنا ، لأنها دعوى ، كأنه قيل : فما زالت تلك الدعوى دَعْواهُمْ والدعوى بمعنى الدعوة. قال تعالى وَآخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ. فإن قلت : لم سميت دعوى؟ قلت : لأن المولول كأنه يدعو الويل ، فيقول تعالى : يا ويل فهذا وقتك. وتِلْكَ مرفوع أو منصوب اسما أو خبرا وكذلك دعواهم. الحصيد : الزرع المحصود ، أى : جعلناهم مثل الحصيد ، شبههم به في استئصالهم واصطلامهم «2» كما تقول : جعلناهم رمادا ، أى مثل الرماد. والضمير المنصوب هو الذي كان

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 16 إلى 17]

وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ (16) لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ (17)
أى : وما سوينا هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من أصناف الخلائق مشحونة بضروب البدائع والعجائب ، كما تسوّى الجبابرة سقوفهم وفرشهم وسائر زخارفهم ،

(1). قوله «و يمترون أخلاف معروفكم» في الصحاح : الريح تمرى السحاب وتمتريه ، أى تستدره. وفيه أيضا : الخلف - بالكسر - حلية ضرع الناقة. (ع)
(2). قوله «و اصطلامهم» في الصحاح «الاصطلام» الاستئصال. (ع)

للهو واللعب ، وإنما سويناها للفوائد الدينية والحكم الربانية ، لتكون مطارح افتكار واعتبار واستدلال ونظر لعبادنا ، مع ما يتعلق لهم بها من المنافع التي لا تعدّ والمرافق التي لا تحصى. ثم بين أنّ السبب في ترك اتخاذ اللهو واللعب وانتفائه عن أفعالى : هو أن الحكمة صارفة عنه ، وإلا فأنا قادر على اتخاذه إن كنت فاعلا لأنى على كل شيء قدير. وقوله لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا كقوله رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا أى من جهة قدرتنا. وقيل : اللهو الولد بلغة اليمن. وقيل المرأة. وقيل من لدنا ، أى من الملائكة لا من الإنس ، ردّا لولادة المسيح وعزير.

[سورة الأنبياء (21) : آية 18]

بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (18)

بَلْ إضراب عن اتخاذ اللهو واللعب ، وتنزيه منه لذاته ، كأنه قال : سبحاننا أن نتخذ اللهو واللعب «1» ، بل من عادتنا وموجب حكمتنا واستغنائنا عن القبيح أن نغلب اللعب بالجد ، وندحض الباطل بالحق. واستعار لذلك القذف «2» والدمغ ، تصويرا لإبطاله وإهداره ومحقه فجعله كأنه جرم صلب كالصخرة مثلا ، قذف به على جرم رخو أجوف فدمغه «3» ، ثم قال وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ به مما لا يجوز عليه وعلى حكمته.

(1). قال محمود : «معناه سبحاننا أن نتخذ لهوا ولعبا ... الخ» قال أحمد : وله تحت قوله واستغنائنا عن القبيح دفين من البدعة والضلالة ، ولكنه من الكنوز التي يحمى عليها في نار جهنم ، وذلك أن القدرية يوجبون على اللّه تعالى رعاية المصالح وفعل ما يتوهمونه حسنا بعقولهم ، ويظنون أن الحكمة تقتضي ذلك ، فلا يستغنى الحكيم على زعمهم عن خلق الحسن على وفق الحكمة بخلاف القبيح ، فان الحكمة تقتضي الاستغناء عنه ، فالى ذلك يلوح الزمخشري وما هي إلا نزعة سبق إليها ضلال الفلاسفة. ومن ثم يقولون : ليس في الإمكان أكمل من هذا العالم ، لأنه لو كان في القدرة أكمل منه وأحسن ، ثم لم يخلقه اللّه تعالى : لكان بخلا ينافي الجود ، أو عجزا ينافي القدرة ، حتى انبعهم في ذلك من لا نسميه من أهل الملة - عفا اللّه عنه - إن كان هذا مما يدخل تحت ذيل العفو. فالحق أن اللّه تعالى مستغن عن جميع الأفعال حسنة كانت أو غيرها ، مصلحة كانت أو مفسدة. وأن له أن لا يخلق ما يتوهمه القدرية حسنا ، وله أن يفعل ما يتوهمونه في الشاهد قبيحا ، وأن كل موجود من فاعل وفعل على الإطلاق فبقدرته وجد ، فليس في الوجود إلا اللّه وصفاته وأفعاله ، وهو مستغن عن العالم بأسره ، وحسنه وقبحه ، فلو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم على أتقى قلب رجل منكم لم يزد ذلك في ملكه شيئا ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم على أفجر قلب رجل منكم لم ينقص ذلك من ملكه شيئا. اللهم ألهمنا الحق واستعملنا به.
(2). عاد كلامه. قال : «و في قوله تعالى بل نقذف بالحق على الباطل استعارة حسنة : استعار القذف ... الخ» قال أحمد : ومثل هذا التنبيه من حسناته ، ولولا أن السيئة التي قبلها تتعلق بالعقيدة لتلوت : إن الحسنات يذهبن السيئات ، واللّه أعلم. [.....]
(3). قوله «فدمغه» في الصحاح : أى شجه حتى بلغت الشجة الدماغ. (ع)

وقرئ : فيدمغه بالنصب ، وهو في ضعف قوله :سأترك منزلي لبنى تميم وألحق بالحجاز فاستريحا «1» وقرئ فيدمغه.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 19 إلى 20]

وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ (19) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لا يَفْتُرُونَ (20)

وَمَنْ عِنْدَهُ هم الملائكة. والمراد أنهم مكرمون ، منزلون - لكرامتهم عليه - منزلة المقرّبين عند الملوك على طريق التمثيل والبيان لشرفهم وفضلهم على جميع خلقه «2». فإن قلت : الاستحسار مبالغة في الحسور «3» ، فكان الأبلغ في وصفهم أن ينفى عنهم أدنى الحسور. قلت في الاستحسار بيان أنّ ما هم فيه يوجب غاية الحسور «4» وأقصاه ، وأنهم أحقاء لتلك العبادات الباهظة بأن يستحسروا فيما يفعلون. أى ، تسبيحهم متصل دائم في جميع أوقاتهم ، لا يتخلله فترة بفراغ أو شغل آخر.

[سورة الأنبياء (21) : آية 21]

أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (21)

هذه أم المنقطعة الكائنة بمعنى بل والهمزة ، قد آذنت بالإضراب عما قبلها والإنكار لما بعدها ، والمنكر : هو اتخاذهم آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ الموتى «5» ، ولعمري أن من أعظم المنكرات أن ينشر الموتى بعض الموات. فإن قلت : كيف أنكر عليهم اتخاذ آلهة تنشر «6» وما كانوا يدعون ذلك لآلهتهم؟ وكيف وهم أبعد شيء عن هذه الدعوى وذلك أنهم كانوا - مع إقرارهم للّه عزّ وجل بأنه خالق السماوات والأرض وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ وبأنه القادر على المقدورات كلها وعلى النشأة الأولى - منكرين البعث ويقولون : من يحيى العظام وهي رميم ، وكان عندهم من قبيل المحال الخارج عن قدرة القادر كثانى القديم ، فكيف يدعونه للجماد الذي لا يوصف بالقدرة رأسا؟ قلت : الأمر كما ذكرت ،

(1). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 557 فراجعه إن شئت اه مصححه.
(2). قوله «لشرفهم وفضلهم على جميع خلقه» هذا عند المعتزلة. أما عند أهل السنة فبعض البشر أفضل. (ع)
(3). قال محمود : «إن قلت لم استعمل الاستحسار هاهنا في النفي ... الخ» قال أحمد : وبمثله أجيب عن قوله تعالى وَما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ فانظره.
(4). قوله «يوجب غاية الحسور» أى الكلال. أفاده الصحاح. (ع)
(5). قوله «هم ينشرون الموتى» الأبشار : الأحياء بعد الموت. أفاده الصحاح. (ع)
(6). قال محمود : «إن قلت كيف أنكر عليهم اتخاذ آلهة ... الخ» قال أحمد : فيكون المنكر عليهم صريح الدعوى ولازمها وهو أبلغ في الإنكار ، واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

ولكنهم بادّعائهم لها الإلهية ، يلزمهم أن يدعوا لها الإنشار ، لأنه لا يستحق هذا الاسم إلا القادر على كل مقدور ، والإنشار من جملة المقدورات. وفيه باب من التهكم بهم والتوبيخ والتجهيل ، وإشعار بأنّ ما استبعدوه من اللّه لا يصح استبعاده ، لأنّ الإلهية لما صحت صحّ معها الاقتدار على الإبداء والإعادة. ونحو قوله مِنَ الْأَرْضِ قولك : فلان من مكة أو من المدينة ، تريد : مكي أو مدنى. ومعنى نسبتها إلى الأرض : الإيذان بأنها الأصنام التي تعبد في الأرض : لأنّ الآلهة على ضربين : أرضية وسماوية. ومن ذلك حديث الأمة التي قال لها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «أين ربك»؟ فأشارت إلى السماء ، فقال إنها مؤمنة «1» لأنه فهم منها أنّ مرادها نفى الآلهة الأرضية التي هي الأصنام ، لا إثبات السماء مكانا للّه عزّ وجلّ. ويجوز أن يراد آلهة من جنس الأرض ، لأنها إمّا أن تنحت من بعض الحجارة ، أو تعمل من بعض جواهر الأرض. فإن قلت : لا بدّ من نكتة في قوله هُمْ «2» قلت : النكتة فيه إفادة معنى الخصوصية ، كأنه قيل : أم اتخذوا آلهة لا يقدر على الإنشار إلا هم وحدهم. وقرأ الحسن يُنْشِرُونَ وهما لغتان : أنشر اللّه الموتى ، ونشرها. وصفت آلهة بإلا كما توصف بغير ، لو قيل آلهة غير اللّه.

(1). أخرجه مسلم وأبو داود وغيرهما من حديث معاوية بن الحكم السلمي.
(2). عاد كلامه. قال محمود : «إن قلت لا بد لقوله هُمْ من فائدة ، وإلا فالكلام مستقل بدونها ... الخ» قال أحمد : وفي هذه النكتة نظر، لأن آلات الحصر مفقودة ، وليس ذلك من قبيل : صديقي زيد ، فان المبتدأ في الآية أخص شيء لأنه ضمير. وأيضا فلا ينبغي على ذلك إلزامهم حصر الألوهية فيهم ، وتخصيص الانشار بهم ، ونفيه عن اللّه تعالى ، إذ هذا لا يناسب السياق ، فانه قال عقبها : لو كان فيهما آلهة إلا اللّه لفسدتا. ومعناه : لو كان فيهما إله غير اللّه شريكا للّه لفسدتا ، وكان مقتضى ما قال الزمخشري أن يقال : لو لم يكن فيهما آلهة إلا الأصنام لفسدتا. وأما والمتلوّ على خلاف ذلك ، فلا وجه لما قال الزمخشري. وعندي أنه يحتمل واللّه أعلم أن تكون فائدة قوله هُمْ الإيذان بأنهم لم يدعوا لها الانشار ، وأن قوله هُمْ يُنْشِرُونَ استئناف إلزام لهم ، وكأنه قال : اتخذوا آلهة مع اللّه عز وجل فهم إذن يحيون الموتى ضرورة كونهم آلهة ، ثم لما انتظم من دعواهم الألوهية للأصنام وإلزامهم علي ذلك أن يصفوهم بالقدرة الكاملة على إحياء الموتى ، نظم في إبطال هذه الدعوى وما ألزمهم عليها دليل قوله تعالى لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا وأزيد هذا التقرير وضوحا فأقول : إن دليل التمانع المغترف من بحر هذه الآية ، المقتبس من نورها ، يورده المتكلمون على صورة التقسيم ، فيقولون : لو وجد مع اللّه إله آخر ، وربما قالوا : لو فرضنا وجود إلهين ، فاما أن يكونا جميعا موصوفين بصفات الكمال اللاتي يندرج فيها القدرة على إحياء الموتى وإنشارهم وغير ذلك من الممكنات ، أو لا يتصف بها واحد منهما أو أحدهما دون الآخر ، ثم يحيلون جميع الأقسام وهو المسمى برهان الخلف. وأدق الأقسام إبطالا قسم اتصافهما جميعا بصفات الكمال ، وما عداه فبادئ الرأى يبطل.
فانظر كيف اختار له تعالى إبطال هذا القسم الخفي البطلان ، فأوضح فساده في أخصر أسلوب وأوجزه ، وأبلغ بديع الكلام ومعجزه. وإنما ينتظم هذا على أن يكون المقصد من قوله هُمْ يُنْشِرُونَ إلزامهم ادعاء صفات الألوهية لآلهتهم ، حتى يتحرى أنهم اختاروا القسم

[سورة الأنبياء (21) : آية 22]

لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (22)

فإن قلت : ما منعك من الرفع على البدل؟ قلت : لأنّ «لو» بمنزلة «إن» في أنّ الكلام معه موجب ، والبدل لا يسوّغ إلا في الكلام غير الموجب ، كقوله تعالى وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ وذلك لأنّ أعم العامّ يصح نفيه ولا يصح إيجابه. والمعنى : لو كان يتولاهما ويدبر أمرهما آلهة شتى غير الواحد الذي هو فاطرهما لفسدتا. وفيه دلالة على أمرين ، أحدهما : وجوب أن لا يكون مدبرهما إلا واحدا. والثاني : أن لا يكون ذلك الواحد إلا إياه وحده ، لقوله إِلَّا اللَّهُ. فإن قلت : لم وجب الأمران؟ قلت : لعلمنا أنّ الرعية تفسد بتدبير الملكين لما يحدث بينهما من التغالب والتناكر والاختلاف. وعن عبد الملك بن مروان حين قتل عمرو ابن سعيد الأشدق : كان والله أعزّ علىّ من دم ناظري ، ولكن لا يجتمع فحلان في شول «1» وهذا ظاهر. وأمّا طريقة التمانع فللمتكلمين فيها تجاول وطراد ، ولأنّ هذه الأفعال محتاجة إلى تلك الذات المتميزة بتلك الصفات حتى تثبت وتستقرّ.

[سورة الأنبياء (21) : آية 23]

لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ (23)

إذا كانت عادة الملوك والجبابرة أن لا يسألهم من في مملكتهم عن أفعالهم وعما يوردون ويصدرون من تدبير ملكهم ، تهيبا وإجلالا ، مع جواز الخطإ والزلل وأنواع الفساد عليهم - كان ملك الملوك وربّ الأرباب خالقهم ورازقهم أولى بأن لا يسئل عن أفعاله ، مع ما علم واستقرّ في العقول من أن ما يفعله كله مفعول بدواعى الحكمة ، ولا يجوز عليه الخطأ «2» ولا فعل القبائح «3»

---

(1). قوله «لا يجتمع فحلان في شول» في الصحاح «الشول» النوق التي خف لبنها وارتفع ضرعها. (ع)

(2). قال محمود : «لما بين تعالى أنه رب الأرباب وخالقهم ومالكهم ، ناسب هذا التنبيه على ما يجب له تعالى علي خلقه من الإجلال والإعظام ، فان آحاد الملوك تمنع مهابته أن يسئل عن فعل فعله ، فما ظنك بخالق الملوك وربهم. ثم إن آحاد الملوك يجوز عليهم الخطأ والزلل وقد استقر في العقول أن أفعال الله تعالى كلها مفعول بدواعى الحكمة ، ولا يجوز عليه الخطأ ولا فعل القبائح» قال أحمد: سحقا لها من لفظة ما أسوأ أدبها مع الله تعالى ، أعنى قوله :

دواعي الحكمة ، فان الدواعي والصوارف إنما تستعمل في حق المحدثين ، كقولك : هو مما توفر دواعي الناس إليه أو صوارفهم عنه.

وقوله «لا يجوز عليه فعل القبائح» قلت : وهذا من الطراز الأول ، ولو أنه في الذيل :

فقد نسيت وما بالعهد من قدم

وبعد ما انقضى دليل التوحيد وإبطال الشرك من سمعك أيها الزمخشري ، وقلمك رطب بتقريره ، فلم نكصت وانتكست؟ أتقول إن أحدا شريك لله في ملكه يفعل ما يشاء من الأفعال التي تسميها قبائح فتنفيها عن قدرة الله تعالى وإرادته. وما الفرق بين من يشرك لله ملكا من الملائكة ، وبين من يشرك نفسه بربه حتى يقول : إنه يفعل ويخلق لنفسه شاء الله أو لم يشأ ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا. والقدرية ارتضوا لأنفسهم شر شرك ، لأن غيرهم أشرك بالملائكة ، وهم أشركوا بنفوسهم وبالشياطين والجن وجميع الحيوانات، نعوذ بمالك الملك من مسالك الهلك.

(3). قوله «و لا يجوز عليه الخطأ ولا فعل القبائح» هذا عند المعتزلة. أما عند أهل السنة فهو الفاعل للخير والشر ، كما بين في علم التوحيد. (ع)

وَهُمْ يُسْئَلُونَ أى هم مملوكون مستعبدون خطاءون ، فما خلقهم بأن يقال لهم : لم فعلتم؟ في كل شيء فعلوه.

[سورة الأنبياء (21) : آية 24]

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ هذا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (24)

كرّر أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً استفظاعا لشأنهم واستعظاما لكفرهم ، أى : وصفتم الله تعالى بأنّ له شريكا ، فهاتوا برهانكم على ذلك : إمّا من جهة العقل ، وإمّا من جهة الوحى ، فإنكم لا تجدون كتابا من كتب الأوّلين إلا وتوحيد الله وتنزيهه عن الأنداد مدعوّ إليه ، والإشراك به منهى عنه متوعد عليه. أى هذا الوحى الوارد في معنى توحيد الله ونفى الشركاء عنه ، كما ورد علىّ فقد ورد على جميع الأنبياء ، فهو ذكر : أى عظة للذين معى : يعنى أمّته ، وذكر للذين من قبلي : يريد أمم الأنبياء عليهم السلام. وقرئ ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي

وإدخال الجار على «مع» غريب ، والعذر فيه أنه اسم هو ظرف ، نحو : قبل ، وبعد ، وعند ، ولدن ، وما أشبه ذلك ، فدخل عليه «من» كما يدخل على أخواته. وقرئ : ذكر معى وذكر قبلي. كأنه قيل : بل عندهم ما هو أصل الشرّ والفساد كله وهو الجهل وفقد العلم ، وعدم التمييز بين الحق والباطل ، فمن ثم جاء هذا الإعراض ، ومن هناك ورد هذا الإنكار. وقرئ «الحق» بالرفع على توسيط التوكيد بين السبب والمسبب. والمعنى أن إعراضهم بسبب الجهل هو الحق لا الباطل.

ويجوز أن يكون المنصوب أيضا على هذا المعنى ، كما تقول : هذا عبد الله الحق لا الباطل.

[سورة الأنبياء (21) : آية 25]

وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ (25)

يوحى ونُوحِي: مشهورتان. وهذه الآية مقرّرة لما سبقها من آي التوحيد.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 26 إلى 29]

وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ (26) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (27) يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (28) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلهٌ مِنْ دُونِهِ فَذلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (29)

نزلت في خزاعة حيث قالوا الملائكة بنات الله. نزه ذاته عن ذلك ، ثم أخبر عنهم بأنهم عباد والعبودية تنافى الولادة ، إلا أنهم مُكْرَمُونَ مقرّبون عندي مفضلون «1» على سائر العباد ، «2» لما هم عليه من أحوال وصفات ليست لغيرهم ، فذلك هو الذي غرّ منهم من زعم أنهم أولادى ، تعاليت عن ذلك علوا كبيرا. وقرئ مكرّمون. ولا يَسْبِقُونَهُ بالضم ، من : سابقته فسبقته أسبقه. والمعنى : أنهم يتبعون قوله ولا يقولون شيئا حتى يقوله ، فلا يسبق قولهم قوله. والمراد : بقولهم ، فأنيب اللام مناب الإضافة ، أى لا يتقدّمون قوله بقولهم ، كما تقول : سبقت بفرسي فرسه ، وكما أنّ قولهم تابع لقوله ، فعملهم أيضا كذلك مبنى على أمره : لا يعملون عملا ما لم يؤمروا به. وجميع ما يأتون ويذرون مما قدّموا وأخروا بعين الله ، وهو مجازيهم عليه ، فلإحاطتهم بذلك يضبطون أنفسهم ، ويراعون أحوالهم ، ويعمرون أوقاتهم. ومن تحفظهم أنهم لا يجسرون أن يشفعوا إلا لمن ارتضاه الله وأهله للشفاعة في ازدياد الثواب والتعظيم ، ثم أنهم مع هذا كله من خشية الله مُشْفِقُونَ أى متوقعون من أمارة ضعيفة ، كائنون على حذر ورقبة «3» لا يأمنون مكر الله. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى جبريل عليه السلام ليلة المعراج ساقطا كالحلس «4» من خشية «5» الله ، وبعد أن وصف كرامتهم عليه، وقرب منزلتهم عنده ، وأثنى عليهم ، وأضاف إليهم تلك الأفعال السنية والأعمال المرضية.

---

(1). قال محمود : «معناه مكرمون مفضلون على سائر عباد الله» قال أحمد : وهذا التفسير من جعل القرآن تبعا للرأى ، فانه لما كان يعتقد تفضيل الملائكة على الرسل نزل الآية على معتقده ، وليس غرضنا إلا بيان أنه حمل الآية ما لا تحتمله ، وتناول منها ما لا تعطيه ، لأنه ادعى أنهم مكرمون على سائر الخلق لا على بعضهم ، فدعواه شاملة ودليله مطلق ، والله الموفق.
(2). قوله «مفضلون على سائر العباد» هذا عند المعتزلة ، وبعض البشر أفضل منهم عند أهل السنة. (ع) [.....]
(3). قوله «و رقبة» بالكسر ، أى : انتظار. أفاده الصحاح. (ع)
(4). قوله «كالحلس» بكسر فسكون. أو بفتحتين : كساء رقيق يكون تحت البرذعة أو تحت الرحل. أفاده الصحاح. (ع)
(5). أخرجه ابن خزيمة من رواية مرة عن ابن مسعود «أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر سدرة المنتهى - الحديث» قال فوقع جبريل فصار كالحلس الملقى» إسناده قوى. وغلط ابن الجوزي في تضعيفه لمحمد بن ميمون شيخ ابن خزيمة ، فانه ثقة - وفي الطبراني الأوسط وتفسير ابن مردويه من رواية عبد الكريم الجزري عن عطاء عن جابر رفعه «مررت في السماء الرابعة بجبريل ، وهو كالحلس البالي من خشية الله» إسناده قوى. وروى ابن خزيمة في التوحيد وابن سعد وسعيد بن منصور والبزار والبيهقي في الشعب والدلائل والطبراني في الأوسط ، كلهم من رواية أبى قلابة الحارث بن أبى عمران الحوفى عن أنس رفعه «بينما أنا قاعد إذ جاء جبريل. فوكز بين كتفي فقمت إلى شجرة فيها كوكرى الطائر فقعد في أحدهما وقعدت في الآخر. فسمت بنا فارتفعت حتى سدت الخافقين وأنا أقلب طرفى. ولو شئت أن أمسس لمسست. فالتفت إلى جبريل كأنه حلس لاطئ. فعرفت فضل علمه بالله علىّ. وفتح لي باب من أبواب السماء فرأيت النور الأعظم - الحديث» قال البزار : لا نعلم رواه عن أبى عمران إلا الحرث بن عبيد وقال غيره : خالفه حماد بن سلمة عن أبى عمران إلا الحرث بن عبيد وقال غيره : خالفه حماد ابن سلمة عن أبى عمران. فقال : عن محمد بن عمير بن عطاء مرسلا كذلك أخرجه ابن المبارك في الزهد عن حماد.

وفي رواية «فعرفت فضل خشيته على خشيتي» وزاد فيه فأوحى الله إليه أنبيا عبدا أم نبيا ملكا. فاومأ إلى جبريل عليه السلام : بل نبيا عبدا.

فاجأ بالوعيد الشديد ، وأنذر بعذاب جهنم من أشرك منهم إن كان «1» ذلك على سبيل الفرض والتمثيل ، مع إحاطة علمه بأنه لا يكون ، كما قال وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ ما كانُوا يَعْمَلُونَ قصد بذلك تفظيع أمر الشرك وتعظيم شأن التوحيد.

[سورة الأنبياء (21) : آية 30]

أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ(30)

قرئ «ا لم تر» بغير واو. ورَتْقاً بفتح التاء ، وكلاهما في معنى المفعول ، كالخلق والنقض ، أى : كانتا مرتوقتين. فإن قلت : الرتق صالح أن يقع موقع مرتوقتين لأنه مصدر ، ؟؟؟

بال الرتق؟ قلت : هو على تقرير موصوف ، أى : كانتا شيئا رتقا. ومعنى ذلك : أن السماء كانت لاصقة بالأرض لا فضاء بينهما. أو كانت السماوات متلاصقات ، وكذلك الأرضون لا فرج بينها ففتقها الله وفرّج بينها. وقيل : ففتقناهما بالمطر والنبات بعد ما كانت مصمتة ، وإنما قيل : كانتا دون كنّ ، لأنّ المراد جماعة السماوات وجماعة الأرض ، ونحوه قولهم : لقاحان سوداوان ، أى : جماعتان ، فعل في المضمر نحو ما فعل في المظهر. فإن قلت : متى رأوهما رتقا حتى جاء تقريرهم بذلك؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أنه وارد في القرآن الذي هو معجزة في نفسه ، فقام مقام المرئىّ المشاهد. والثاني : أن تلاصق الأرض والسماء وتباينهما كلاهما جائز في العقل ، فلا بدّ للتباين دون التلاصق من مخصص وهو القديم سبحانه وَجَعَلْنا لا يخلو أن يتعدى إلى واحد أو اثنين ، فإن تعدّى إلى واحد ، فالمعنى : خلقنا من الماء كل حيوان ، كقوله وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ ماءٍ أو كأنما خلقناه من الماء لفرط احتياجه إليه وحبه له وقلة صبره عنه ، كقوله تعالى خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ وإن تعدى إلى اثنين فالمعنى : صيرنا كل شيء حىّ بسبب من الماء لا بدّ له منه. و«من» هذا «2» نحو «من» في قوله عليه السلام «3»

---

(1). قوله «إن كان» لعله : إذ كان. (ع)
(2). قوله «و من هذا» لعله «و من هنا». (ع)
(3). أخرجه البخاري في الأدب المفرد والبزار والطبراني من رواية يحيى بن محمد بن قيس عن عمرو بن أبى عمرو عن أنس. زاد البزار قال يحيى : يقول : «لست من الباطل ولا الباطل منى» قال : لا نعلمه إلا عن أنس من هذا الوجه. واستنكره ابن عدى ليحيى بن محمد بن قيس. وقال ابن أبى حاتم : رواه الدراوردي عن عمرو عن المطلب عن معاوية نحوه مرفوعا ونقل عن أبيه وأبى زرعة أن رواية الدراوردي أشبه بالصواب.

«ما أنا من دد ولا الدد منى» «1» وقرئ : حيا ، وهو المفعول الثاني. والظرف لغو.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 31 إلى 32]

وَجَعَلْنا فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنا فِيها فِجاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (31) وَجَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آياتِها مُعْرِضُونَ (32)

أى كراهة أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وتضطرب. أو لئلا تميد بهم ، فحذف «لا» واللام. وإنما جاز حذف «لا» لعدم الالتباس «2» ، كما تزاد لذلك في نحو قوله لِئَلَّا يَعْلَمَ وهذا مذهب الكوفيين.

الفج : الطريق الواسع. فإن قلت : في الفجاج معنى الوصف ، فما لها قدمت على السبل ولم تؤخر كما في قوله تعالى لِتَسْلُكُوا مِنْها سُبُلًا فِجاجاً؟ قلت : لم تقدّم وهي صفة ، ولكن جعلت حالا كقوله : لعزّة موحشا طلل قديم«3»

إن قلت : ما الفرق بينهما من جهة المعنى؟ قلت : أحدهما : الإعلام بأنه جعل فيها طرقا واسعة.

---

(1). قوله عليه السلام : «ما أنا من دد» في الصحاح : الدد : اللهو واللعب. (ع)

(2). قال محمود : «معناه كراهة أن تميد بهم ، أو تكون لا محذوفة لأمن الإلباس» قال أحمد : وأولى من هذين الوجهين أن يكون من قولهم : أعددت هذه الخشبة أن تميل الحائط فأدعمه. قال سيبويه : ومعناه أن أدعم الحائط إذا مال. وإنما قدم ذكر الميل اهتماما بشأنه ، ولأنه أيضا هو السبب في الادعام ، والادعام سبب في إعداد الخشبة ، فعامل سبب السبب معاملة السبب. وعليه حمل قوله تعالى أَنْ تَضِلَّ إِحْداهُما فَتُذَكِّرَ إِحْداهُمَا الْأُخْرى كذلك ما نحن فيه يكون الأصل : وجعلنا في الأرض رواسى لأجل أن تثبتها إذا مادت بهم «فجعل الميد هو السبب» كما جعل الميل في المثل المذكور سببا ، وصار الكلام : وجعلنا في الأرض رواسى أن تميد فنثبتها ، ثم حذف قوله «فنثبتها» لأمن الإلباس إيجازا واختصارا ، وهذا التقرير أقرب إلى الواقع مما أول الزمخشري الآية عليه ، فان مقتضى تأويله أن لا تميد الأرض بأهلها ، لأن الله كره ذلك ، ومكروه الله تعالى محال أن يقع ، كما أن مراده واجب أن يقع ، والمشاهد خلاف ذلك ، فكم من زلزلة مادت لها الأرض وكادت تقلب عاليها سافلها. وأما على تقريرنا فالمراد أن الله تعالى يثبت الأرض بالجبال إذا مادت ، وهذا لا يأبى وقوع الميد ، كما أن قوله أَنْ تَضِلَّ إِحْداهُما فَتُذَكِّرَ إِحْداهُمَا الْأُخْرى لا يأبى وقوع الضلال والنسيان من إحداهما، لكنه ميد يستعقبه التثبيت ، وكذلك الواقع من الزلازل إنما هو كاللمحة ثم يثبتها الله تعالى.

(3) لعزة موحشا طلل قديم عفاه كل أسحم مستديم

لكثير. والطلل : ما شخص من آثار الدار ، والصفة إذا تقدمت على موصوفها كانت حالا منه كما هنا ، لأن مذهب الكوفيين والأخفش أن «طلل» فاعل الظرف قبله وأن يعتمد. و«موحشا» حال منه مقدمة عليه. ويجوز أنه مبتدأ. وموحشا حال من الضمير المستتر في الظرف. وأجاز سيبويه أنه حال من المبتدإ المؤخر. وعاملها الاستقرار المحذوف ، ولا يمتنع عنده اختلاف عامل الحال وعامل صاحبها ، خلافا للجمهور. والموحش : الموقع في الوحشة ، ضد المؤنس : الموقع في الأنس. ويجوز أن معناه كثير الوحوش. وعفاه: أهلكه. والاسم : صفة السحاب ، أى : كل أسود دائم الأمطار. ويروى هكذا

لمية موحشا طلل يلوح كأنه خلل

وهي بالكسر :

جمع خلة ، وهي بطانة مخططة تغشى بها جفان السيوف ، وسيور تلبس ظهور القسي.

والثاني : بأنه حين خلقها خلقها على تلك الصفة ، فهو بيان لما أبهم ثمة ، محفوظا حفظه بالإمساك بقدرته من أن يقع على الأرض ويتزلزل «1» ، أو بالشهب عن تسمع الشياطين على سكانه من الملائكة عَنْ آياتِها أى عما وضع الله فيها من الأدلة والعبر بالشمس «2» والقمر وسائر النيرات ، ومسايرها وطلوعها وغروبها ، على الحساب القويم والترتيب العجيب ، الدال على الحكمة البالغة والقدرة الباهرة ، وأىّ جهل أعظم من جهل من أعرض عنها ولم يذهب به وهمه إلى تدبرها ، والاعتبار بها ، والاستدلال على عظمة شأن من أوجدها عن عدم ، ودبرها ونصبها هذه النصبة ، وأودعها ما أودعها مما لا يعرف كنهه إلا هو عزت قدرته ولطف علمه. وقرئ عن آيتها ، على التوحيد ، اكتفاء بالواحدة في الدلالة على الجنس أى : هم متفطنون لما يرد عليهم من السماء من المنافع الدنيوية ، كالاستضاءة بقمريها ، والاهتداء بكواكبها ، وحياة الأرض والحيوان بأمطارها ، وهم عن كونها آية بينة على الخالق مُعْرِضُونَ.

[سورة الأنبياء (21) : آية 33]

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (33)

كُلٌّ التنوين فيه عوض من المضاف إليه ، أى : كلهم فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ والضمير للشمس والقمر ، والمراد بهما جنس الطوالع كل يوم وليلة ، جعلوها متكاثرة لتكاثر مطالعها وهو السبب في جمعهما بالشموس والأقمار ، وإلا فالشمس واحدة والقمر واحد ، وإنما جعل الضمير واو العقلاء للوصف بفعلهم وهو السباحة. فإن قلت : الجملة ما محلها؟ قلت : محلها النصب على الحال من الشمس والقمر. فإن قلت : كيف استبدّ بهما دون الليل والنهار بنصب الحال عنهما؟ قلت : كما تقول : رأيت زيدا وهندا متبرجة ونحو ذلك ، إذا جئت بصفة يختص بها بعض ما تعلق به العامل. ومنه قوله تعالى في هذه السورة وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ نافِلَةً أو لا محل لها لاستئنافها. فإن قلت : لكل واحد من القمرين فلك على حدة ، فكيف قيل : جميعهم يسبحون في فلك؟ قلت : هذا كقولهم «كساهم الأمير حلة وقلدهم سيفا» أى كل واحد منهم ، أو كساهم وقلدهم هذين الجنسين ، فاكتفى بما يدل على الجنس اختصارا ، ولأنّ الغرض الدلالة على الجنس.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 34 إلى 35]

وَما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخالِدُونَ (34) كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنا تُرْجَعُونَ (35)

كانوا يقدّرون أنه سيموت فيشمتون بموته ، فنفى الله تعالى عنه الشماتة بهذا ، أى : قضى الله أن لا يخلد في الدنيا بشرا ،

(1). قوله «و يتزلزل» لعله : أو يتزلزل. (ع)

(2). قوله «و العبر بالشمس» لعله «كالشمس ... الخ» كعبارة النسفي. (ع)

فلا أنت ولا هم إلا عرضة للموت. فإذا كان الأمر كذلك فإن مت أنت أيبقى هؤلاء؟ وفي معناه قول القائل : فقل للشّامتين بنا أفيقوا سيلقى الشّامتون كما لقينا «1» أى نختبركم بما يجب فيه الصبر من البلايا ، وبما يجب فيه الشكر من النعم ، وإلينا مرجعكم فنجازيكم على حسب ما يوجد منكم من الصبر أو الشكر ، وإنما سمى ذلك ابتلاء وهو عالم بما سيكون من أعمال العاملين قبل وجودهم ، لأنه في صورة الاختبار. وفِتْنَةً مصدر مؤكد لنبلوكم من غير لفظه.

[سورة الأنبياء (21) : آية 36]

وَإِذا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمنِ هُمْ كافِرُونَ (36)

الذكر يكون بخير وبخلافه ، فإذا دلت الحال على أحدهما أطلق ولم يقيد ، كقولك للرجل : سمعت فلانا يذكرك ، فإن كان الذاكر صديقا فهو ثناء ، وإن كان عدوّا فذمّ «2». ومنه قوله تعالى سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ وقوله أَهذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ والمعنى أنهم عاكفون على ذكر آلهتهم بهممهم وما يجب أن لا تذكر به ، من كونهم شفعاء وشهداء. ويسوءهم أن يذكرها ذاكر بخلاف ذلك. وأما ذكر الله وما يجب أن يذكر به من الوحدانية ، فهم به كافرون لا يصدّقون به أصلا فهم أحق بأن يتخذوا هزؤا منك ، فإنك محق وهم مبطلون. وقيل معنى بِذِكْرِ الرَّحْمنِ قولهم :

(1) وما أن طبنا جبن ولكن منايانا ودولة آخرينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا
لذي الأصبع العدواني. وقيل : لفروة بن مسبك المرادي. وقيل للفرزدق. والطب - بالكسر - : العادة والعاهة. وأن زائدة ، ويمكن أنها لتوكيد النفي ، أى : ليست عادتنا أو علتنا الجبن ، ولكن تلك المصيبات منايانا المقدرة لنا أو لكن علتنا منايانا. والدولة : النوبة من النصر ، لأنه يتداول بين الجيشين. والشامت : المتشفى من غيظه بما أصاب عدوه. وشبههم بالسكارى على سبيل المكنية لعدم تيقظهم للعواقب ، وأمرهم بالافاقة تخبيل ، وبين ذلك بقوله : سيلقون من الهزيمة مثل ما لقينا ، وتكون الدولة لنا عليهم فليفيقوا من سكرتهم.

(2). قال محمود : «الذكر يكون بخير وبخلافه فإذا دلت الحال على أحدهما أطلق ولم يقيد بقيد القرينة ، فان كان الذاكر صديقا فهم منه الخير ، وإن كان عدوا فهم منه الذم» قال أحمد : وكذلك القول. ومنه قول موسى عليه السلام : أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَكُمْ معناه أتعيبون الحق لما جاءكم ، ثم ابتدأ فقال أَسِحْرٌ هذا وإنما لم يجعله معمولا للقول ومحكيا به ، لأنهم قفوا القول بأنه سحر فقالوا إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ولم يشككوا أنفسهم ، ولا استفهموا ، وقد مضى فيه غير هذا ، وإنما أطلقوا في قولهم أَهذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ولم يقولوا : هذا الذي يذكر آلهتكم بكل سوء ، لأنهم استفظعوا حكاية ما يقوله النبي من القدح في آلهتهم ، رميا بأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر ، وحاشوها من نقل ذمها مفصلا ، فأوموا إليه بالاشارة المذكورة ، كما يتحاشى المؤمن من حكاية كلمة الكفر ، فيومى إليها بلفظ يفهم المقصود بطريق التعريض. فسبحان من أضلهم حتى تأدبوا مع الأوثان ، وأساؤا الأدب على الرحمن.

ما نعرف الرحمن إلا مسيلمة ، وقولهم وَمَا الرَّحْمنُ أَنَسْجُدُ لِما تَأْمُرُنا وقيل بِذِكْرِ الرَّحْمنِ بما أنزل عليك من القرآن. والجملة في موضع الحال ، أى : يتخذونك هزؤا ، وهم على حال هي أصل الهزء والسخرية وهي الكفر بالله.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 37 إلى 38]

خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آياتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (37) وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (38)

كانوا يستعجلون عذاب الله وآياته الملجئة إلى العلم والإقرار وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ فأراد نهيهم عن الاستعجال وزجرهم ، فقدم أو لا ذم الإنسان على إفراط العجلة ، وأنه مطبوع عليها ، ثم نهاهم وزجرهم ، كأنه قال : ليس ببدع منكم أن تستعجلوا فإنكم مجبولون على ذلك وهو طبعكم وسجيتكم. وعن ابن عباس رضى الله عنه : أنه أراد بالإنسان آدم عليه السلام ، وأنه حين بلغ الروح صدره ولم يتبالغ فيه أراد أن يقوم. وروى أنه لما دخل الروح في عينه نظر إلى ثمار الجنة ، ولما دخل جوفه اشتهى الطعام. وقيل خلقه الله تعالى في آخر النهار يوم الجمعة قبل غروب الشمس ، فأسرع في خلقه قبل مغيبها. وعن ابن عباس رضى الله عنه أنه النضر بن الحرث. والظاهر أن المراد الجنس. وقيل «العجل» : الطين ، بلغة حمير. وقال شاعرهم : والنّخل ينبت بين الماء والعجل «1»

والله أعلم بصحته. فإن قلت : لم نهاهم عن الاستعجال مع قوله خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ وقوله وَكانَ الْإِنْسانُ عَجُولًا أليس هذا من تكليف ما لا يطاق؟ قلت : هذا كما ركب فيه الشهوة وأمره أن يغلبها ، لأنه أعطاه القدرة التي يستطيع بها قمع الشهوة وترك العجلة. وقرئ : خلق الإنسان.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 39 إلى 40]

لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ (39) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّها وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ (40)

(1) النبع في الصخرة الصماء منبته والنخل ينبت بين الماء والعجل
يقول : النبع وهو شجر تتخذ منه القسي ، في الصخرة الصماء الصلبة لا في غيرها ، منبته أى نباته ، والنخل ينبت في الأرض اللينة الريانة ، فهو بين الماء والعجل ، أى : الطين. وهذه لغة حمير كما قيل. والظاهر أن الشطر الأول التمثيل للصعب البخيل. والثاني للسهل الجواد. ويجوز أن الأول للشجاع. والثاني للجبان لشدة الأول ورخاوة الثاني. [.....]

جواب لَوْ محذوف. وحِينَ مفعول به ليعلم ، أى : لو يعلمون الوقت الذي يستعلمون عنه بقولهم مَتى هذَا الْوَعْدُ وهو وقت صعب شديد تحيط بهم فيه النار من وراء وقدّام ، فلا يقدرون على دفعها ومنعها من أنفسهم ، ولا يجدون ناصرا ينصرهم : لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال ، ولكن جهلهم به هو الذي هوّنه عندهم. ويجوز أن يكون يَعْلَمُ متروكا بلا تعدية ، بمعنى : لو كان معهم علم ولم يكونوا جاهلين لما كانوا مستعجلين.

وحين : منصوب بمضمر ، أى حين لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ يعلمون أنهم كانوا على الباطل وينتفي عنهم هذا الجهل العظيم ، أى : لا يكفونها ، بل تفجؤهم فتغلبهم. يقال للمغلوب في المحاجة : مبهوت. ومنه : فبهت الذي كفر ، أى : غلب إبراهيم عليه السلام الكافر. وقرأ الأعمش : يأتيهم. فيبهتهم ، على التذكير. والضمير للوعد أو للحين. فإن قلت : فإلام يرجع الضمير المؤنث في هذه القراءة؟ قلت : إلى النار أو إلى الوعد ، لأنه في معنى النار وهي التي وعدوها أو على تأويل العدة أو الموعدة. أو إلى الحين ، لأنه في معنى الساعة. أو إلى البغتة. وقيل في القراءة الأولى : الضمير للساعة. وقرأ الأعمش : بغتة ، بفتح الغين وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ تذكير بإنظاره إياهم وإمهاله ، وتفسيح وقت التذكر عليهم ، أى : لا يمهلون بعد طول الإمهال.

[سورة الأنبياء (21) : آية 41]

وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (41)

سلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن استهزائهم به بأن له في الأنبياء عليهم السلام أسوة وأن ما يفعلونه به يحيق بهم ، كما حاق بالمستهزئين بالأنبياء عليهم السلام ما فعلوا.

[سورة الأنبياء (21) : آية 42]

قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ مِنَ الرَّحْمنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ (42)

مِنَ الرَّحْمنِ أى من بأسه وعذابه بَلْ هُمْ معرضون عن ذكره لا يخطرونه ببالهم ، فضلا أن يخافوا بأسه ، حتى إذا رزقوا الكلاءة منه عرفوا من الكالئ وصلحوا للسؤال عنه.

والمراد أنه أمر رسوله عليه الصلاة والسلام بسؤالهم عن الكالئ ، ثم بين أنهم لا يصلحون لذلك لإعراضهم عن ذكر من يكلؤهم

[سورة الأنبياء (21) : آية 43]

أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنا لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ (43)

ثم أضرب عن ذلك بما في «أم» من معنى «بل» وقال أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ من العذاب تتجاوز منعنا وحفظنا. ثم استأنف فبين أنّ ما ليس بقادر على نصر نفسه ومنعها ولا بمصحوب من اللّه بالنصر والتأييد ، كيف يمنع غيره وينصره؟

[سورة الأنبياء (21) : آية 44]

بَلْ مَتَّعْنا هؤُلاءِ وَآباءَهُمْ حَتَّى طالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها أَفَهُمُ الْغالِبُونَ(44)

ثم قال : بل ما هم فيه من الحفظ والكلاءة إنما هو منا ، لا من مانع يمنعهم من إهلاكنا ، وما كلأناهم وآباءهم الماضين إلا تمتيعا لهم بالحياة الدنيا وإمهالا ، كما متعنا غيرهم من الكفار وأمهلناهم حَتَّى طالَ عَلَيْهِمُ الأمد ، وامتدت بهم أيام الروح والطمأنينة ، فحسبوا أن لا يزالوا على ذلك لا يغلبون ولا ينزع عنهم ثوب أمنهم واستمتاعهم ، وذلك طمع فارغ وأمد كاذب أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا ننقص أرض الكفر ودار الحرب ، ونحذف أطرافها بتسليط المسلمين عليها وإظهارهم على أهلها وردّها دار إسلام. فإن قلت : أى فائدة في قوله نَأْتِي الْأَرْضَ؟ قلت فيه تصوير ما كان اللّه يجريه على أيدى المسلمين ، وأن عساكرهم وسراياهم كانت تغزو أرض المشركين وتأتيها غالبة عليها ، ناقصة من أطرافها.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 45 إلى 46]

قُلْ إِنَّما أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعاءَ إِذا ما يُنْذَرُونَ (45) وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ (46)

قرئ وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ ولا تسمع الصم ، بالتاء والياء ، أى : لا تسمع أنت الصم ، ولا يسمع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. ولا يسمع الصم ، من أسمع. فإن قلت : الصم لا يسمعون دعاء المبشر كما لا يسمعون دعاء المنذر، فكيف قيل إِذا ما يُنْذَرُونَ؟ قلت : اللام في الصم إشارة إلى هؤلاء المنذرين ، كائنة للعهد لا للجنس. والأصل : ولا يسمعون إذا ما ينذرون ، فوضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على تصامهم وسدّهم أسماعهم إذا أنذروا. أى : هم على هذه الصفة من الجرأة والجسارة على التصامّ من آيات الإنذار وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ من هذا الذي ينذرون به أدنى شيء ، لأذعنوا وذلوا ، وأقروا بأنهم ظلموا أنفسهم حين تصاموا وأعرضوا.

وفي المس والنفحة ثلاث مبالغات ، لأنّ النفح في معنى القلة والنزارة. يقال : نفحته الدابة وهو رمح يسير «1»، ونفحه بعطية : رضخه ، ولبناء المرة.

(1). قوله «و هو رمح يسير» في الصحاح : رمحه الفرس والبغل والحمار : إذا ضربه برجله. (ع)

[سورة الأنبياء (21) : آية 47]

وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها وَكَفى بِنا حاسِبِينَ(47)

وصفت الْمَوازِينَ بالقسط وهو العدل ، مبالغة ، كأنها في أنفسها قسط. أو على حذف المضاف ، أى : ذوات القسط. واللام في لِيَوْمِ الْقِيامَةِ مثلها في قولك : جئته لخمس ليال خلون من الشهر. ومنه بيت النابغة : ترسّمت آيات لها فعرفتها لستّة أعوام وذا العام سابع «1»

وقيل : لأهل يوم القيامة ، أى لأجلهم. فإن قلت : ما المراد بوضع الموازين؟ قلت : فيه قولان ، أحدهما : إرصاد الحساب السوىّ ، والجزاء على حسب الأعمال بالعدل والنصفة ، من غير أن يظلم عباده مثقال ذرّة ، فمثل ذلك بوضع الموازين لتوزن بها الموزونات. والثاني : أنه يضع الموازين الحقيقية ويزن بها الأعمال. عن الحسن : هو ميزان له كفتان ولسان. ويروى : أن داود عليه السلام سأل ربه أن يريه الميزان ، فلما رآه غشى عليه ، ثم أفاق فقال : يا إلهى من الذي يقدر أن يملأ كفته حسنات ، فقال : يا داود ، إنى إذا رضيت عن عبدى ملأتها بتمرة.

فإن قلت : كيف توزن الأعمال وإنما هي أعراض؟ قلت : فيه قولان ، أحدهما : توزن صحائف الأعمال. والثاني : تجعل في كفة الحسنات جواهر بيض مشرقة ، وفي كفة السيئات جواهر سود مظلمة. وقرئ مِثْقالَ حَبَّةٍ على «كان» التامة ، كقوله تعالى وَإِنْ كانَ ذُو عُسْرَةٍ.

وقرأ ابن عباس ومجاهد : أَتَيْنا بِها وهي مفاعلة من الإتيان بمعنى المجازاة والمكافأة ، لأنهم أتوه بالأعمال وأتاهم بالجزاء. وقرأ حميد : أثبنا بها ، من الثواب. وفي حرف أبىّ : جئنا بها.

وأنث ضمير المثقال لإضافته إلى الحبة ، كقولهم : ذهبت بعض أصابعه ، أى : آتيناهما.

(1) عفا قسم من فرتنا فالفوارع فجنبا أريك فالتلاع الدواقع
توسمت آيات لها فعرفتها لستة أعوام وذا العام سابع
للنابغة. وعفا : بلى وخلا. وفرتنا اسم محبوبته. وقسم ، والفوارع ، وأريك : أسماء مواضع. والتلاع : المواضع المرتفعة. والدواقع - بالقاف - : المقفرة كثيرة التراب. ودقع الرجل دقعا ، كتعب ، إذا التصق بالدقعاء وهي الأرض الكثيرة التراب من شدة فقره. وأما بالفاء فهي التي يدفع فيها السيل بكثرة. وتوسمت بالواو تتبعت سمانها وعلاماتها فعرفتها بها. ويروى بالراء ، أى : تتبعت رسومها وآثارها فعرفتها ، أى : تلك المواضع السابقة.
وقوله «لستة أعوام» أى مستقبلا تمام ستة أعوام مضت من عهدها ، وهذا العام الحاضر الذي نحن فيه هو السابع.
ولو قال : لسبعة أعوام ، لأفاد أن السبعة كلها مضت وليس مرادا. فقول بعضهم : إنه كان يكفيه أن يقول : لسبعة أعوام ، فعجز عن إتمامه ، وكمله بما لا معنى له ، لا وجه له إلا عدم التبصر.

[سورة الأنبياء (21) : آية 48]

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى وَهارُونَ الْفُرْقانَ وَضِياءً وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ (48)

الْفُرْقانَ وهو التوراة وَأتينا به ضِياءً وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ والمعنى : أنه في نفسه ضياء وذكر. أو وآتيناهما بما فيه من الشرائع والمواعظ ضياء وذكرا. وعن ابن عباس رضى الله عنهما : الفرقان : الفتح ، كقوله يَوْمَ الْفُرْقانِ وعن الضحاك : فلق البحر. وعن محمد ابن كعب : المخرج من الشبهات. وقرأ ابن عباس : ضياء ، بغير واو : وهو حال عن الفرقان.

والذكر : الموعظة ، أو ذكر ما يحتاجون إليه في دينهم ومصالحهم. أو الشرف.

[سورة الأنبياء (21) : آية 49]

الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (49)

محل الَّذِينَ جرّ على الوصفية. أو نصب على المدح. أو رفع عليه.

[سورة الأنبياء (21) : آية 50]

وَهذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ أَنْزَلْناهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (50)

وَهذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ هو القرآن. وبركته : كثرة منافعه ، وغزارة خيره.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 51 إلى 54]

وَلَقَدْ آتَيْنا إِبْراهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عالِمِينَ (51) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ما هذِهِ التَّماثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَها عاكِفُونَ (52) قالُوا وَجَدْنا آباءَنا لَها عابِدِينَ (53) قالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (54)

الرشد : الاهتداء لوجوه الصلاح. قال الله تعالى فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ وقرئ : رشده. والرشد والرشد ، كالعدم والعدم. ومعنى إضافته إليه : أنه رشد مثله.

وأنه رشد له شأن مِنْ قَبْلُ أى من قبل موسى وهرون عليهما السلام. ومعنى علمه به : أنه علم منه أحوالا بديعة وأسرارا عجيبة وصفات قد رضيها وأحمدها ، حتى أهله لمخالته ومخالصته ، وهذا كقولك في خير من الناس :

ما أقبح التقليد والقول المتقبل بغير برهان ، وما أعظم كيد الشيطان للمقلدين حين استدرجهم إلى أن قلدوا آباءهم في عبادة التماثيل وعفروا لها جباههم ، وهم معتقدون أنهم على شيء ، وجادّون في نصرة مذهبهم ، ومجادلون لأهل الحق عن باطلهم ، وكفى أهل التقليد سبة أنّ عبدة الأصنام منهم أَنْتُمْ من التأكيد الذي لا يصح الكلام مع الإخلال به ، لأنّ العطف على ضمير هو في حكم بعض الفعل ممتنع. ونحوه : اسكن أنت وزوجك الجنة ، أراد أن المقلدين والمقلدين جميعا ، منخرطون في سلك ضلال لا يخفى على من به أدنى مسكة ، لاستناد الفريقين إلى غير دليل ، بل إلى هوى متبع وشيطان مطاع ، لاستبعادهم أن يكون ما هم عليه ضلالا.

[سورة الأنبياء (21) : آية 55]

قالُوا أَجِئْتَنا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ (55)

بقوا متعجبين من تضليله إياهم ، وحسبوا أن ما قاله إنما قاله على وجه المزاح والمداعبة ، لا على طريق الجدّ، فقالوا له : هذا الذي جئتنا به ، أهو جدّ وحق ، أم لعب وهزل؟

[سورة الأنبياء (21) : آية 56]

قالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلى ذلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (56)

الضمير في فَطَرَهُنَّ للسماوات والأرض. أو للتماثيل ، وكونه للتماثيل أدخل في تضليلهم ، وأثبت للاحتجاج عليهم. وشهادته على ذلك : إدلاؤه بالحجة عليه ، وتصحيحه بها كما تصحح الدعوى بالشهادة ، كأنه قال : وأنا أبين ذلك وأبرهن عليه كما تبين الدعاوى بالبينات ، لأنى لست مثلكم ، فأقول ما لا أقدر على إثباته بالحجة. كما لم تقدروا على الاحتجاج لمذهبكم ، ولم تزيدوا على أنكم وجدتم عليه آباءكم.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 57 إلى 58]

وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (57) فَجَعَلَهُمْ جُذاذاً إِلاَّ كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (58)

قرأ معاذ بن جبل : باللَّه. وقرئ : تولوا ، بمعنى تتولوا. ويقويها قوله فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ.

فإن قلت : ما الفرق بين الباء والتاء؟ قلت : أن الباء هي الأصل ، والتاء بدل من الواو المبدلة منها ، وأن التاء فيها زيادة معنى وهو التعجب ، كأنه تعجب من تسهل الكيد على يده وتأتيه ، لأن ذلك كان أمرا مقنوطا منه لصعوبته وتعذره ، ولعمري إن مثله صعب متعذر في كل زمان ، خصوصا في زمن نمروذ مع عتوّه واستكباره وقوة سلطانه وتهالكه على نصره دينه ولكن : إذا اللَّه سنّى عقد شيء تيسّرا «1».

روى أن آزر خرج به في يوم عيد لهم ، فبدؤا ببيت الأصنام فدخلوه وسجدوا لها ووضعوا بينها طعاما خرجوا به معهم وقالوا : إلى أن نرجع بركت الآلهة على طعامنا ، فذهبوا وبقي إبراهيم فنظر إلى الأصنام وكانت سبعين صنما مصطفة ، وثم صنم عظيم مستقبل الباب ، وكان من ذهب وفي عينيه جوهرتان تضيئان بالليل ، فكسرها كلها بفأس في يده ، حتى إذا لم يبق إلا الكبير علق الفأس في عنقه. عن قتادة : قال ذلك سرا من قومه ، وروى : سمعه رجل واحد جُذاذاً قطاعا ، من الجذ وهو القطع. وقرئ بالكسر والفتح. وقرئ : جذذا. جمع جذيذ، وجذذا جمع جذة. وإنما استبقى الكبير لأنه غلب في ظنه أنهم لا يرجعون إلا إليه ، لما تسامعوه من إنكاره لدينهم وسبه لآلهتهم ، فيبكتهم بما أجاب به من قوله بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَسْئَلُوهُمْ وعن الكلبي إِلَيْهِ إلى كبيرهم. ومعنى هذا : لعلهم يرجعون إليه كما يرجع إلى العالم في حل المشكلات ، فيقولون له : ما لهؤلاء مكسورة ومالك صحيحا والفأس على عاتقك؟ قال هذا بناء على ظنه بهم ، لما جرب وذاق من مكابرتهم لعقولهم واعتقادهم في آلهتهم وتعظيمهم لها.

أو قاله مع علمه أنهم لا يرجعون إليه استهزاء بهم واستجهالا ، وأن قياس حال من يسجد له ويؤهله للعبادة أن يرجع إليه في حل كل مشكل. فإن قلت : فإذا رجعوا إلى الصنم بمكابرتهم لعقولهم ورسوخ الإشراك في أعراقهم، فأى فائدة دينية في رجوعهم إليه حتى يجعله إبراهيم صلوات اللّه عليه غرضا؟ قلت : إذا رجعوا إليه تبين أنه عاجز لا ينفع ولا يضر ، وظهر أنهم في عبادته على جهل عظيم.

[سورة الأنبياء (21) : آية 59]

قالُوا مَنْ فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (59)

أى أن من فعل هذا الكسر والحطم لشديد الظلم ، معدود في الظلمة : إمّا لجرأته على الآلهة الحقيقة عندهم بالتوقير والإعظام ، وإمّا لأنهم رأوا إفراطا في حطمها وتماديا في الاستهانة بها.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 60 إلى 61]

قالُوا سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقالُ لَهُ إِبْراهِيمُ (60) قالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (61)

(1) وأعلم علما ليس بالظن أنه إذا الله سنى عقد شيء تيسرا
ذكر المصدر توكيدا دافعا للتجوز في الفعل ، ثم بين المراد بقوله «ليس بالظن» ويجوز أنه ذكره توطئة لوصفه بأنه غير ظن. وسنيت الشيء : فككته وسهلته. والعقد : مستعار للصعوبة تصريحا ، أى : إذا سهل اللّه صعوبة شيء وأزالها ، سهل تحصيله أو دفعه إن كان محبوبا أو مكروها.

فإن قلت : ما حكم الفعلين بعد سَمِعْنا فَتًى وأى فرق بينهما؟ قلت : هما صفتان لفتى ، إلا أن الأوّل وهو يَذْكُرُهُمْ لا بد منه لسمع ، لأنك لا تقول : سمعت زيدا وتسكت ، حتى تذكر شيئا مما يسمع. وأمّا الثاني فليس كذلك. فإن قلت : إِبْراهِيمُ ما هو؟ قلت : قيل هو خبر مبتدإ محذوف ، أو منادى. والصحيح أنه فاعل يقال ، لأن المراد الاسم لا المسمى عَلى أَعْيُنِ النَّاسِ في محل الحال ، بمعنى معاينا مشاهدا ، أى : بمرأى منهم ومنظر. فإن قلت : فما معنى الاستعلاء في على؟ قلت : هو وارد على طريق المثل ، أى : يثبت إتيانه في الأعين ويتمكن فيها ثبات الراكب على المركوب وتمكنه منه لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ عليه بما سمع منه. وبما فعله أو يحضرون عقوبتنا له. روى أنّ الخبر بلغ نمروذ وأشراف قومه ، فأمروا بإحضاره.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 62 إلى 63]

قالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنا يا إِبْراهِيمُ (62) قالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ (63)

هذا من معاريض الكلام ولطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها إلا أذهان الراضة من علماء المعاني. والقول فيه أنّ قصد إبراهيم صلوات اللّه عليه لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم ، وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضى يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم ، وهذا كما لو قال لك صاحبك وقد كتبت كتابا بخط رشيق وأنت شهير بحسن الخط : أأنت كتبت هذا وصاحبك أمّىّ لا يحسن الخطّ ولا يقدر إلا على خرمشة «1» فاسدة ، فقلت له : بل كتبته أنت ، كان قصدك بهذا الجواب تقريره لك مع الاستهزاء به ، لا نفيه عنك وإثباته للأمّىّ أو المخرمش ، لأنّ إثباته - والأمر دائر بينكما للعاجز منكما - استهزاء به وإثبات للقادر ، ولقائل أن يقول : غاظته تلك الأصنام حين أبصرها مصطفة مرتبة ، وكان غيظ كبيرها أكبر وأشدّ لما رأى من زيادة تعظيمهم له ، فأسند الفعل إليه لأنه هو الذي تسبب لاستهانته بها وحطمه لها ، والفعل كما يسند إلى مباشره يسند إلى الحامل عليه. ويجوز أن يكون حكاية لما يقود إلى تجويزه مذهبهم ، كأنه قال لهم : ما تنكرون أن يفعله كبيرهم. فإنّ من حق من يعبد ويدعى إلها أن يقدر على هذا وأشدّ منه ، ويحكى أنه قال : فعله كبيرهم هذا غضب أن تعبد معه هذه الصغار وهو أكبر منها. وقرأ محمد بن السميقع : فعله كبيرهم ، يعنى : فلعله ، أى فلعلّ الفاعل كبيرهم.

[سورة الأنبياء (21) : آية 64]

فَرَجَعُوا إِلى أَنْفُسِهِمْ فَقالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (64)

(1). قوله «خرمشة فاسدة» الموجود في الصحاح : الخرش : مثل الخدش. والخراش : سمته. والمخرشة :

خشبة يخط بها الخراز. ولم يوجد فيه «خرمشة» بزيادة الميم. (ع)

فلما ألقمهم الحجر وأخذ بمخانقهم ، رجعوا إلى أنفسهم فقالوا : أنتم الظالمون على الحقيقة ، لا من ظلمتموه حين قلتم : من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين.

[سورة الأنبياء (21) : آية 65]

ثُمَّ نُكِسُوا عَلى رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ (65)

نكسته : قلبته فجعلت أسفله أعلاه ، وانتكس : انقلب ، أى : استقاموا حين رجعوا إلى أنفسهم وجاءوا بالفكرة الصالحة ، ثم انتكسوا وانقلبوا عن تلك الحالة ، فأخذوا في المجادلة بالباطل والمكابرة ، وأنّ هؤلاء - مع تقاصر حالها عن حال الحيوان الناطق - آلهة معبودة ، مضارّة منهم. أو انتكسوا عن كونهم مجادلين لإبراهيم عليه السلام مجادلين عنه ، حين نفوا عنها القدرة على النطق. أو قلبوا على رؤسهم حقيقة ، لفرط إطراقهم خجلا وانكسارا وانخزالا مما بهتهم به إبراهيم عليه السلام ، فما أحاروا جوابا إلا ما هو حجة عليهم. وقرئ : نكسوا ، بالتشديد.

ونكسوا ، على لفظ ما سمى فاعله ، أى : نكسوا أنفسهم على رؤسهم. قرأ به رضوان ابن عبد المعبود.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 66 إلى 67]

قالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ (66) أُفٍّ لَكُمْ وَلِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ(67)

أُفٍّ صوت إذا صوّت به علم أنّ صاحبه متضجر ، أضجره ما رأى من ثباتهم على عبادتها بعد انقطاع عذرهم وبعد وضوح الحق وزهوق الباطل ، فتأفف بهم. واللام لبيان المتأفف به.

أى : لكم ولآلهتكم هذا التأفف.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 68 إلى 70]

قالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ (68) قُلْنا يا نارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلى إِبْراهِيمَ (69) وَأَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَخْسَرِينَ (70)

أجمعوا رأيهم - لما غلبوا - بإهلاكه : وهكذا المبطل إذا قرعت شبهته بالحجة وافتضح ، لم يكن أحد أبغض إليه من المحق ، ولم يبق له مفزع إلا مناصبته ، كما فعلت قريش برسول الله صلى الله عليه وسلم حين عجزوا عن المعارضة ، والذي أشار بإحراقه نمروذ. وعن ابن عمر رضى الله عنهما : رجل من أعراب العجم يريد الأكراد. وروى أنهم حين هموا بإحراقه ، حبسوه ثم بنوا بيتا كالحظيرة بكوثى ، وجمعوا شهرا أصناف الخشب الصلاب ، حتى إن كانت المرأة لتمرض فتقول : إن عافاني الله لأجمعنّ حطبا لإبراهيم عليه السلام ، ثم أشعلوا نارا عظيمة كادت الطير تحترق في الجوّ من وهجها ، ثم وضعوه في المنجنيق مقيدا مغلولا فرموا به فيها ، فناداها جبريل عليه السلام يا نارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً ويحكى. ما أحرقت منه إلا وثاقه. وقال له جبريل عليه السلام حين رمى به : هل لك حاجة؟ فقال : أما إليك فلا. قال : فسل ربك. قال : حسبي من سؤالى علمه بحالي. وعن ابن عباس رضى الله عنه : إنما نجا بقوله : حسبي الله ونعم الوكيل ، وأطل عليه نمروذ من الصرح فإذا هو في روضة ومعه جليس له من الملائكة ، فقال : إنى مقرّب إلى إلهك ، فذبح أربعة آلاف بقرة وكفّ عن إبراهيم ، وكان إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه إذ ذاك ابن ست عشرة سنة. واختاروا المعاقبة بالنار لأنها أهول ما يعاقب به وأفظعه ، ولذلك جاء : «لا يعذب بالنار إلا خالقها» «1» ومن ثم قالوا إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ أى إن كنتم ناصرين آلهتكم نصرا مؤزرا ، فاختاروا له أهول المعاقبات وهي الإحراق بالنار ، وإلا فرّطتم في نصرتها. ولهذا عظموا النار وتكلفوا في تشهير أمرها وتفخيم شأنها ، ولم يألوا جهدا في ذلك. جعلت النار لمطاوعتها فعل الله وإرادته كمأمور أمر بشيء فامتثله. والمعنى : ذات برد وسلام ، فبولغ في ذلك. كأن ذاتها برد وسلام. والمراد : ابردى فيسلم منك إبراهيم.

أو ابردى بردا غير ضارّ. وعن ابن عباس رضى الله عنه : لو لم يقل ذلك لأهلكته ببردها. فإن قلت : كيف بردت النار وهي نار؟ قلت : نزع الله عنها طبعها الذي طبعها عليه من الحرّ والإحراق ، وأبقاها على الإضاءة والاشتعال كما كانت ، والله على كل شيء قدير. ويجوز أن يدفع بقدرته عن جسم إبراهيم عليه السلام أذى حرّها ويذيقه فيها عكس ذلك ، كما يفعل بخزنة جهنم ، ويدل عليه قوله عَلى إِبْراهِيمَ وأرادوا أن يكيدوه ويمكروا به ، فما كانوا إلا مغلوبين مقهورين غالبوه بالجدال فغلبه الله ولقنه بالمبكت ، وفزعوا إلى القوّة والجبروت ، فنصره وقوّاه.

[سورة الأنبياء (21) : آية 71]

وَنَجَّيْناهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها لِلْعالَمِينَ (71)

نجيا من العراق إلى الشام. وبركاته الواصلة إلى العالمين : أن أكثر الأنبياء عليهم السلام بعثوا فيه فانتشرت في العالمين شرائعهم وآثارهم الدينية وهي البركات الحقيقية. وقيل : بارك الله فيه بكثرة الماء والشجر والثمر والخصب وطيب عيش الغنىّ والفقير. وعن سفيان أنه خرج إلى الشام فقيل له : إلى أين؟ فقال : إلى بلد يملأ فيه الجراب بدرهم. وقيل : ما من ماء عذب إلا وينبع أصله من تحت الصخرة التي ببيت المقدس «2». وروى أنه نزل بفلسطين ، ولوط بالمؤتفكة وبينهما مسيرة يوم وليلة.

---

(1). وفي أبى داود : «إلا رب النار».
(2). قلت : جاء مرفوعا عن أبى بن كعب. أخرجه الطبري عن الحسين عن الفضيل بن موسى عن الحسين بن واقد عن الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى بن كعب في قوله «و نجيناه ولوطا - الآية» قال : الشام ، وما من ماء عذب إلا يخرج من تلك الصخرة التي ببيت المقدس وأخرجه ابن أبى حاتم عن على بن الحسين بن الجنيد عن أبى عمار أخرجه أيضا من رواية محمد بن سعد بن سابق عن أبى جعفر الرازي عن الربيع عن أبى العالية مقطوعا لم يذكر أبى بن كعب ، بلفظ «هي الأرض المقدسة بارك الله فيها للعالمين» ولم يذكر الصخرة. وأخرجه عبد بن حميد عن أبى النضر عن أبى جعفر كذلك. وزاد «لأن كل ماء عذب في الأرض منها يخرج من أصل صخرة بيت المقدس ، يهبط من السماء إلى الصخرة ثم يتفرق في الأرض» وأخرجه أبو سعيد النقاش في فوائده من وجه آخر عن الربيع عن أبى العالية. وأخرجه أبو سعيد عبد بن حميد عن أبى النضر نحوه بتمامه وأخرجه الخطيب أبو بكر محمد بن أحمد ابن محمد المقدسي المعروف بابن الواسطي في كتاب فضل بيت المقدس من طريق آدم ابن أبى إياس عن أبى جعفر الرازي ، بلفظ في قوله تعالى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها قال : من بركتها أن كل ماء عذب يخرج من أصل صخرة بيت المقدس. وأخرج الخطيب المذكور من طريق غالب بن عبد الله عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة رفعه «الأنهار كلها والسحاب والبحار والرياح من تحت صخرة بيت المقدس» وغالب متروك.

[سورة الأنبياء (21) : آية 72]

وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ نافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنا صالِحِينَ (72)

النافلة : ولد الولد. وقيل : سأل إسحاق فأعطيه ، وأعطى يعقوب نافلة ، أى : زيادة وفضلا من غير سؤال.

[سورة الأنبياء (21) : آية 73]

وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ وَإِقامَ الصَّلاةِ وَإِيتاءَ الزَّكاةِ وَكانُوا لَنا عابِدِينَ (73)

يَهْدُونَ بِأَمْرِنا فيه أن من صلح ليكون قدوة في دين الله فالهداية محتومة عليه مأمور هو بها من جهة الله ، ليس له أن يخل بها ويتثاقل عنها ، وأوّل ذلك أن يهتدى بنفسه ، لأنّ الانتفاع بهداه أعم ، والنفوس إلى الاقتداء بالمهدى أميل فِعْلَ الْخَيْراتِ أصله أن تفعل الخيرات ، ثم فعلا الخيرات ، ثم فعل الخيرات. وكذلك إقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 74 إلى 75]

وَلُوطاً آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ تَعْمَلُ الْخَبائِثَ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فاسِقِينَ (74) وَأَدْخَلْناهُ فِي رَحْمَتِنا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (75)

حُكْماً حكمة وهو ما يجب فعله. أو فصلا بين الخصوم. وقيل : هو النبوّة. والقرية : سذوم ، أى : في أهل رحمتنا. أو في الجنة. ومنه الحديث «هذه رحمتي أرحم بها من أشاء «1»» مِنْ قَبْلُ من قبل هؤلاء المذكورين.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 76 إلى 77]

وَنُوحاً إِذْ نادى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76) وَنَصَرْناهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ (77)

(1). متفق عليه من حديث أبى هريرة رفعه «تحاجت النار والجنة - الحديث» وفيه فقال للجنة أنت رحمتي أرحم بها من أشاء من عبادي» ولمسلم من حديث أبى سعيد نحوه.

هو «نصر» الذي مطاوعه «انتصر» وسمعت هذليا يدعو على سارق : اللهم انصرهم منه ، أى : اجعلهم منتصرين منه. والكرب : الطوفان وما كان فيه من تكذيب قومه.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 78 إلى 80]

وَداوُدَ وَسُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدِينَ (78) فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ وَكُلاًّ آتَيْنا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فاعِلِينَ (79) وَعَلَّمْناهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شاكِرُونَ (80)

أى : واذكرهما. وإذ : بدل منهما. والنفش : الانتشار بالليل. وجمع الضمير لأنه أرادهما والمتحاكمين إليهما. وقرئ : لحكمهما. والضمير في فَفَهَّمْناها للحكومة أو الفتوى. وقرئ : فأفهمناها. حكم داود بالغنم لصاحب الحرث. فقال سليمان عليه السلام وهو ابن إحدى عشرة سنة : غير هذا أرفق بالفريقين ، فعزم عليه ليحكمنّ ، فقال : أرى أن تدفع الغنم إلى أهل الحرث ينتفعون بألبانها وأولادها وأصوافها ، والحرث إلى أرباب الشاء يقومون عليه حتى يعود كهيئته يوم أفسد ، ثم يترادّان. فقال : القضاء ما قضيت ، وأمضى الحكم بذلك. فإن قلت: أحكما بوحي أم باجتهاد؟ قلت : حكما جميعا بالوحي ، إلا أن حكومة داود نسخت بحكومة سليمان. وقيل : اجتهدا جميعا ، فجاء اجتهاد سليمان عليه السلام أشبه بالصواب. فإن قلت : ما وجه كل واحدة من الحكومتين؟ قلت : أمّا وجه حكومة داود عليه السلام ، فلأن الضرر لما وقع بالغنم سلمت بجنايتها إلى المجنى عليه ، كما قال أبو حنيفة رضى الله عنه في العبد إذا جنى على النفس : يدفعه المولى بذلك أو يفديه. وعند الشافعي رضى الله عنه : يبيعه في ذلك أو يفديه. ولعل قيمة الغنم كانت على قدر النقصان في الحرث. ووجه حكومة سليمان عليه السلام أنه جعل الانتفاع بالغنم بإزاء ما فات من الانتفاع بالحرث ، من غير أن يزول ملك المالك عن الغنم، وأوجب على صاحب الغنم أن يعمل في الحرث حتى يزول الضرر والنقصان ، مثاله ما قال أصحاب الشافعي فيمن غصب عبدا فأبق من يده : أنه يضمن القيمة فينتفع بها المغصوب منه بإزاء ما فوّته الغاصب من منافع العبد ، فإذا ظهر ترادّا ، فإن قلت : فلو وقعت هذه الواقعة في شريعتنا ما حكمها؟ قلت : أبو حنيفة وأصحابه رضى الله عنهم لا يرون فيه ضمانا بالليل أو بالنهار ، إلا أن يكون مع البهيمة سائق أو قائد والشافعي رضى الله عنه يوجب الضمان بالليل. وفي قوله فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ دليل على أنّ الأصوب كان مع سليمان عليه السلام. وفي قوله وَكُلًّا آتَيْنا حُكْماً وَعِلْماً دليل على أنهما جميعا كانا على الصواب يُسَبِّحْنَ حال بمعنى مسبحات. أو استئناف ، كأن قائلا قال : كيف سخرهنّ؟

فقال : يسبحن وَالطَّيْرَ إمّا معطوف على الجبال ، أو مفعول معه. فإن قلت : لم قدمت الجبال على الطير؟ قلت : لأنّ تسخيرها وتسبيحها أعجب وأدلّ على القدرة وأدخل في الإعجاز ، لأنها جماد والطير حيوان ، إلا أنه غير ناطق. روى أنه كان يمرّ بالجبال مسبحا وهي تجاوبه. وقيل : كانت تسير معه حيث سار. فإن قلت : كيف تنطق الجبال وتسبح؟ قلت. بأن يخلق الله فيها الكلام كما خلقه في الشجرة حين كلم موسى «1». وجواب آخر : وهو أن يسبح من رآها تسير بتسيير الله ، فلما حملت على التسبيح وصفت به وَكُنَّا فاعِلِينَ أى قادرين على أن نفعل هذا وإن كان عجبا عندكم وقيل : وكنا نفعل بالأنبياء مثل ذلك.

اللبوس : اللباس. قال : البس لكلّ حالة لبوسها «2» والمراد الدرع. قال قتادة : كانت صفائح فأوّل من سردها وحلقها داود ، فجمعت الخفة والتحصين لِتُحْصِنَكُمْ قرئ بالنون والياء والتاء ، وتخفيف الصاد وتشديدها ، فالنون لله عز وجل ، والتاء للصنعة أو للبوس على تأويل الدرع ، والياء لداود أو للبوس.

(1). قوله «كما خلقه في الشجرة حين كلم موسى» هذا عند المعتزلة ، بناء على أن كلام الله حادث فلا يقوم بذاته تعالى : أما عند أهل السنة فكلامه تعالى قديم قائم بذاته ، ويسمعه موسى عليه السلام بكشف الحجاب عنه. (ع)
(2) البس لكل حالة لبوسها إما نعيمها وإما بوسها
لبيهس الملقب بنعامة : قتل له سبعة إخوة ، فجعل يلبس القميص مكان السراويل وعكسه. وإذا سئل عن ذلك قال :

هذا البيت ، حتى إذا أخذت دماء السبعة. واللبوس - بالفتح - : اللباس. وقسمه في الابدال منه إلى النعيم والبؤس لعلاقة السببية. ويجوز أنه على حذف المضاف ، أى : لبوس نعيمها أو لبوس بؤسها. ووسط إما للتنويع ، ولكن القصة تدل على أن ذات اللباس لم تتغير ، فيجوز أن اللبوس اسم مصدر وإن كان استعمال فعول بالفتح في المصدر قليلا. ويجوز أن يروى بالضم ، فيكون بمعنى المصدر على الكثير ، أى : البس لكل حالة ما يناسبها من اللبس.
إما اللبس المستقيم أو المنعكس. والمأمور باللبس ليس معنا. والبؤس بالهمز : الشدة ، قلبت همزته هنا واوا لتناسب القافية. وبين لبوس وبوس : الجناس الناقص.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 81 إلى 82]

وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ عاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عالِمِينَ (81) وَمِنَ الشَّياطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حافِظِينَ (82)

قرئ : الريح. والرياح ، بالرفع والنصب فيهما ، فالرفع على الابتداء ، والنصب على العطف على الجبال. فإن قلت : وصفت هذه الرياح بالعصف تارة وبالرخاوة أخرى ، فما التوفيق بينهما؟ «1» قلت : كانت في نفسها رخية طيبة كالنسيم ، فإذا مرت بكرسيه أبعدت به في مدة يسيرة ، على ما قال غُدُوُّها شَهْرٌ وَرَواحُها شَهْرٌ فكان جمعها بين الأمرين أن تكون رخاء في نفسها وعاصفة في عملها ، مع طاعتها لسليمان وهبوبها على حسب ما يريد ويحتكم : آية إلى آية ومعجزة إلى معجزة. وقيل كانت في وقت رخاء ، وفي وقت عاصفا ، لهبوبها على حكم إرادته ، وقد أحاط علمنا بكل شيء فنجري الأشياء كلها على ما يقتضيه علمنا وحكمتنا.

أى : يغوصون له في البحار فيستخرجون الجواهر ، ويتجاوزون ذلك إلى الأعمال والمهن وبناء المدائن والقصور واختراع الصنائع العجيبة ، كما قال يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ وَتَماثِيلَ والله حافظهم أن يزيغوا عن أمره ، أو يبدلوا أو يغيروا ، أو يوجد منهم فساد في الجملة فيما هم مسخرون فيه.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 83 إلى 84]

وَأَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (83) فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَكَشَفْنا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْناهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَذِكْرى لِلْعابِدِينَ (84)

أى : ناداه بأنى مسنى الضر. وقرئ : إنى ، بالكسر على إضمار القول أو لتضمن النداء معناه والضر - بالفتح - الضرر في كل شيء ، وبالضم : الضرر في النفس من مرض وهزال ، فرق بين البناءين لافتراق المعنيين. ألطف في السؤال حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة ، وذكر ربه بغاية الرحمة ولم يصرح بالمطلوب. ويحكى أنّ عجوزا تعرضت لسليمان بن عبد الملك فقالت : يا أمير المؤمنين ، مشت جرذان «2» بيتي على العصىّ! فقال لها : ألطفت في السؤال ،

(1). قال محمود : «إن قلت قد وصفت هذه الريح بأنها رخاء وبأنها عاصف فما وجه ذلك؟ قلت : ما هي إلا جمعتهما وكانت في نفسها رخاء طيبة وفي سرعة حركتها كالعاصف» قال أحمد : وهذا كما ورد وصف عصا موسى تارة بأنها جان وتارة بأنها ثعبان ، والجان الرقيق من الحيات والثعبان العظيم الجافي منها. ووجه ذلك أنها جمعت الوصفين ، فكانت في خفتها وفي سرعة حركتها كالجان ، وكانت في عظم خلقها كالثعبان ، ففي كل واحد من الريح والعصا على هذا التقرير معجزتان والله سبحانه وتعالى أعلم.
(2). قوله «جرذان بيتي» في الصحاح «الجرذ» ضرب من الفأر. والجمع جرذان. (ع)

لا جرم لأردنها تثب وثب الفهود وملأ بيتها حبا. كان أيوب عليه السلام روميا من ولد إسحاق بن يعقوب عليهم السلام ، وقد استنبأه الله وبسط عليه الدنيا وكثر أهله وماله : كان له سبعة بنين وسبع بنات ، وله أصناف البهائم ، وخمسمائة فدان «1» يتبعها خمسمائة عبد ، لكل عبد امرأة وولد ونخيل ، فابتلاه الله بذهاب ولده - انهدم عليهم البيت فهلكوا - وبذهاب ماله ، وبالمرض في بدنه ثماني عشرة سنة. وعن قتادة : ثلاث عشرة سنة. وعن مقاتل : سبعا وسبعة أشهر وسبع ساعات ، وقالت له امرأته يوما : لو دعوت الله ، فقال لها : كم كانت مدة الرخاء فقالت ثمانين سنة ، فقال : أنا أستحى من الله أن أدعوه وما بلغت مدة بلائي مدة رخائي فلما كشف الله عنه أحيا ولده ورزقه مثلهم ونوافل منهم. وروى أن امرأته ولدت بعد ستة وعشرين ابنا. أى : لرحمتنا العابدين وأنا نذكرهم بالإحسان لا ننساهم أو رحمة منا لأيوب وتذكرة لغيره من العابدين ، ليصبروا كما صبر حتى يثابوا كما أثيب في الدنيا والآخرة.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 85 إلى 86]

وَإِسْماعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (85) وَأَدْخَلْناهُمْ فِي رَحْمَتِنا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (86)

قيل في ذى الكفل : هو إلياس. وقيل : زكريا. وقيل : يوشع بن نون ، وكأنه سمى بذلك لأنه ذو الحظ من الله والمجدود «2» على الحقيقة. وقيل : كان له ضعف عمل الأنبياء في زمانه وضعف ثوابهم. وقيل : خمسة من الأنبياء ذوو اسمين : إسرائيل ويعقوب. إلياس وذو الكفل. عيسى والمسيح. يونس وذو النون. محمد وأحمد : صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

[سورة الأنبياء (21) : آية 87]

وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنادى فِي الظُّلُماتِ أَنْ لا إِلهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87)

النُّونِ الحوت ، فأضيف إليه. برم «3» بقومه لطول ما ذكرهم فلم يذكروا وأقاموا على كفرهم ، فراغمهم وظنّ أنّ ذلك يسوغ حيث لم يفعله إلا غضبا لله وأنفة لدينه وبغضا للكفر وأهله ، وكان عليه أن يصابر وينتظر الإذن من الله في المهاجرة عنهم ، فابتلى ببطن الحوت.

ومعنى مغاضبته لقومه : أنه أغضبهم بمفارقته لخوفهم حلول العقاب عليهم عندها. وقرأ أبو شرف : مغضبا. قرئ : نقدر. ونقدّر ، مخففا ومثقلا. ويقدر ، بالياء بالتخفيف. ويقدر.

(1). قوله «و خمسمائة فدان» في الصحاح «الفدن» القصر. والفدان : آلته الثورين للحرث. (ع)
(2). قوله «و المجدود» في الصحاح «الجد» الحظ والبخت. تقول : جددت يا فلان ، أى : صرت ذا جد ، فأنت جديد حظيظ ، ومجدود محظوظ. (ع)
(3). قوله «برم بقومه» سئمهم وتبرم بهم. أفاده الصحاح. (ع) [.....]

ويقدّر ، على البناء للمفعول مخففا ومثقلا. وفسرت بالتضييق عليه ، وبتقدير الله عليه عقوبة.

وعن ابن عباس : أنه دخل على معاوية فقال : لقد ضربتني أمواج القرآن البارحة فغرقت فيها ، فلم أجد لنفسي خلاصا إلا بك. قال : وما هي يا معاوية ، فقرأ هذه الآية وقال : أو يظن نبىّ الله أن لا يقدر عليه؟ قال : هذا من القدر لا من القدرة. والمخفف يصح أن يفسر بالقدرة ، على معنى : أن لن نعمل فيه قدرتنا ، وأن يكون من باب التمثيل ، بمعنى : فكانت حاله ممثلة بحال من ظنّ أن لن نقدر عليه في مراغمته قومه ، من غير انتظار لأمر الله. ويجوز أن يسبق ذلك إلى وهمه بوسوسة الشيطان ، ثم يردعه ويرده بالبرهان ، كما يفعل المؤمن المحقق بنزغات الشيطان وما يوسوس إليه في كل وقت. ومنه قوله تعالى وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا والخطاب للمؤمنين فِي الظُّلُماتِ أى في الظلمة الشديدة المتكاثفة في بطن الحوت ، كقوله ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُماتٍ وقوله يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُماتِ وقيل : ظلمات بطن الحوت والبحر والليل. وقيل : ابتلع حوته حوت أكبر منه، فحصل في ظلمتى بطني الحوتين وظلمة البحر. أى بأنه لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ أو بمعنى «أى». عن النبي صلى الله عليه وسلم «ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلا استجيب له «1»» وعن الحسن : ما نجاه والله إلا إقراره على نفسه بالظلم.

[سورة الأنبياء (21) : آية 88]

فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (88)

نُنْجِي وننجي. ونجى. والنون لا تدغم في الجيم ، ومن تمحل لصحته فجعله فعل وقال نجى النجاء المؤمنين ، فأرسل الياء وأسنده إلى مصدره ونصب المؤمنين بالنجاء - فمتعسف بارد التعسف.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 89 إلى 90]

وَزَكَرِيَّا إِذْ نادى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ (89) فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَوَهَبْنا لَهُ يَحْيى وَأَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً وَكانُوا لَنا خاشِعِينَ (90)

(1). أخرجه الترمذي والحاكم والبيهقي في الشعب في السبعين من رواية إبراهيم بن محمد بن سعد عن أبيه عن جده سعد بن أبى وقاص رفعه «دعوة ذى النون إذ دعا وهو في بطن الحوت لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فانه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له» قال الترمذي ، رواه بعضهم عن إبراهيم عن جده ، لم يقل عن أبيه اه وله منابع أخرجه الحاكم من رواية كثير بن زيد عن المطلب بن حنطب عن مصعب بن سعد عن أبيه ، بلفظ «ألا أخبركم بشيء إذا نزل بأحدكم كرب أو بلاء فدعا به إلا فرج عنه. قالوا : بلى يا رسول الله.
قال دعوة ذى النون لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ وأخرجه الحاكم أيضا من رواية معمر بن سليمان عن معمر عن الزهري عن أبى أمامة بن سهيل بن حنيف عن سعد.

سأل ربه أن يرزقه ولدا يرثه ولا يدعه وحيدا بلا وارث ، ثم ردّ أمره إلى الله مستسلما فقال وَأَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ أى إن لم ترزقني من يرثني فلا أبالى ، فإنك خير وارث. إصلاح زوجه : أن جعلها صالحة للولادة بعد عقرها. وقيل : تحسين خلقها وكانت سيئة الخلق.

الضمير للمذكورين من الأنبياء عليهم السلام يريد أنهم ما استحقوا الإجابة إلى طلباتهم إلا لمبادرتهم أبواب الخير ومسارعتهم في تحصيلها كما يفعل الراغبون في الأمور الجادون. وقرئ رَغَباً وَرَهَباً بالإسكان ، وهو كقوله تعالى يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ. خاشِعِينَ قال الحسن : ذللا لأمر الله. وعن مجاهد : الخشوع الخوف الدائم في القلب. وقيل : متواضعين.

وسئل الأعمش فقال : أما إنى سألت إبراهيم فقال : ألا تدرى؟ قلت : أفدنى. قال : بينه وبين الله إذا أرخى ستره وأغلق بابه ، فلير الله منه خيرا ، لعلك ترى أنه أن يأكل خشنا ويلبس خشنا ويطأطئ رأسه.

[سورة الأنبياء (21) : آية 91]

وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا وَجَعَلْناها وَابْنَها آيَةً لِلْعالَمِينَ (91)

أَحْصَنَتْ فَرْجَها إحصانا كليا من الحلال والحرام جميعا كما قالت وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا. فإن قلت : نفخ الروح في الجسد عبارة عن إحيائه. قال الله تعالى فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي أى أحييته. وإذا ثبت ذلك كان قوله فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا ظاهر الإشكال ، لأنه يدل على إحياء مريم. قلت : معناه نفخنا الروح في عيسى فيها ، أى : أحييناه في جوفها «1». ونحو ذلك أن يقول الزمار : نفخت في بيت فلان ، أى : نفخت في المزمار في بيته. ويجوز أن يراد : وفعلنا النفخ في مريم من جهة روحنا وهو جبريل عليه السلام ، لأنه نفخ في جيب درعها فوصل النفخ إلى جوفها. فإن قلت : هلا قيل آيتين كما قال وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهارَ آيَتَيْنِ؟ قلت : لأن حالهما بمجموعهما آية واحدة ، وهي ولادتها إياه من غير فحل.

[سورة الأنبياء (21) : آية 92]

إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (92)

(1). قال محمود : «إن قلت نفخ الروح في الجسد عبارة عن إحيائه وحينئذ يكون معناه فأحيينا مريم ويشكل إذ ذاك. قلت : معناه فنفخنا الروح في عيسى في مريم أى أحييناه في جوفها انتهى كلامه» قال أحمد : وقد اختار الزمخشري في قوله عز وجل إِذْ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّكَ ما يُوحى أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ أن تكون الضمائر كلها راجعة إلى موسى. أما الأول فلا إشكال فيه ، وأما التابوت إذا قذف في اليم وموسى فيه ، فقد قذف موسى في اليم. وكذلك الثالث. واختار غيره عود الضميرين الأخيرين إلى التابوت ، لأنه فهم من قوله فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ أن المراد التابوت. وأما موسى فلم يقذف في اليم. والزمخشري نزل قذف التابوت في اليم وموسى فيه منزلة قذفه في اليم. وفي هذه الآية مصداق لما اختاره ، فان الله تعالى نزل نفخ الروح في عيسى لكونه في جوف مريم منزلة نفخ الروح في مريم ، فعبر بما يفهم ظاهر هذا.

الأمّة : الملة ، وهذِهِ إشارة إلى ملة الإسلام ، أى : إن ملة الإسلام هي ملتكم التي يجب أن تكونوا عليها لا تنحرفون عنها ، يشار إليها ملة واحدة غير مختلفة وَأَنَا إلهكم إله واحد فَاعْبُدُونِ ونصب الحسن أمّتكم على البدل من هذه ، ورفع أمّة خبرا. وعنه رفعهما جميعا خبرين لهذه. أو نوى للثاني مبتدأ ، والخطاب للناس كافة.

[سورة الأنبياء (21) : آية 93]

وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنا راجِعُونَ (93)

والأصل : وتقطعتم ، إلا أن الكلام حرف إلى الغيبة على طريقة الالتفات ، كأنه ينعى عليهم ما أفسدوه إلى آخرين ويقبح عندهم فعلهم ، ويقول لهم : ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله. والمعنى : جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعا ، كما يتوزع الجماعة الشيء ويتقسمونه ، فيطير لهذا نصيب ولذاك نصيب ، تمثيلا لاختلافهم فيه ، وصيرورتهم فرقا وأحزابا شتى. ثم توعدهم بأنّ هؤلاء الفرق المختلفة إليه يرجعون ، فهو محاسبهم ومجازيهم.

[سورة الأنبياء (21) : آية 94]

فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كاتِبُونَ (94)

الكفران : مثل في حرمان الثواب ، كما أن الشكر مثل في إعطائه إذا قيل للّه : شكور.

وقد نفى نفى الجنس ليكون أبلغ من أن يقول : فلا نكفر سعيه وَإِنَّا لَهُ كاتِبُونَ أى نحن كاتبو ذلك السعى ومثبتوه في صحيفة عمله ، وما نحن مثبتوه فهو غير ضائع ومثاب عليه صاحبه.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 95 إلى 96]

وَحَرامٌ عَلى قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ (95) حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ(96)

استعير الحرام للممتنع وجوده. ومنه قوله عز وجلّ إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُما عَلَى الْكافِرِينَ أى منعهما منهم ، وأبى أن يكونا لهم. وقرئ : حرم وحرم ، بالفتح والكسر. وحرّم وحرّم.

ومعنى أَهْلَكْناها عزمنا على إهلاكها. أو قدرنا إهلاكها. ومعنى الرجوع : الرجوع من الكفر إلى الإسلام والإنابة. ومجاز الآية : أن قوما عزم الله على إهلاكهم غير متصوّر أن يرجعوا وينيبوا ، إلى أن تقوم القيامة فحينئذ يرجعون ويقولون : يا وَيْلَنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا بَلْ كُنَّا ظالِمِينَ يعنى : أنهم مطبوع على قلوبهم فلا يزالون على كفرهم ويموتون عليه حتى يروا العذاب. وقرئ : إنهم ، بالكسر. وحق هذا أن يتمّ الكلام قبله ، فلا بدّ من تقدير محذوف ، كأنه قيل : وحرام على قرية أهلكناها ذاك. وهو المذكور في الآية المتقدمة من العمل الصالح والسعى المشكور غير المكفور ، ثم علل فقيل : إنهم لا يرجعون عن الكفر ، فكيف لا يمتنع ذلك. والقراءة بالفتح يصح حملها على هذا؟ أى : لأنهم لا يرجعون ولا صلة على الوجه الأوّل. فإن قلت : بم تعلقت حَتَّى واقعة غاية له ، وأية الثلاث هي؟ قلت : هي متعلقة بحرام ، وهي غاية له لأنّ امتناع رجوعهم لا يزول حتى تقوم القيامة ، وهي حَتَّى التي يحكى بعدها الكلام ، والكلام المحكىّ : الجملة من الشرط والجزاء ، أعنى : «إذا» وما في حيزها.

حذف المضاف إلى يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وهو سدّهما ، كما حذف المضاف إلى القرية وهو أهلها.

وقيل : فتحت كما قيل أَهْلَكْناها وقرئ : آجوج. وهما قبيلتان من جنس الإنس ، يقال : الناس عشرة أجزاء ، تسعة منها يأجوج ومأجوج وَهُمْ راجع إلى الناس المسوقين إلى المحشر وقيل : هم يأجوج ومأجوج يخرجون حين يفتح السدّ. الحدب : النشز «1» من الأرض. وقرأ ابن عباس رضى الله عنه : من كل جدث ، وهو القبر ، الثاء : حجازية ، والفاء : تميمية. وقرئ يَنْسِلُونَ بضم السين. ونسل وعسل : أسرع.

[سورة الأنبياء (21) : آية 97]

وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يا وَيْلَنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا بَلْ كُنَّا ظالِمِينَ (97)
وفَإِذا هي إذا المفاجأة ، وهي تقع في المجازاة سادّة مسدّ الفاء ، كقوله تعالى إِذا هُمْ يَقْنَطُونَ فإذا جاءت الفاء معها تعاونتا على وصل الجزاء بالشرط فيتأكد. ولو قيل : إذا هي شاخصة.

أو فهي شاخصة ، كان سديدا هِيَ ضمير مبهم «2» توضحه الأبصار وتفسره ، كما فسر الذين ظلموا وأسروا يا وَيْلَنا متعلق بمحذوف تقديره : يقولون يا ويلنا. ويقولون : في موضع الحال من الذين كفروا.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 98 إلى 100]

إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ (98) لَوْ كانَ هؤُلاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوها وَكُلٌّ فِيها خالِدُونَ (99) لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَهُمْ فِيها لا يَسْمَعُونَ (100)

ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ يحتمل الأصنام وإبليس وأعوانه ، لأنهم بطاعتهم لهم واتباعهم خطواتهم في حكم عبدتهم. ويصدّقه ما روى : أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد وصناديد قريش في الحطيم ، وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنما ، فجلس إليهم فعرض له النضر بن الحرث فكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أفحمه ، ثم تلا عليهم إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ... الآية ،

(1). قوله «النشز من الأرض» في الصحاح «النشز» المكان المرتفع. (ع)
(2). قوله «هي ضمير مبهم ... الخ» لعله ضمير وَأَسَرُّوا أو لعله واو وَأَسَرُّوا. (ع)

فأقبل عبد الله بن الزبعرى فرآهم يتهامسون ، فقال : فيم خوضكم؟ فأخبره الوليد بن المغيرة بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عبد الله : أما والله لو وجدته لخصمته ، فدعوه. فقال ابن الزبعرى : أأنت قلت ذلك؟ قال : نعم. قال : قد خصمتك ورب الكعبة. أليس اليهود عبدوا عزيرا ، والنصارى عبدوا المسيح ، وبنو مليح عبدوا الملائكة؟

فقال صلى الله عليه وسلم : بل هم عبدوا الشياطين التي أمرتهم بذلك «1». فأنزل الله تعالى إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى ... الآية يعنى عزيرا والمسيح والملائكة عليهم السلام. فإن قلت : لم قرنوا بآلهتهم؟ قلت : لأنهم لا يزالون لمقارنتهم في زيادة غمّ وحسرة ، حيث أصابهم ما أصابهم بسببهم. والنظر إلى وجه العدوّ باب من العذاب ، ولأنهم قدّروا ، أنهم يستشفعون بهم في الآخرة ويستنفعون بشفاعتهم ، فإذا صادفوا الأمر على عكس ما قدروا لم يكن شيء أبغض إليهم منهم.

فإن قلت : إذا عنيت بما تعبدون الأصنام ، فما معنى لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ؟ قلت : إذا كانوا هم وأصنامهم في قرن «2» واحد ، جاز أن يقال : لهم زفير ، وإن لم يكن الزافرين إلا هم دون الأصنام للتغليب ولعدم الإلباس. والحصب : المحصوب به ، أى : يحصب بهم في النار. والحصب : الرمي.

وقرئ بسكون الصاد ، وصفا بالمصدر. وقرئ حطب ، وحضب ، بالضاد متحركا وساكنا.

وعن ابن مسعود : يجعلون في توابيت من نار فلا يسمعون. ويجوز أن يصمهم الله كما يعميهم.

[سورة الأنبياء (21) : آية 101]

إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ (101)

(1). هكذا ذكره الثعلبي ثم البغوي بغير إسناد. لم أجده هكذا إلا ملفقا فأما صدره ففي الطبراني الصغير في أواخره من حديث ابن عباس قال «دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح وعلى الكعبة ثلاثمائة وستون صنما قد شدت أقدامها برصاص - الحديث» وأما قوله «و كانت صناديد قريش فقصة أخرى ذكرها ابن إسحاق في المغازي والطبري من طريقه قال «جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما في المسجد مع رجال من قريش فعرض له النضر بن الحرث فكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أفحمه - فذكر نحو المذكور هنا إلى آخره وفيه «إن كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده إنهم إنما يعبدون الشياطين» وروى ابن مردويه والواحدي من طريق أبى رزين عن أبى يحيى عن ابن عباس قال «لما نزلت إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ... الآية شق ذلك على قريش وقالوا : يشتم آلهتنا. فجاء ابن الزبعرى. وقال : يا محمد هذا شتم لآلهتنا خاصة ، أم لكل من عبد من دون الله؟
قال : لكل من عبد من دون الله. قال. خصمتك ورب الكعبة - فذكر نحوه.
«تنبيهان» أحدهما : اشتهر في ألسنة كثير من علماء العجم وفي كتبهم : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في هذه القصة لابن الزبعرى «ما أجهلك بلغة قومك. فانى قلت : وما تعبدون. وهي لما لا يعقل. ولم أقل : ومن تعبدون اه.
وهو شيء لا أصل له. ولا يوجد لا مسندا ولا غير مسند. الثاني قال السهيلي اعتراض ابن الزبعرى غير لازم ، لأن الخطاب مخصوص بقريش وما يعبدون من الأصنام. ولذلك أتى بما الواقعة على ما لا يعقل اه. وحديث ابن عباس الذي تقدم ينقض عليه هذا التأويل. فانه صرح بأن المراد كل ما يعبد من دون الله
(2). قوله «في قرن هو حبل يقرن به البعيران. أفاده الصحاح. (ع)

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 101 إلى 103]

إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ (101) لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خالِدُونَ (102) لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هذا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (103)

الْحُسْنى الخصلة المفضلة في الحسن تأنيث الأحسن : إمّا السعادة ، وإما البشرى بالثواب وإما التوفيق للطاعة. يروى أنّ عليا رضى الله عنه قرأ هذه الآية ثم قال : أنا منهم ، وأبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف ، ثم أقيمت الصلاة فقام يجرّ رداءه وهو يقول لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها «1» والحسيس : الصوت يحس ، والشهوة : طلب النفس اللذة. وقرئ لا يَحْزُنُهُمُ من أحزن. والْفَزَعُ الْأَكْبَرُ قيل : النفخة الأخيرة ، لقوله تعالى يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وعن الحسن : الانصراف إلى النار.

وعن الضحاك : حين يطبق على النار. وقيل : حين يذبح الموت على صورة كبش أملح ، أى تستقبلهم الْمَلائِكَةُ مهنئين على أبواب الجنة. ويقولون : هذا وقت ثوابكم الذي وعدكم ربكم قد حلّ.

[سورة الأنبياء (21) : آية 104]

يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ (104)

العامل في يَوْمَ نَطْوِي لا يحزنهم. أو الفزع. أو تتلقاهم. وقرئ : تطوى السماء ، على البناء للمفعول السِّجِلِّ بوزن العتلّ «2» والسجل بلفظ الدلو. وروى فيه الكسر : وهو الصحيفة ، أى : كما يطوى الطومار للكتابة ، أى : ليكتب فيه ، أو : لما يكتب فيه ، لأن الكتاب أصله المصدر كالبناء ، ثم يوقع على المكتوب ، ومن جمع فمعناه : للمكتوبات ، أى : لما يكتب فيه من المعاني الكثيرة. وقيل السِّجِلِّ ملك يطوى كتب بنى آدم إذا رفعت إليه. وقيل : كاتب كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم. والكتاب - على هذا - اسم الصحيفة المكتوب فيها أَوَّلَ خَلْقٍ مفعول نعيد الذي يفسره نُعِيدُهُ والكاف مكفوفة بما. والمعنى : نعيد أوّل الخلق كما بدأناه ، تشبيها للإعادة بالإبداء في تناول القدرة لهما على السواء ، فإن قلت : وما أوّل الخلق حتى يعيده كما بدأه؟ قلت : أوّله إيجاده عن العدم ، فكما أوجده أولا عن عدم ، يعيده ثانيا عن عدم «3». فإن قلت : ما بال خَلْقٍ منكرا؟

(1). أخرجه ابن أبى حاتم وابن عدى وابن مردويه والثعلبي من رواية ليث بن أبى سليم عن ابن عم النعمان بن بشير. وكان من سمار على قال : تلا على هذه الآية - فذكره

(2). قوله «بوزن العتل» العتل : الغليظ الجافي. وقال تعالى عُتُلٍّ بَعْدَ ذلِكَ زَنِيمٍ والعتل أيضا : الرمح الغليظ. ورجل عتل - بالكسر - : بين العتل ، كذا في الصحاح. (ع)

(3). قال محمود : «إن قلت ما أول الخلق حتى يعيده كما بدأه؟ قلت : أول الخلق إيجاده عن العدم ، فكما أوجده أولا عن عدم يعيده ثانيا عن عدم» قلت : هذا الذي ذكره هاهنا في المعاد قد عاد به إلى الحق ورجع عما قاله في سورة مريم ، حيث فسر الاعادة بجمع المتفرق خاصة ، إلا أنه كدر صفو اعترافه بالحق بتفسيره قوله إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ بالقدرة على الفعل ، ولا يلزم على هذا من القدرة على الفعل حصوله ، تحويما على أن الموعود به ليس إعادة الأجسام عن عدم وإن كانت القدرة صالحة لذلك ، ولكن إعادة الأجزاء على صورها مجتمعة مؤتلفة على ما تقدم له في سورة مريم ، إلا أن يكون الباعث له على تفسير الفعل بالقدرة : أن الله ذكر ماضيا والاعادة وقوعها مستقبل ، فتعين عنده من ثم حمل الفعل على القدرة فقد قارب ، ومع ذلك فالحق بقاء الفعل على ظاهره لأن الأفعال المستقبلة التي علم الله وقوعها ، كالماضية في التحقيق ، فمن ثم عبر عن المستقبل بالماضي في مواضع كثيرة من الكتاب العزيز. والغرض الإيذان بتحقيق وقوعه ، والله أعلم.

قلت : هو كقولك : هو أوّل رجل جاءني ، تريد أوّل الرجال ، ولكنك وحدته ونكرته إرادة تفصيلهم رجلا رجلا ، فكذلك معنى أَوَّلَ خَلْقٍ : أوّل الخلق ، بمعنى : أوّل الخلائق ، لأن الخلق مصدر لا يجمع. ووجه آخر ، وهو أن ينتصب الكاف بفعل مضمر يفسره نُعِيدُهُ وما موصولة ، أى : نعيد مثل الذي بدأناه نعيده. وأول خلق : ظرف لبدأناه ، أى : أوّل ما خلق ، أو حال من ضمير الموصول الساقط من اللفظ ، الثابت في المعنى وَعْداً مصدر مؤكد ، لأنّ قوله نُعِيدُهُ عدة للإعادة إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ أى قادرين على أن نفعل ذلك.

[سورة الأنبياء (21) : آية 105]

وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ (105)

عن الشعبي رحمة الله عليه : زبور داود عليه السلام ، والذكر : التوراة. وقيل اسم لجنس ما أنزل على الأنبياء من الكتب. والذكر : أم الكتاب ، يعني اللوح ، أى : يرثها المؤمنون بعد إجلاء الكفار ، كقوله تعالى وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَمَغارِبَهَا ، قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ وعن ابن عباس رضى الله عنه : هي أرض الجنة. وقيل : الأرض المقدّسة ، ترثها أمّة محمد صلى الله عليه وسلم.

[سورة الأنبياء (21) : آية 106]

إِنَّ فِي هذا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عابِدِينَ (106)

الإشارة إلى المذكور في هذه السورة من الأخبار والوعد والوعيد والمواعظ البالغة. والبلاغ : الكفاية وما تبلغ به البغية.

[سورة الأنبياء (21) : آية 107]

وَما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ (107)

أرسل صلى الله عليه وسلم رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ لأنه جاء بما يسعدهم إن اتبعوه. ومن خالف ولم يتبع. فإنما أتى من عند نفسه حيث ضيع نصيبه منها. ومثاله : أن يفجر الله عينا غديقة ، فيسقى ناس زروعهم ومواشيهم بمائها فيفلحوا ، ويبقى ناس مفرطون عن السقي فيضيعوا ، فالعين المفجرة في نفسها ، نعمة من الله ورحمة للفريقين ، ولكن الكسلان محنة على نفسه ، حيث حرمها ما ينفعها. وقيل : كونه رحمة للفجار ، من حيث أنّ عقوبتهم أخرت بسببه وأمنوا به عذاب الاستئصال.

[سورة الأنبياء (21) : آية 108]

قُلْ إِنَّما يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (108)

إنما لقصر الحكم على شيء ، أو لقصر الشيء على حكم ، كقولك : إنما زيد قائم ، وإنما يقوم زيد. وقد اجتمع المثالان في هذه الآية ، لأن إِنَّما يُوحى إِلَيَّ مع فاعله ، بمنزلة : إنما يقوم زيد. وأَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ بمنزلة : إنما زيد قائم. وفائدة اجتماعهما : الدلالة على أن الوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقصور على استئثار الله بالوحدانية : وفي قوله فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ أن الوحى الوارد على هذا السنن موجب أن تخلصوا التوحيد لله ، وأن تخلعوا الأنداد. وفيه أن صفة الوحدانية يصح أن تكون طريقها السمع. ويجوز أن يكون المعنى: أن الذي يوحى إلى ، فتكون «ما» موصولة.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 109 إلى 111]

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلى سَواءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ ما تُوعَدُونَ (109) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ ما تَكْتُمُونَ (110) وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ (111)

آذن : منقول من أذن إذا علم ، ولكنه كثر استعماله في الجري مجرى الإنذار. ومنه قوله تعالى فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وقول ابن حلزة : آذنتنا ببينها أسماء «1»

والمعنى : أنى بعد توليكم وإعراضكم عن قبول ما عرض عليكم من وجوب توحيد الله وتنزيهه عن الأنداد والشركاء ، كرجل بينه وبين أعدائه هدنة فأحس منهم بغدرة ، فنبذ إليهم العهد ، وشهر النبذ وأشاعه وآذنهم جميعا بذلك عَلى سَواءٍ أى مستوين في الإعلام به ،

(1) آذنتنا ببينها أسماء رب ثاو يمل منه الثواء
للحارث بن حلزة مطلع معلقته. وأذن الشيء : علمه بحاسة الأذن ، وتوسع فيه حتى صار بمعنى مطلق العلم. وآذنه - بالمد - : أعلمه. والبين : مصدر بمعنى البعد والفراق. وتقدم أن «أسماء» من الوسامة أى الحسن. والثاوي : المقيم.
والملل : السآمة. والثواء : الاقامة. يقول : أعلمتنا لفراقها. ورب سقيم يسأم الناس من إقامته ، وهي ليست كذلك. وحذف هذا للعلم به من المقام.

لم يطوه عن أحد منهم وكاشف كلهم ، وقشر العصا عن لحائها «1». وما تُوعَدُونَ من غلبة المسلمين عليكم كائن لا محالة ، ولا بد من أن يلحقكم بذلك الذلة والصغار ، وإن كنت لا أدرى متى يكون ذلك لأن اللّه لم يعلمني علمه ولم يطلعني عليه ، واللّه عالم لا يخفى عليه ما تجاهرون به من كلام الطعانين في الإسلام ، وما تَكْتُمُونَ في صدوركم من الإحن والأحقاد للمسلمين ، وهو يجازيكم عليه.

وما أدرى لعلّ تأخير هذا الموعد امتحان لكم لينظر كيف تعملون. أو تمتيع لكم إِلى حِينٍ ليكون ذلك حجة عليكم، وليقع الموعد في وقت هو فيه حكمة.

[سورة الأنبياء (21) : آية 112]

قالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمنُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ (112)

قرئ قل وقالَ ، على حكاية قول رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. ورَبِّ احْكُمْ على الاكتفاء بالكسرة. ورب احكم، على الضم. وربى أحكم ، على أفعل التفضيل. وربى أحكم : من الإحكام ، أمر باستعجال العذاب لقومه فعذبوا ببدر. ومعنى بِالْحَقِّ لا تحابهم وشدد عليهم كما هو حقهم ، كما قال «اشدد وطأتك على مضر» «2» قرئ تَصِفُونَ بالتاء والياء.

كانوا يصفون الحال على خلاف ما جرت عليه ، وكانوا يطمعون أن تكون لهم الشوكة والغلبة ، فكذب اللّه ظنونهم وخيب آمالهم ، ونصر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والمؤمنين ، وخذلهم.

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم «من قرأ اقترب للناس حسابهم حاسبه اللّه حسابا يسيرا ، وصافحه وسلم عليه كل نبىّ ذكر اسمه في القرآن» «3».

(1). قوله «لحائها» في الصحاح : اللحاء - ممدود - قشر الشجر. (ع)
(2). متفق عليه من حديث أبى هريرة في قصة القنوت في صلاة الصبح.
(3). أخرجه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبى بن كعب

سورة الحج

مكية ، غيرست آيات ، وهي : هذان خصمان ... إلى قوله ... إلى صراط الحميد وهي ثمان وسبعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الحج (22) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1)

الزلزلة : شدّة التحريك والإزعاج ، وأن يضاعف زليل الأشياء «1» عن مقارّها ومراكزها ولا تخلو السَّاعَةِ من أن تكون على تقدير الفاعلة لها ، كأنها هي التي تزلزل الأشياء على المجاز الحكمي ، فتكون الزلزلة مصدرا مضافا إلى فاعله. أو على تقدير المفعول فيها على طريقة الاتساع في الظرف وإجرائه مجرى المفعول به ، كقوله تعالى بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وهي الزلزلة المذكورة في قوله إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها واختلف في وقتها ، فعن الحسن أنها تكون يوم القيامة وعن علقمة والشعبي : عند طلوع الشمس من مغربها. أمر بنى آدم بالتقوى ، ثم علل وجوبها عليهم بذكر الساعة ووصفها بأهول صفة ، لينظروا إلى تلك الصفة ببصائرهم ويتصوّروها بعقولهم ، حتى يبقوا على أنفسهم ويرحموها من شدائد ذلك اليوم ، بامتثال ما أمرهم به ربهم من التردي بلباس التقوى ، الذي لا يؤمنهم من تلك الأفزاع إلا أن يترددوا به. وروى أنّ هاتين الآيتين نزلتا ليلا في غزوة بنى المصطلق ، فقرأهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم ير أكثر باكيا من تلك الليلة ، فلما أصبحوا لم يحطوا السروج عن الدواب ، ولم يضربوا الخيام وقت النزول ، ولم يطبخوا قدرا ، وكانوا من بين حزين وباك ومفكر «2»

---

(1). قوله «و أن يضاعف زليل الأشياء» أى يكرر انحراف الأشياء وتزحزحها عن مواضعها. وفي الصحاح : تقول زللت يا فلان - بالفتح - تزل زليلا : إذا زل في طين أو منطق. (ع) [.....]

(2). هكذا ذكره الثعلبي والبغوي. قالا : روى عن عمران بن حصين وأبى سعيد الخدري وغيرهما أن هاتين الآيتين نزلتا ليلا في غزوة بنى المصطلق إلى آخره» قلت : وهو ملفق من حديثيه المذكورين. وثالثهما ابن عباس فيما رواه ابن إسحاق عن الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس قال «بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسيره في غزوة بنى المصطلق إذ نزل عليه يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ - إلى - شَدِيدٌ

فوقف على ناقته ، ورفع صوته - الحديث ، ورواه الترمذي والنسائي والحاكم من طريق الحسن عن عمران بن حصين «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في بعض أسفاره وقد تقارب من أصحابه السير ورفع بهاتين صوته يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ - إلى قوله : وَلكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ

فلما سمع أصحابه بذلك حثوا المطىّ وعرفوا أنه عنده قول يقوله ، فلما التفوا حوله قال : أتدرون أى يوم ذلك؟ يوم ينادى آدم - الحديث. وفيه : فأبلس أصحابه حتى ما أوضحوا بضاحكة. فلما رأى ذلك قال : اعلموا وأبشروا - الحديث» وأما آخره فلم أره.

[سورة الحج (22) : آية 2]

يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وَتَرَى النَّاسَ سُكارى وَما هُمْ بِسُكارى وَلكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (2)

يَوْمَ تَرَوْنَها منصوب بتذهل. والضمير للزلزلة. وقرئ : تذهل كل مرضعة ، على البناء للمفعول : وتذهل كل مرضعة أى : تذهلها الزلزلة. والذهول : الذهاب عن الأمر مع دهشة. فإن قلت : لم قيل مُرْضِعَةٍ دون مرضع؟ قلت : المرضعة التي هي في حال الإرضاع ملقمة ثديها الصبى. والمرضع : التي شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به «1» فقيل : مرضعة ، ليدل على أن ذلك الهول إذا فوجئت به هذه وقد ألقمت الرضيع ثديها نزعته عن فيه لما يلحقها من الدهشة عَمَّا أَرْضَعَتْ عن إرضاعها ، أو عن الذي أرضعته وهو الطفل وعن الحسن : تذهل المرضعة عن ولدها لغير فطام ، وتضع الحامل ما في بطنها لغير تمام. قرئ وَتَرَى بالضم من أريتك قائما. أو رؤيتك قائما» . والنَّاسَ منصوب ومرفوع ، والنصب ظاهر. ومن رفع جعل الناس اسم ترى ، وأنثه على تأويل الجماعة. وقرئ : سكرى. وبسكرى ، وهو نظير : جوعى وعطشى ، في جوعان وعطشان. وسكارى وبسكارى ، نحو كسالى وعجالى. وعن الأعمش : سكرى ، وبسكرى ، بالضم ، وهو غريب. والمعنى : وتراهم سكارى على التشبيه ، وما هم بسكارى على التحقيق «3» ولكن ما رهقهم من خوف عذاب الله هو الذي أذهب عقولهم وطير تمييزهم وردّهم في نحو حال من يذهب السكر بعقله وتمييزه.

(1). قال محمود : «يقال مرضع على النسب ومرضعة على أصل اسم الفاعل» قال أحمد : والفرق بينهما أن وروده على النسب لا يلاحظ فيه حدوث الصفة المشتق منها ، ولكن مقتضاه أنه موصوف بها ، وعلى غير النسب يلاحظ حدوث الفعل وخروج الصفة عليه، وكذلك هو في الآية لقوله عَمَّا أَرْضَعَتْ فأخرج الصفة على الفعل ، وألحقه التاء.

(2). قوله «أو رؤيتك قائما» لعله : أو رؤيت قائما. (ع)

(3). قال محمود : «و قوله وترى الناس سكارى وما هم بسكارى : أثبت لهم أولا السكر المجازى ، ثم نفى عنهم السكر الحقيقي» قال أحمد : والعلماء يقولون : إن من أدلة المجاز صدق نقيضه ، كقولك : زيد حمار ، إذا وصفته بالبلادة ، ثم يصدق أن تقول : وما هو بحمار ، فتنفى عنه الحقيقة ، فكذلك الآية بعد أن أثبت السكر المجازى نفى الحقيقة أبلغ نفى مؤكد بالباء. والسر في تأكيده : التنبيه على أن هذا السكر الذي هو بهم في تلك الحالة ليس من المعهود في شيء ، وإنما هو أمر لم يعهدوا قبله مثله ، والاستدراك بقوله وَلكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ راجع إلى قوله وَما هُمْ بِسُكارى

وكأنه تعليل لاثبات السكر المجازى ، كأنه قيل : إذا لم يكونوا سكارى من الخمر وهو السكر المعهود ، فما هذا السكر الغريب وما سببه؟ فقال : سببه شدة عذاب الله تعالى ، ونقل عن جعفر بن محمد الصادق رضى الله عنه أنه قال : هو الوقت الذي يقول كل من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيه «نفسي نفسي».

وقيل وتراهم سكارى من الخوف ، وما هم بسكارى من الشراب. فإن قلت : لم قيل أوّلا : ترون ، ثم قيل : ترى، على الإفراد؟ قلت : لأنّ الرؤية أوّلا علقت بالزلزلة فجعل الناس جميعا رائين لها ، وهي معلقة أخيرا بكون الناس على حال السكر ، فلا بد أن يجعل كل واحد منهم رائيا لسائرهم.

[سورة الحج (22) : الآيات 3 إلى 4]

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ (3) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلاَّهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ (4)

قيل : نزلت في النضر بن الحرث ، وكان جدلا يقول : الملائكة بنات الله ، والقرآن أساطير الأولين ، والله غير قادر على إحياء من بلى وصار ترابا. وهي عامة في كل من تعاطى الجدال فيما يجوز على الله وما لا يجوز من الصفات والأفعال ، ولا يرجع إلى علم ولا يعضّ فيه بضرس قاطع ، وليس فيه اتباع للبرهان ولا نزول على النصفة ، فهو يخبط خبط عشواء ، غير فارق بين الحق والباطل وَيَتَّبِعُ في ذلك خطوات كُلَّ شَيْطانٍ عات ، علم من حاله وظهر وتبين أنه من جعله وليا له لم تثمر له ولايته إلا الإضلال عن طريق الجنة والهداية إلى النار. وما أرى رؤساء أهل الأهواء «1» والبدع والحشوية المتلقبين بالإمامة في دين الله إلا داخلين تحت كل هذا دخولا أوليا ، بل هم أشدّ الشياطين إضلالا وأقطعهم لطريق الحق ، حيث دوّنوا الضلال تدوينا ولقنوه أشياعهم تلقينا ، وكأنهم ساطوه بلحومهم «2» ودمائهم ، وإياهم عنى من قال : ويا ربّ مقفوّ الخطا بين قومه طريق نجاة عندهم مستو نهج ولو قرءوا في اللّوح ما خطّ فيه من بيان اعوجاج في طريقته عجّوا «3» اللهم ثبتنا على المعتقد الصحيح الذي رضيته لملائكتك في سمواتك ، وأنبيائك في أرضك ، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين. والكتبة عليه مثل ، أى : كأنما كتب إضلال من يتولاه عليه ورقم به لظهور ذلك في حاله. وقرئ : أنه ، فأنه بالفتح والكسر ، فمن فتح فلأن الأول فاعل كتب ، والثاني عطف عليه.

(1). قوله «رؤساء أهل الأهواء» إن كان مراده أهل السنة كما هو عادته في الكتابة من التشنيع عليهم ، فينبغي مطالبته بالفرق بينهم وبين المعتزلة ، حتى استحقوا التشنيع دونهم. (ع)

(2). قوله «و كأنهم ساطوه بلحومهم» أى خلطوه. (ع)

(3). يا : للتنبيه أو للنداء. والمنادى محذوف. والمقفو : المتبوع. والخطا : جمع خطوة ، مستعارة للأفعال بجامع التبعية في كل ، وكذلك الطريق مستعار للقفو من حيث اتباعه فيها ودوامه عليها. مستو : مستقيم. والنهج والمنهج والمنهاج : الطريق الواضح. والاعوجاج مستعار للبس وللكذب. وعجوا : ضجوا وصاحوا.

ومن كسر فعلى حكاية المكتوب كما هو ، كأنما «1» كتب عليه هذا الكلام ، كما تقول : كتبت : إنّ الله هو الغنى الحميد. أو على تقدير : قيل. أو على أن كتب فيه معنى القول.

[سورة الحج (22) : آية 5]

يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (5)

قرأ الحسن مِنَ الْبَعْثِ بالتحريك. ونظيره : الجلب والطرد ، في الجلب والطرد ، كأنه قيل : إن ارتبتم في البعث فمزيل ريبكم أن تنظروا في بدء خلقكم. والعلقة : قطعة الدم الجامدة.

والمضغة : اللحمة الصغيرة قدر ما يمضغ. والمخلقة : المسواة الملساء من النقصان والعيب. يقال : خلق السواك والعود ، إذا سواه وملسه ، من قولهم : صخرة خلقاء ، وإذا كانت ملساة ، كأنّ اللّه تعالى يخلق المضغ متفاوتة : منها ما هو كامل الخلقة أملس من العيوب ، ومنها ما هو على عكس ذلك فيتبع ذلك التفاوت تفاوت الناس في خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم ، وتمامهم ونقصانهم.

وإنما نقلناكم من حال إلى حال ومن خلقة إلى خلقة لِنُبَيِّنَ لَكُمْ بهذا التدريج قدرتنا وحكمتنا وأن من قدر على خلق البشر من تراب أولا ، ثم من نطفة ثانيا ولا تناسب بين الماء والتراب وقدر على أن يجعل النطفة علقة وبينهما تباين ظاهر ، ثم يجعل العلقة مضغة والمضغة عظاما : قدر على إعادة ما أبدأه ، بل هذا أدخل في القدرة من تلك ، وأهون في القياس. وورود الفعل غير معدى إلى المبين : إعلام بأن أفعاله هذه يتبين بها من قدرته وعلمه ما لا يكتنهه الذكر ولا يحيط به الوصف وقرأ ابن أبى عبلة : ليبين لكم. ويقرّ ، بالياء. وقرئ : ونقرّ. ونخرجكم، بالنون والنصب. ويقرّ ، ويخرجكم ، ويقرّ ، ويخرجكم : بالنصب والرفع. وعن يعقوب : نقرّ ، بالنون وضم القاف ، من قرّ الماء إذا صبه ، فالقراءة بالرفع إخبار بأنه يقرّ فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ أن يقرّه من ذلك إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى وهو وقت الوضع آخر ستة أشهر ، أو تسعة ، أو سنتين ، أو أربع ، أو كما شاء وقدّر.

وما لم يشأ إقراره محته الأرحام أو أسقطته. والقراءة بالنصب : تعليل معطوف على تعليل.

---

(1). قوله «هو كأنما» لعله : أى كأنما. (ع)

ومعناه : خلقناكم مدرجين هذا التدريج لغرضين ، أحدهما : أن نبين قدرتنا. والثاني : أن نقر في الأرحام من نقرّ، حتى يولدوا وينشؤا ويبلغوا حد التكليف فأكلفهم. ويعضد هذه القراءة قوله ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وحده لأن الغرض الدلالة على الجنس. ويحتمل : نخرج كل واحد منكم طفلا. الأشد : كمال القوة والعقل والتمييز ، وهو من ألفاظ الجموع التي لم يستعمل لها واحد كالأسدّة «1» والقتود والأباطيل وغير ذلك ، وكأنها شدّة في غير شيء واحد ، فبنيت لذلك على لفظ الجمع. وقرئ : ومنكم من يتوفى ، أى يتوفاه اللّه أَرْذَلِ الْعُمُرِ الهرم والخرف، حتى يعود كهيئته الأولى في أوان طفولته : ضعيف البنية ، سخيف العقل ، قليل الفهم. بين أنه كما قدر على أن يرقيه في درجات الزيادة حتى يبلغه حد التمام ، فهو قادر على أن يحطه حتى ينتهى به إلى الحالة السفلى لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً أى : ليصير نساء بحيث إذا كسب علما في شيء لم ينشب أن ينساه ويزل عنه علمه حتى يسأل عنه من ساعته ، يقول لك : من هذا؟ فتقول : فلان ، فما يلبث لحظة إلا سألك عنه. وقرأ أبو عمرو : العمر ، بسكون الميم. الهامدة : الميتة اليابسة. وهذه دلالة ثانية على البعث ، ولظهورها وكونها مشاهدة معاينة ، كررها اللّه في كتابه اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ تحرّكت بالنبات وانتفخت ، وقرئ : ربأت ، أى ارتفعت. البهيج : الحسن السارّ للناظر إليه.

[سورة الحج (22) : الآيات 6 إلى 7]

ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتى وَأَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (7)

أى : ذلك الذي ذكرنا من خلق بنى آدم وإحياء الأرض ، مع ما في تضاعيف ذلك من أصناف الحكم واللطائف ، حاصل بهذا وهو السبب في حصوله ، ولولاه لم يتصور كونه ، وهو بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ أى الثابت الموجود ، وأنه قادر على إحياء الموتى وعلى كل مقدور ، وأنه حكيم لا يخلف ميعاده ، وقد وعد الساعة والبعث ، فلا بدّ أن يفي بما وعد.

[سورة الحج (22) : الآيات 8 إلى 10]

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ (8) ثانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَذابَ الْحَرِيقِ (9) ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ يَداكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ (10)

(1). قوله «من ألفاظ الجموع التي لم يستعمل لها واحد كالأسدة والقتود والأباطيل» الذي في الصحاح «السدّ» بالفتح : واحد الأسدة وهي العيوب اه وهي مثل العمى والصمم والبكم على غير قياس ، وكان قياسه : سدود.
والقتد : خشب الرحل ، وجمعه : قتود وأقتاد. والباطل : ضد الحق ، والجمع أباطيل على غير قياس كأنهم جمعوا إبطيلا. وفيه أيضا قوله تعالى حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ أي قوته وهو واحد جاء على بناء الجمع ، مثل «آنك» وهو الأسربّ ، ولا نظير لهما ، ويقال له : جمع لا واحد له من لفظه ، مثل : أبابيل ، وعباديد ، ومذاكير. (ع)

عن ابن عباس أنه أبو جهل بن هشام. وقيل : كرر كما كررت سائر الأقاصيص. وقيل : الأوّل في المقلدين ، وهذا في المقلدين. والمراد بالعلم : العلم الضروري. وبالهدى : الاستدلال والنظر ، لأنه يهدى إلى المعرفة. وبالكتاب المنير : الوحى ، أى يجادل بظن وتخمين ، لا بأحد هذه الثلاثة. وثنى العطف : عبارة عن الكبر والخيلاء ، كتصعير الخدّ وليّ الجيد. وقيل : عن الإعراض عن الذكر. وعن الحسن : ثانى عطفه ، بفتح العين ، أى : مانع تعطفه لِيُضِلَّ تعليل للمجادلة. قرئ بضم الياء وفتحها. فإن قلت : ما كان غرضه من جداله الضلال عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فكيف علل به؟ وما كان أيضا مهتديا حتى إذا جادل خرج بالجدال من الهدى إلى الضلال؟ قلت : لما أدّى جداله إلى الضلال ، جعل كأنه غرضه ، ولما كان الهدى معرضا له فتركه وأعرض عنه وأقبل على الجدال بالباطل ، جعل كالخارج من الهدى إلى الضلال. وخزيه : ما أصابه يوم بدر من الصغار والقتل ، والسبب فيما منى به من خزى الدنيا وعذاب الآخرة : هو ما قدمت يداه ، وعدل الله في معاقبته الفجار وإثابته الصالحين.

[سورة الحج (22) : الآيات 11 إلى 13]

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلى حَرْفٍ فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيا وَالْآخِرَةَ ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ (11) يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُ وَما لا يَنْفَعُهُ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ (12) يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (13)

عَلى حَرْفٍ على طرف من الدين لا في وسطه وقلبه. وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب في دينهم ، لا على سكون وطمأنينة ، كالذي يكون على طرف من العسكر ، فإن أحسّ بظفر وغنيمه قرّ واطمأن ، وإلا فرّ وطار على وجهه. قالوا : نزلت في أعاريب قدموا المدينة ، وكان أحدهم إذا صح بدنه ونتجت فرسه مهرا سريا ، وولدت امرأته غلاما سويا ، وكثر ماله وماشيته قال : ما أصبت منذ دخلت في دينى هذا إلا خيرا ، واطمأن. وإن كان الأمر بخلافه قال : ما أصبت إلا شرا ، وانقلب. وعن أبى سعيد الخدري أن رجلا من اليهود أسلم فأصابته مصائب ، فتشاءم بالإسلام ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أقلني ، فقال «إنّ الإسلام لا يقال» «1» فنزلت. المصاب بالمحنة بترك التسليم لقضاء الله والخروج إلى ما يسخط الله :

(1). هكذا ذكره الواحدي في الأسباب ، لكن بغير إسناد. فقال : روى عطية عن أبى سعيد ، فذكره سواه وأخرجه ابن مردويه من رواية عطية عن أبى سعيد قال «أسلم رجل من اليهود فذهب ماله وولده ، وتشاءم بالإسلام - الحديث نحوه» وإسناده ضعيف وأخرج العقيلي من رواية عنبسة بن سعيد عن أبى الزبير عن جابر قال :
«أتى النبي صلى الله عليه وسلم يهودى فأسلم على يديه ، ثم رجع إلى منزله فأصيب في عينه وفي ولده فرجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم. فقال : أقلنى - الحديث» ولم يذكر فيه نزول الآية. وعنبسة ضعيف جدا.

جامع على نفسه محنتين ، إحداهما : ذهاب ما أصيب به. والثانية : ذهاب ثواب الصابرين ، فهو خسران الدارين. وقرئ : خاسر الدنيا والآخرة بالنصب والرفع ، فالنصب على الحال ، والرفع على الفاعلية. ووضع الظاهر موضع الضمير ، وهو وجه حسن. أو على أنه خبر مبتدإ محذوف. استعير الضَّلالُ الْبَعِيدُ من ضلال من أبعد في التيه ضالا ، فطالت وبعدت مسافة ضلالته. فإن قلت : الضرر والنفع منفيان عن الأصنام مثبتان لها في الآيتين ، وهذا تناقض.

قلت : إذا حصل المعنى ذهب هذا الوهم ، وذلك أن الله تعالى سفه الكافر بأنه يعبد جمادا لا يملك ضرا ولا نفعا، وهو يعتقد فيه بجهله وضلاله أنه يستنفع به حين يستشفع به ، ثم قال : يوم القيامة يقول هذا الكافر بدعاء وصراخ ، حين يرى استضراره بالأصنام ودخوله النار بعبادتها ، ولا يرى أثر الشفاعة التي ادعاها لها لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ أو كرّر يدعو ، كأنه قال : يدعو يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ، ثم قال : لمن ضره بكونه معبودا أقرب من نفعه بكونه شفيعا لبئس المولى. وفي حرف عبد الله : من ضره ، بغير لام. المولى : الناصر. والعشير : الصاحب ، كقوله فَبِئْسَ الْقَرِينُ.

[سورة الحج (22) : الآيات 14 إلى 15]

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ (14) مَنْ كانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّماءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ما يَغِيظُ(15)
هذا كلام قد دخله اختصار. والمعنى. إن اللّه ناصر رسوله في الدنيا والاخرة ، فمن كان يظنّ من حاسديه وأعاديه أن اللّه يفعل خلاف ذلك ويطمع فيه ، ويغيظه أنه يظفر بمطلوبه ، فليستقص وسعه وليستفرغ مجهوده في إزالة ما يغيظه ، بأن يفعل ما يفعل من بلغ منه الغيظ كل مبلغ حتى مدّ حبلا إلى سماء بيته فاختنق ، فلينظر وليصوّر في نفسه أنه إن فعل ذلك هل يذهب نصر اللّه الذي يغيظه؟ وسمى الاختناق قطعا لأنّ المختنق يقطع نفسه بحبس مجاريه.

ومنه قيل للبهر : القطع «1». وسمى فعله كيدا لأنه وضعه موضع الكيد ، حيث لم يقدر على غيره.

(1). قوله «و منه قيل للبهر القطع» أى تتابع النفس. أفاده الصحاح. (ع)

أو على سبيل الاستهزاء لأنه لم يكد به محسوده إنما كاد به نفسه. والمراد : ليس في يده إلا ما ليس بمذهب لما يغيظه. وقيل : فليمدد بحبل إلى السماء المظلة. وليصعد عليه فليقطع الوحى أو ينزل عليه. وقيل : كان قوم من المسلمين لشدّة غيظهم وحنقهم على المشركين يستبطئون ما وعد اللّه رسوله من النصر ، وآخرون من المشركين يريدون اتباعه ويخشون أن لا يثبت أمره. فنزلت. وقد فسر النصر : بالرزق ، وقيل : معناه أن الأرزاق بيد اللّه لا تنال إلا بمشيئته ولا بد للعبد من الرضا بقسمته ، فمن ظنّ أن اللّه غير رازقه وليس به صبر واستسلام ، فليبلغ غاية الجزع وهو الاختناق ، فإن ذلك لا يقلب القسمة ولا يردّه مرزوقا.

[سورة الحج (22) : آية 16]

وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ آياتٍ بَيِّناتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ (16)

أى : ومثل ذلك الإنزال أنزلنا القرآن كله آياتٍ بَيِّناتٍ وَل أَنَّ اللَّهَ يَهْدِي به الذين يعلم أنهم يؤمنون. أو يثبت الذين آمنوا ويزيدهم هدى ، أنزله كذلك مبينا.

[سورة الحج (22) : آية 17]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصارى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (17)

الفصل مطلق يحتمل الفصل بينهم في الأحوال والأماكن جميعا ، فلا يجازيهم جزاء واحدا بغير تفاوت ، ولا يجمعهم في موطن واحد. وقيل : الأديان خمسة : أربعة للشيطان وواحد للرحمن. جعل الصابئون مع النصارى لأنهم نوع منهم. وقيل يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يقضى بينهم ، أى بين المؤمنين والكافرين. وأدخلت إِنَّ على كل واحد من جزأى الجملة لزيادة التوكيد.

ونحوه قول جرير : إنّ الخليفة إنّ اللّه سربله سربال ملك به ترجى الخواتيم «1»

[سورة الحج (22) : آية 18]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يَشاءُ (18)

(1). لجرير. وقوله «إن اللّه سربله» خير إن الأولى ، وكررها لتوكيد التوكيد. وسربله : كساه بالملك الشبيه بالسربال. ويروى : سربال ملك به ، أى : بذلك اللباس أو الملك ، تزجى : أى تساق الخواتيم : جمع خاتم - بالفتح والكسر - والأصل : خواتم ، فزيدت الياء. والمراد بها : عواقب الأمور الحميدة. وقال أبو حيان : يحتمل أن خبر إن قوله «به تزجى» وجملة «إن اللّه سربله» اعتراضية. ويروى : «به ترجى» بالراء ، وليحرر.

سميت مطاوعتها له فيما يحدث فيها من أفعاله ويجريها عليه من تدبيره وتسخيره لها : سجودا له ، تشبيها لمطاوعتها بإدخال أفعال المكلف في باب الطاعة والانقياد ، وهو السجود الذي كل خضوع دونه ، فإن قلت : فما تصنع بقوله وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وبما فيه من الاعتراضين ، أحدهما : أنّ السجود على المعنى الذي فسرته به ، لا يسجده بعض الناس دون بعض. والثاني : أنّ السجود قد أسند على سبيل العموم إلى من في الأرض من الإنس والجن أولا ، فإسناده إلى كثير منهم آخرا مناقضة؟ قلت : لا أنظم كثيرا في المفردات المتناسقة الداخلة تحت حكم الفعل ، وإنما أرفعه بفعل مضمر يدل عليه قوله يَسْجُدُ أى ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة وعبادة.

ولم أقل : أفسر يسجد الذي هو ظاهر بمعنى الطاعة والعبادة في حق هؤلاء ، لأنّ اللفظ الواحد لا يصحّ استعماله في حالة واحدة على معنيين مختلفين ، أو أرفعه على الابتداء والخبر محذوف وهو مثاب ، لأنّ خبر مقابله يدل عليه ، وهو قوله حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ ويجوز أن يجعل مِنَ النَّاسِ خبرا له ، أى : من الناس الذين هم الناس على الحقيقة وهم الصالحون والمتقون. ويجوز أن يبالغ في تكثير المحقوقين بالعذاب ، فيعطف كثير على كثير ، ثم يخبر عنهم بحقّ عليهم العذاب ، كأنه قيل : وكثير وكثير من الناس حق عليهم العذاب ، وقرئ : حق ، بالضم. وقرئ : حقا ، أى حقّ عليهم العذاب حقا. ومن أهانه الله - بأن كتب عليه الشقاوة لما سبق في علمه من كفره أو فسقه - فقد بقي مهانا «1» ، لن تجد له مكرما. وقرئ : مكرم ، بفتح الراء بمعنى الإكرام.

إنه يَفْعَلُ ما يَشاءُ من الإكرام والإهانة ، ولا يشاء من ذلك إلا ما يقتضيه عمل العاملين واعتقاد المعتقدين.

[سورة الحج (22) : الآيات 19 إلى 22]

هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ (19) يُصْهَرُ بِهِ ما فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (20) وَلَهُمْ مَقامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (21) كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيها وَذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ (22)

الخصم : صفة وصف بها الفوج أو الفريق ، فكأنه قيل : هذان فوجان أو فريقان مختصمان وقوله هذانِ للفظ. واخْتَصَمُوا للمعنى ، كقوله وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذا خَرَجُوا ولو قيل : هؤلاء خصمان.

(1). قوله «من كفره أو فسقه فقد بقي مهانا» مبنى على أن الفاسق واسطة بين المؤمن والكافر ، وأنه يخلد في النار كالكافر ، وهو مذهب المعتزلة. والحق عند أهل السنة أنه مؤمن ، وإن دخل النار مخرج منها بالشفاعة أو بمجرد فضله تعالى. (ع)

أو اختصما : جاز. يراد المؤمنون والكافرون. قال ابن عباس : رجع إلى أهل الأديان الستة فِي رَبِّهِمْ أى في دينه وصفاته. وروى أن أهل الكتاب قالوا للمؤمنين : نحن أحق بالله ، وأقدم منكم كتابا ، ونبينا قبل نبيكم. وقال المؤمنون : نحن أحق بالله ، آمنا بمحمد ، وآمنا بنبيكم وبما أنزل الله من كتاب ، وأنتم تعرفون كتابنا ونبينا ثم تركتموه وكفرتم به حسدا ، فهذه خصومتهم في ربهم فَالَّذِينَ كَفَرُوا هو فصل الخصومة المعنىّ بقوله تعالى إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وفي رواية عن الكسائي : خصمان ، بالكسر ، وقرئ : قطعت بالتخفيف ، كأنّ الله تعالى يقدّر لهم نيرانا على مقادير جثثهم تشتمل عليهم كما تقطع الثياب الملبوسة. ويجوز أن تظاهر على كل واحد منهم تلك النيران كالثياب المظاهرة على اللابس بعضها فوق بعض. ونحوه سَرابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرانٍ. الْحَمِيمُ الماء الحار. عن ابن عباس رضى الله عنه : لو سقطت منه نقطة على جبال الدنيا لأذابتها يُصْهَرُ يذاب. وعن الحسن بتشديد الهاء للمبالغة ، أى : إذا صبّ الحميم على رؤسهم كان تأثيره في الباطن نحو تأثيره في الظاهر ، فيذيب أحشاءهم وأمعاءهم كما يذيب جلودهم ، وهو أبلغ من قوله وَسُقُوا ماءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ والمقامع : السياط. في الحديث : «لو وضعت مقمعة منها في الأرض فاجتمع عليها الثقلان ما أقلوها «1»» ، وقرأ الأعمش : ردوا فيها. والإعادة والرد لا يكون إلا بعد الخروج ، فالمعنى : كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم فخرجوا أعيدوا فيها. ومعنى الخروج : ما يروى عن الحسن أنّ النار تضربهم بلهبها فترفعهم ، حتى إذا كانوا في أعلاها ضربوا بالمقامع فهووا فيها سبعين خريفا وَقيل لهم ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ والحريق : الغليظ من النار المنتشر العظيم الإهلاك.

[سورة الحج (22) : الآيات 23 إلى 25]

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ (23) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلى صِراطِ الْحَمِيدِ (24) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

يُحَلَّوْنَ عن ابن عباس : من حليت المرأة فهي حال «2» وَلُؤْلُؤاً بالنصب على :

(1). وهو عند أحمد وأبى يعلى من رواية ابن لهيعة عن دراج. لفظه في قوله وَلَهُمْ مَقامِعُ مِنْ حَدِيدٍ : لو وضع مقمع منها في الأرض ... الحديث. [.....]
(2). قوله «من حليت المرأة فهي حال» الذي في الصحاح : حليت المرأة ، أى : صارت ذات حلى ، فهي حلية وحالية. (ع)

ويؤتون لؤلؤا ، كقوله : وحورا عينا. ولؤلوا بقلب الهمزة الثانية واوا. ولوليا ، بقلبهما واوين ، ثم بقلب الثانية ياء كأدل. ولول كأدل فيمن جرّ. ولولؤ. وليليا ، بقلبهما ياءين ، عن ابن عباس : وهداهم اللّه وألهمهم أن يقولوا الحمد للّه الذي صدقنا وعده ، وهداهم إلى طريق الجنة. يقال : فلان يحسن إلى الفقراء وينعش المضطهدين ، لا يراد حال ولا استقبال ، وإنما يراد استمرار وجود الإحسان منه والنعشة في جميع أزمنته وأوقاته. ومنه قوله تعالى وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أى الصدود منهم مستمرّ دائم لِلنَّاسِ أى الذين يقع عليهم اسم الناس من غير فرق بين حاضر وباد وتانئ «1» وطارئ ومكي وآفاقى. وقد استشهد به أصحاب أبى حنيفة قائلين : إنّ المراد بالمسجد الحرام : مكة ، على امتناع جواز بيع دور مكة وإجارتها.

وعند الشافعي : لا يمتنع ذلك. وقد حاور إسحاق بن راهويه فاحتجّ بقوله الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وقال أنسب الديار إلى مالكيها ، أو غير مالكيها؟ واشترى عمر بن الخطاب رضى اللّه تعالى عنه دار السجن من مالكيه أو غير مالكيه؟ سَواءً بالنصب : قراءة حفص. والباقون على الرفع. ووجه النصب أنه ثانى مفعولي جعلناه ، أى : جعلناه مستويا الْعاكِفُ فِيهِ وَالْبادِ وفي القراءة بالرفع. الجملة مفعول ثان. الإلحاد : العدول عن القصد ، وأصله إلحاد الحافر. وقوله بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ حالان مترادفتان. ومفعول يُرِدْ متروك ليتناول كل متناول ، كأنه قال : ومن يرد فيه مرادا ما عادلا عن القصد ظالما نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ يعنى أنّ الواجب على من كان فيه أن يضبط نفسه ويسلك طريق السداد والعدل في جميع ما يهمّ به ويقصده. وقيل : الإلحاد في الحرم : منع الناس عن عمارته وعن سعيد بن جبير : الاحتكار. وعن عطاء : قول الرجل في المبايعة «لا واللّه ، وبلى واللّه» وعن عبد اللّه بن عمر أنه كان له فسطاطان ، أحدهما : في الحل ، والآخر في الحرم ، فإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الحل، «2» فقيل له ، فقال ، كنا نحدث أن من الإلحاد فيه أن يقول الرجل : لا واللّه ، وبلى واللّه. وقرئ : يرد ، بفتح الياء من الورود. ومعناه : من أتى فيه بإلحاد ظالما. وعن الحسن : ومن يرد إلحاده بظلم ، أراد : إلحادا فيه ، فأضافه على الاتساع في الظرف ، كمكر الليل. ومعناه : من يرد أن يلحد فيه ظالما. وخبر إن محذوف لدلالة جواب الشرط عليه ، تقديره : إن الذين كفروا ويصدون عن المسجد الحرام نذيقهم من عذاب أليم ، وكل من ارتكب فيه ذنبا فهو كذلك. عن ابن مسعود : الهمة في الحرم تكتب ذنبا.

(1). قوله «و تانئ» في الصحاح : تنأت بالبلد تنوءا : قطنته. والناتئ من ذلك. (ع)
(2). أخرجه الطبري والأزرقى في تاريخ مكة من رواية شعبة عن منصور عن مجاهد قال «كان لعبد اللّه بن عمرو ابن العاص ... فذكره».
«تنبيه» ما في نسخ الكشاف «ابن عمر» تصحيف ، وإنما هو «ابن عمرو».

[سورة الحج (22) : آية 26]

وَإِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (26)

واذكر حين جعلنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ مباءة ، أى : مرجعا يرجع إليه للعمارة والعبادة.

رفع البيت إلى السماء أيام الطوفان وكان من ياقوتة حمراء ، فأعلم اللّه إبراهيم مكانه بريح أرسلها يقال لها الخجوج : كنست ما حوله ، فبناه على أسه القديم. وأن هي المفسرة. فإن قلت : كيف يكون النهى عن الشرك والأمر بتطهير البيت تفسيرا للتبوئة؟ قلت : كانت التبوئة مقصودة من أجل العبادة ، فكأنه قيل : تعبدنا إبراهيم قلنا له : لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ من الأصنام والأوثان «1» والأقذار أن تطرح حوله. وقرئ : يشرك ، بالياء على الغيبة.

[سورة الحج (22) : آية 27]

وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالاً وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (27)

وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ ناد فيهم. وقرأ ابن محيصن : وآذن. والنداء بالحج : أن يقول : حجوا ، أو عليكم بالحج. وروى أنه صعد أبا قبيس فقال : يا أيها الناس حجوا بيت «2» ربكم. وعن الحسن أنه خطاب لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، أمر أن يفعل ذلك في حجة الوداع «3» رِجالًا مشاة جمع راجل ، كقائم وقيام. وقرئ : رجالا ، بضم الراء مخفف الجيم ومثقله ، ورجالي كعجالى عن ابن عباس وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ حال معطوفة على حال ، كأنه قال : رجالا وركبانا يَأْتِينَ صفة لكل ضامر ، لأنه في معنى الجمع. وقرئ : يأتون ، صفة للرجال والركبان.

والعميق : البعيد ، وقرأ ابن مسعود : معيق. يقال : بئر بعيدة العمق والمعق «4».

[سورة الحج (22) : آية 28]

لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ (28)

نكر المنافع لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودنيوية لا توجد في غيرها من العبادات. وعن أبى حنيفة رحمه اللّه : أنه كان يفاضل بين العبادات قبل أن يحج ، فلما حجّ فضل الحج على العبادات كلها ، لما شاهد من تلك الخصائص.

(1). قوله «و الأوثان» في الصحاح «الوثن» : الصنم. (ع)
(2). أخرجه الثعلبي عن الحسن فذكره. وسنده إليه في أول الكتاب.
(3). أخرجه الطبري عن ابن عباس ، بلفظ «قام عند الحجر» وفي رواية «عند مقامه. وقال : يا أيها الناس حجوا بيت ربكم فأجابوه لبيك اللهم لبيك»
(4). قوله «بعيدة العمق والمعق» في الصحاح «المعق» : قلب العمق ، والامعاق : مثل الاعماق ، وهو ما بعد من أطراف المفاوز. (ع)

وكنى عن النحر والذبح بذكر اسم اللّه ، لأن أهل الإسلام لا ينفكون عن ذكر اسمه إذا نحروا أو ذبحوا. وفيه تنبيه على أن الغرض الأصلى فيما يتقرّب به إلى اللّه أن يذكر اسمه ، وقد حسن الكلام تحسينا بينا : أن جمع بين قوله لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ ، وقوله : عَلى ما رَزَقَهُمْ ولو قيل : لينحروا في أيام معلومات بهيمة الأنعام ، لم تر شيئا من ذلك الحسن والروعة. الأيام المعلومات : أيام العشر عند أبى حنيفة ، وهو قول الحسن وقتادة. وعند صاحبيه: أيام النحر. البهيمة : مبهمة في كل ذات أربع في البر والبحر ، فبينت بالأنعام : وهي الإبل والبقر والضأن والمعز. الأمر بالأكل منها أمر إباحة ، لأن أهل الجاهلية كانوا لا يأكلون من نسائكهم ، ويجوز أن يكون ندبا لما فيه من مساواة الفقراء ومواساتهم ومن استعمال التواضع. ومن ثمة استحب الفقهاء أن يأكل الموسع من أضحيته مقدار الثلث. وعن ابن مسعود أنه بعث بهدى وقال فيه : إذا نحرته فكل وتصدّق وابعث منه إلى عتبة ، يعنى ابنه «1». وفي الحديث «2» : «كلوا وادخروا وائتجروا» «3» الْبائِسَ الذي أصابه بؤس أى شدة : والْفَقِيرَ الذي أضعفه الإعسار.

[سورة الحج (22) : آية 29]

ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (29)

قضاء التفث : قص الشارب والأظفار ونتف الإبط والاستحداد ، والتفث : الوسخ ، فالمراد قضاء إزالة التفث. وقرئ : وليوفوا ، بتشديد الفاء نُذُورَهُمْ مواجب حجهم ، أو ما عسى ينذرونه من أعمال البر في حجهم وَلْيَطَّوَّفُوا طواف الإفاضة ، وهو طواف الزيارة الذي هو من أركان الحج ، ويقع به تمام التحلل. وقيل : طواف الصدر ، وهو طواف الوداع الْعَتِيقِ القديم ، لأنه أول بيت وضع للناس عن الحسن. وعن قتادة : أعتق من الجبابرة ، كم من جبار سار إليه ليهدمه فمنعه اللّه. وعن مجاهد : لم يملك قط. وعنه : أعتق من الغرق. وقيل : بيت كريم ،

(1). أخرجه الطبري من رواية حبيب بن أبى ثابت عن إبراهيم عن علقمة - أن عبد اللّه بعث معه بهدى. فقال :

كل أنت وأصحابك ثلثا وتصدق بثلث وابعث إلى أخى عتبة بثلث «تنبيه» وقع في نسخ الكشاف يعنى ابنه وهو تحريف وإنما هو أخوه.
(2). أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة وأحمد وإسحاق من رواية خالد الحذاء عن أبى المليح عن عتبة قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «إنا كنا نهيناكم عن لحوم الأضاحى ألا تأكلوها فوق ثلاث لكي يسعكم.
وقد جاء اللّه بالسعة فكلوا وادخروا وائتجروا : لفظ أبى داود. وليس عند مسلم والنسائي وابن ماجة «و ائتجروا» والنسائي في رواية «و تصدقوا» وله شاهد عن أبى سعيد الخدري عن أحمد «فائدة» قال في النهاية : ائتجروا أى تصدقوا طالبين للأجر. وليس هو اتجر بالإدغام من التجارة وأجاز الهروي الإدغام واستدل عليه بقوله «من يتجر مع هذا فيصلى معه» ولا دلالة فيه لأنه يحتمل أن يكون من التجارة.
(3). قوله «و ائتجروا» الظاهر أن المراد : اطلبوا الأجر بالصدقة. (ع)

من قولهم : عتاق الخيل والطير. فإن قلت : قد تسلط عليه الحجاج فلم يمنع. قلت : ما قصد التسلط على البيت ، وإنما تحصن به ابن الزبير ، فاحتال لإخراجه ثم بناه. ولما قصد التسلط عليه أبرهة ، فعل به ما فعل.

[سورة الحج (22) : الآيات 30 إلى 31]

ذلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُماتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعامُ إِلاَّ ما يُتْلى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (30) حُنَفاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكانٍ سَحِيقٍ (31)

ذلِكَ خبر مبتدإ محذوف ، أى : الأمر والشأن ذلك ، كما يقدّم الكاتب جملة من كتابه في بعض المعاني ، ثم إذا أراد الخوض في معنى آخر قال : هذا وقد كان كذا. والحرمة : ما لا يحل هتكه. وجميع ما كلفه اللّه تعالى بهذه الصفة من مناسك الحج وغيرها ، فيحتمل أن يكون عاما في جميع تكاليفه ، ويحتمل أن يكون خاصا فيما يتعلق بالحج. وعن زيد بن أسلم : الحرمات خمس الكعبة الحرام ، والمسجد الحرام ، والبلد الحرام ، والشهر الحرام ، والمحرم حتى يحل فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ أى فالتعظيم خير له. ومعنى التعظيم : العلم بأنها واجبة المراعاة والحفظ والقيام بمراعاتها. المتلوّ لا يستثنى من الأنعام ، ولكن المعنى إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ آية تحريمه ، وذلك قوله في سورة المائدة حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ والمعنى : أنّ اللّه قد أحل لكم الأنعام كلها إلا ما استثناه في كتابه ، فحافظوا على حدوده ، وإياكم أن تحرموا مما أحل شيئا ، كتحريم عبدة الأوثان البحيرة والسائبة وغير ذلك ، وأن تحلوا مما حرم اللّه ، كاحلالهم أكل الموقوذة والميتة وغير ذلك.

لما حث على تعظيم حرماته وأحمد من يعظمها «1» أتبعه الأمر باجتناب الأوثان وقول الزور ، لأن توحيد اللّه ونفى الشركاء عنه وصدق القول أعظم الحرمات وأسبقها خطوا. وجمع الشرك وقول الزور في قران واحد ، وذلك أنّ الشرك من باب الزور لأنّ المشرك زاعم أنّ الوثن تحق له العبادة ، فكأنه قال : فاجتنبوا عبادة الأوثان التي هي رأس الزور واجتنبوا قول الزور كله لا تقربوا شيئا منه لتماديه في القبح والسماجة. وما ظنك بشيء من قبيله عبادة الأوثان. وسمى الأوثان رجسا وكذلك الخمر والميسر والأزلام ، على طريق التشبيه. يعنى : أنكم كما تنفرون بطباعكم عن الرجس وتجتنبونه ، فعليكم أن تنفروا عن هذه الأشياء مثل تلك النفرة. ونبه على هذا المعنى بقوله رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ فَاجْتَنِبُوهُ جعل العلة في اجتنابه أنه رجس ، والرجس مجتنب مِنَ الْأَوْثانِ بيان للرجس وتمييز له ،

---

(1). قوله «و أحمد من يعظمها» في الصحاح «أحمدته» : وجدته محمودا موافقا مرضيا. (ع)

كقولك : عندي عشرون من الدراهم ، لأنّ الرجس مبهم يتناول غير شيء ، كأنه قيل : فاجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان. والزور من الزور والازورار وهو الانحراف ، كما أنّ الإفك من أفكه إذا صرفه. وقيل قَوْلَ الزُّورِ قولهم : هذا حلال وهذا حرام ، وما أشبه ذلك من افترائهم. وقيل : شهادة الزور. عن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه صلى الصبح فلما سلم قام قائما واستقبل الناس بوجهه وقال «عدلت شهادة الزور الإشراك باللّه ، عدلت شهادة الزور الإشراك باللّه ، عدلت شهادة الزور الإشراك باللّه» «1» وتلا هذه الاية.

وقيل : الكذب والبهتان. وقيل : قول أهل الجاهلية في تلبيتهم : لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك. يجوز في هذا التشبيه أن يكون من المركب والمفرق ، فإن كان تشبيها مركبا فكأنه قال : من أشرك باللّه فقد أهلك نفسه إهلاكا ليس بعده نهاية ، بأن صور حاله بصورة حال من خرّ من السماء فاختطفته الطير ، فتفرق مزعا «2» في حواصلها ، أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطاوح «3» البعيدة. وإن كان مفرقا فقد شبه الإيمان في علوه بالسماء ، والذي ترك الإيمان وأشرك باللّه بالساقط من السماء ، والأهواء

(1). أخرجه أبو داود وأحمد وإسحاق وابن أبى شيبة من رواية سفيان بن زياد العصفري عن أبيه عن حبيب ابن النعمان عن حريم بن فاتك. وأخرجه الترمذي من رواية العصفري عن فاتك بن فضالة عن أنس بن حريم كذا قال.
(2). قوله «مزعا» مفرده «مزعة» بالضم. أى : قطعة لحم كما في الصحاح. (ع)
(3). قوله «و المطاوح» أى المقاذف. وطاح يطوح ويطيح : هلك وسقط. وطوحته الطوائح : قذفته القواذف ، كذا في الصحاح أيضا. (ع) [.....]
(4). قال محمود : «و يجوز في هذا التشبيه أن يكون مركبا ومفرقا ، فان كان مركبا فكأنه قال : من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكا ليس بعده نهاية ، بأن صور حاله بصورة من خر من السماء فاختطفته الطير فصيرته مزعا في حواصلها ، أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطاوح البعيدة ، وإن كان مفرقا فقد شبه الايمان في علوه بالسماء والذي ترك الايمان وأشرك بالله بالساقط من السماء ، وشبه الأهواء التي تتوزع أفكاره بالطير المختطفة ، والشيطان الذي يطوح به في وادى الضلالة بالريح تهوى بما عصفت به في بعض المهاوى المتلفة» قال أحمد : أما على تقدير أن يكون مفرقا ، فيحتاج تأويل تشبيه المشرك بالهاوى من السماء إلى التنبيه على أحد أمرين : إما أن يكون الاشراك المراد ردته ، فانه حينئذ كمن علا إلى السماء بإيمانه ثم هبط بارتداده. وإما أن يكون الاشراك أصليا ، فيكون قد عد تمكن المشرك من الايمان ومن العلو به ثم عدوله عنه اختيارا ، بمنزلة من علا إلى السماء ثم هبط كما قال تعالى وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُماتِ فعدهم مخرجين من النور وما دخلوه قط ، ولكن كانوا متمكنين منه. وقد مضى تقرير هذا المعنى بأبسط من هذا. وفي تقريره تشبيه الأفكار المتوزعة للكافر بالطير المختطفة ، وفي تشبيه تطويح الشيطان بالهوى مع الريح في مكان سحيق : نظر ، لأن الأمرين ذكرا في سياق تقسيم حال الكافر إلى قسمين ، فإذا جعل الأول مثلا لاختلاف الأهواء والأفكار. والثاني مثلا لنزغ الشيطان : فقد جعلهما شيئا واحدا ، لأن توزع الأفكار واختلاف الأهواء ، مضاف إلى نزغ الشيطان ، فلا يتحقق التقسيم المقصود.
والذي يظهر في تقرير التشبيهين غير ذلك ، فنقول : لما انقسمت حال الكافر إلى قسمين لا مزيد عليهما ، الأول منهما : المتذبذب والمتمادى على الشك وعدم التصميم على ضلالة واحدة ، فهذا القسم من المشركين مشبه بمن اختطفته الطير وتوزعته فلا يستولى طائر على مزعة منه إلا انتهبها منه آخر ، وذلك حال المذبذب لا يلوح له خيال إلا اتبعه ونزل عما كان عليه. والثاني : مشرك مصمم على معتقد باطل ، لو نشر بالمباشير لم يكع ولم يرجع لا سبيل إلى تشكيكه ولا مطمع في نقله عما هو عليه ، فهو فرح مبتهج لضلالته، فهذا مشبه في إقراره على كفره باستقرار من هوت به الريح إلى واد سافل فاستقر فيه. ونظير تشبيهه بالاستقرار في الوادي السحيق الذي هو أبعد الأخباء عن السماء : وصف ضلاله بالبعد في قوله تعالى أُولئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ ضَلُّوا ضَلالًا بَعِيداً أى صمموا على ضلالهم فبعد رجوعهم إلى الحق ، فهذا تحقيق القسمين ، والله أعلم.

وقرئ : فتخطفه. بكسر الخاء والطاء. وبكسر التاء مع كسرهما ، وهي قراءة الحسن. وأصلها : تختطفه. وقرئ: الرياح.

[سورة الحج (22) : الآيات 32 إلى 33]

ذلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللَّهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (32) لَكُمْ فِيها مَنافِعُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ(33)

تعظيم الشعائر - وهي الهدايا ، لأنها من معالم الحج - : أن يختارها عظام الأجرام حسانا سمانا غالية الأثمان ، ويترك المكاس في شرائها ، فقد كانوا يغالون في ثلاث - ويكرهون المكاس فيهنّ - : الهدى ، والأضحية ، والرقبة. وروى ابن عمر عن أبيه رضى الله عنهما أنه أهدى نجيبة طلبت منه بثلاثمائة دينار ، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبيعها ويشترى بثمنها بدنا.

فنهاه عن ذلك وقال : «بل أهدها «1»» وأهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة بدنة ، فيها جمل لأبى جهل في أنفه برّة من ذهب «2». وكان ابن عمر يسوق البدن مجللة بالقباطى «3» فيتصدّق بلحومها وبجلالها «4» ، ويعتقد أن طاعة الله في التقرّب بها وإهدائها إلى بيته المعظم أمر عظيم لا بدّ أن يقام به ويسارع فيه فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ أى فإن تعظيمها من أفعال ذوى تقوى القلوب ، فحذفت هذه المضافات ، ولا يستقيم المعنى إلا بتقديرها ، لأنه لا بد من راجع من الجزاء إلى مَنْ ليرتبط به ،

(1). تقدم الكلام عليه في أثناء سورة البقرة.
(2). أخرجه إسحاق والبزار من حديث على. وفي الباب عن جابر قال كان جميع ما جاء به مائة بدنة فيها جمل في أنفه برة من فضة أخرجه الحاكم والطبراني من رواية زيد بن الحباب عن الثوري عن جعفر بن محمد عن أبيه عنه قال البخاري هذا خطأ من زيد. وإنما هو عن الثوري عن أبى إسحاق عن مجاهد مرسلا. وقد جاء عن مجاهد عن ابن عباس قال «أهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم في هداياه جملا كان لأبى جهل في رأسه برة من ذهب ليغيظ به المشركين» أخرجه أبو داود والحاكم وأبو يعلى والطبراني.
(3). قوله «مجللة بالقباطى» في الصحاح : القبط أهل مصر. والقبطية : ثياب بيض رقاق من كتان تتخذ بمصر والجمع قباطي. (ع)
(4). أخرجه مالك في الموطأ عن نافع عنه بهذا وأتم منه. ورواه ابن أبى شيبة من طريق فليح عن نافع نحوه.

وإنما ذكرت القلوب لأنها مراكز التقوى التي إذا ثبتت فيها وتمكنت ، ظهر أثرها في سائر الأعضاء. إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إلى أن تنحر ويتصدق بلحومها ويؤكل منها.

وثُمَّ للتراخي في الوقت ، فاستعيرت للتراخي في الأحوال. والمعنى : أن لكم في الهدايا منافع كثيرة في دنياكم ودينكم ، وإنما يعتدّ الله بالمنافع الدينية ، قال سبحانه تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وأعظم هذه المنافع وأبعدها شوطا في النفع : مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ أى وجوب نحرها. أو وقت وجوب نحرها في الحرم منتهية إلى البيت ، كقوله هَدْياً بالِغَ الْكَعْبَةِ والمراد نحرها في الحرم الذي هو في حكم البيت ، لأن الحرم هو حريم البيت. ومثل هذا في الاتساع قولك : بلغنا البلد ، وإنما شارفتموه واتصل مسيركم بحدوده. وقيل : المراد بالشعائر : المناسك كلها ، ومَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ يأباه.

[سورة الحج (22) : الآيات 34 إلى 35]

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (34) الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلى ما أَصابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (35)

شرع الله لكل أمة أن ينسكوا له : أى يذبحوا لوجهه على وجه التقرّب ، وجعل العلة في ذلك أيذكر اسمه تقدست أسماؤه على النسائك : وقرئ مَنْسَكاً بفتح السين وكسرها ، وهو مصدر بمعنى النسك ، والمكسور يكون بمعنى الموضع فَلَهُ أَسْلِمُوا أى أخلصوا له الذكر خاصة ، واجعلوه لوجهه سالما ، أى : خالصا لا تشوبوه بإشراك.
المخبتون : المتواضعون الخاشعون ، من الخبت وهو المطمئن من الأرض. وقيل : هم الذين لا يظلمون ، وإذا ظلموا لم ينتصروا. وقرأ الحسن وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ بالنصب على تقدير النون. وقرأ ابن مسعود : والمقيمين الصلاة ، على الأصل.

[سورة الحج (22) : آية 36]

وَالْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيها خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْها صَوافَّ فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْقانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذلِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (36)

الْبُدْنَ جمع بدنة ، سميت لعظم بدنها وهي الإبل خاصة ، ولأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ألحق البقر بالإبل حين قال : «البدنة عن سبعة ، والبقرة عن سبعة» «1» ، فجعل البقر في حكم الإبل ، صارت البدنة في الشريعة متناولة للجنسين عند أبى حنيفة وأصحابه ، وإلا فالبدن هي الإبل وعليه تدل الآية ، وقرأ الحسن : والبدن ، بضمتين ، كثمر في جمع ثمرة. وابن أبى إسحاق بالضمتين وتشديد النون على لفظ الوقف. وقرئ بالنصب والرفع كقوله وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ.

مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ أى من أعلام الشريعة التي شرعها الله. وإضافتها إلى اسمه : تعظيم لها لَكُمْ فِيها خَيْرٌ كقوله لَكُمْ فِيها مَنافِعُ ومن شأن الحاج أن يحرص على شيء فيه خير ومنافع بشهادة الله. عن بعض السلف أنه لم يملك إلا تسعة دنانير ، فاشترى بها بدنة ، فقيل له في ذلك ، فقال : سمعت ربى يقول لَكُمْ فِيها خَيْرٌ وعن ابن عباس : دنيا وآخرة. وعن إبراهيم : من احتاج إلى ظهرها ركب ، ومن احتاج إلى لبنها شرب. وذكر اسم الله : أن يقول عند النحر : الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر ، اللهم منك وإليك صَوافَّ قائمات قد صففن أيديهنّ وأرجلهنّ. وقرئ : صوافن ، من صفون الفرس ، وهو أن يقوم على ثلاث وينصب الرابعة على طرف سنبكه ، لأن البدنة تعقل إحدى يديها فتقوم على ثلاث. وقرئ : صوافي ، أى : خوالص لوجه الله. وعن عمرو بن عبيد : صوافنا ، بالتنوين عوضا من حرف الإطلاق عند الوقف. وعن بعضهم : صواف «2» نحو مثل العرب. أعط القوس باريها ، بسكون الياء.

وجوب الجنوب : وقوعها على الأرض ، من وجب الحائط وجبة إذا سقط. ووجبت الشمس جبة : غربت. والمعنى : فإذا وجبت جنوبها وسكنت نسائسها «3» حل لكم الأكل منها والإطعام الْقانِعَ السائل ، من قنعت إليه وكنعت : إذا خضعت له وسألته قنوعا وَالْمُعْتَرَّ المعترض بغير سؤال ، أو القانع الراضي بما عنده وبما يعطى من غير سؤال ، من قنعت قنعا وقناعة.

والمعتر : المعترض بسؤال. وقرأ الحسن : والمعترى. وعرّه وعراه واعتراه واعتره : بمعنى.

وقرأ أبو رجاء : القنع ، وهو الراضي لا غير. يقال : قنع فهو قنع وقانع.

منّ الله على عباده واستحمد إليهم بأن سخر لهم البدن مثل التسخير الذي رأوا وعلموا ، يأخذونها منقادة للأخذ طيعة فيعقلونها ويحبسونها صافة قوائمها ، ثم يطعنون في لبانها. ولولا تسخير الله لم تطق ، ولم نكن بأعجز من بعض الوحوش التي هي أصغر منها جرما وأقل قوّة ، وكفى بما يتأبد من الإبل شاهدا وعبرة.

(1). لم أره مرفوعا من لفظه. نعم أخرجه أبو داود بلفظ «الجزور عن سبعة» وأخرجه مسلم وأصحاب السنن من رواية مالك عن أبى الزبير عن جابر قال «نحرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة» وفي الباب عن ابن مسعود عند الطبراني.
(2). قوله «صواف» لعله : صوافي ، بالسكون. (ع)
(3). قوله «و سكنت نسائسها» في الصحاح «النسيسة ، والنسيس» الإيكال بين الناس. والنسائس : النمائم.
والنسيس : بقية الروح. وفيه أيضا «الإيكال بين الناس» السعى بينهم. (ع)

[سورة الحج (22) : آية 37]

لَنْ يَنالَ اللَّهَ لُحُومُها وَلا دِماؤُها وَلكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ كَذلِكَ سَخَّرَها لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلى ما هَداكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (37)

أى : لن يصيب رضا الله اللحوم المتصدق بها ولا الدماء المهراقة بالنحر ، والمراد أصحاب اللحوم والدماء ، والمعنى : لن يرضى المضحون والمقرّبون ربهم إلا بمراعاة النية والإخلاص والاحتفاظ بشروط التقوى في حل ما قرب به ، وغير ذلك من المحافظات الشرعية وأوامر الورع. فإذا لم يراعوا ذلك ، لم تغن عنهم التضحية والتقريب وإن كثر ذلك منهم. وقرئ : لن تنال الله. ولكن تناله : بالتاء والياء. وقيل : كان أهل الجاهلية إذا نحروا البدن نضحوا الدماء حول البيت ولطخوه بالدم ، فلما حج المسلمون أرادوا مثل ذلك ، فنزلت.

كرّر تذكير النعمة بالتسخير ثم قال : لتشكروا الله على هدايته إياكم لأعلام دينه ومناسك حجه ، بأن تكبروا وتهللوا ، فاختصر الكلام بأن ضمن التكبير معنى الشكر ، وعدى تعديته.

[سورة الحج (22) : آية 38]

إِنَّ اللَّهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (38)

خص المؤمنين بدفعه عنهم ونصرته لهم ، كما قال إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا وقال إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وقال وَأُخْرى تُحِبُّونَها نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وجعل العلة في ذلك أنه لا يحب أضدادهم : وهم الخونة الكفرة الذين يخونون الله والرسول ويخونون أماناتهم ويكفرون نعم الله ويغمطونها «1». ومن قرأ يُدافِعُ فمعناه يبالغ في الدفع عنهم ، كما يبالغ من يغالب فيه ، لأن فعل المغالب يجيء أقوى وأبلغ.

[سورة الحج (22) : الآيات 39 إلى 41]

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَواتٌ وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (40) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ (41)

(1). قوله «و يغمطونها» أى : يحقرونها. (ع)

أُذِنَ ويُقاتَلُونَ قرئا على لفظ المبنى للفاعل والمفعول جميعا : والمعنى : أذن لهم في القتال ، فحذف المأذون فيه لدلالة يقاتلون عليه بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا أى بسبب كونهم مظلومين وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : كان مشركو مكة يؤذونهم أذى شديدا ، وكانوا يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين مضروب ومشجوج يتظلمون إليه ، فيقول لهم : اصبروا فإنى لم أومر بالقتال ، حتى هاجر فأنزلت هذه الآية ، وهي أول آية أذن فيها بالقتال بعد ما نهى عنه في نيف وسبعين «1» آية. وقيل : نزلت في قوم خرجوا مهاجرين فاعترضهم

دفع الله بعض الناس ببعض : إظهاره وتسليطه المسلمين منهم على الكافرين بالمجاهدة ، ولولا ذلك لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة في أزمنتهم ، وعلى متعبداتهم فهدموها ، ولم يتركوا للنصارى بيعا ، ولا لرهبانهم صوامع ، ولا لليهود صلوات ، ولا للمسلمين مساجد. أو لغلب المشركون من أمّة محمد صلى الله عليه وسلم على المسلمين وعلى أهل الكتاب الذين في ذمتهم وهدموا متعبدات الفريقين. وقرئ : دفاع. ولهدمت : بالتخفيف. وسميت الكنيسة «صلاة» لأنه يصلى فيها. وقيل : هي كلمة معرّبة ، أصلها بالعبرانية : صلوثا مَنْ يَنْصُرُهُ أى ينصر دينه وأولياءه : هو إخبار من الله عز وجل بظهر الغيب عما ستكون عليه سيرة المهاجرين رضى الله عنهم إن مكنهم في الأرض وبسط لهم في الدنيا ، وكيف يقومون بأمر الدين. وعن عثمان رضى الله عنه : هذا والله ثناء قبل بلاء. يريد : أنّ الله قد أثنى عليهم قبل أن يحدثوا من الخير ما أحدثوا.

وقالوا : فيه دليل على صحة أمر الخلفاء الراشدين ، لأنّ الله لم يعط التمكين ونفاذ الأمر مع السيرة العادلة غيرهم من المهاجرين ، لا حظ في ذلك للأنصار والطلقاء.

(1). لم أجده هكذا. وعزاه الواحدي في الوسيط للمفسرين. قلت : هو منتزع من أحاديث : أقربها ما أخرجه ابن أبى حاتم من طريق بكير بن معروف عن مقاتل بن حيان قوله أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وذلك أن مشركي أهل مكة كانوا يؤذون المسلمين بمكة ، فاستأذنوا النبي صلى الله عليه وسلم في قتالهم بمكة. فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فلم خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أنزل الله عليه أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وذكر الطبري أن الصحابة رضى الله عنهم استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في قتال الكفار إذا رأوهم وسطوا عليهم بمكة قبل الهجرة غيلة وسرا :
فأنزل الله إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ فلما هاجروهم أحلوهم مالهم وقتالهم فقال أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ - الآية.

وعن الحسن : هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم. وقيل الَّذِينَ منصوب بدل من قوله من ينصره. والظاهر أنه مجرور ، تابع للذين أخرجوا وَلِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ أى مرجعها إلى حكمه وتقديره. وفيه تأكيد لما وعده من إظهار أوليائه وإعلاء كلمتهم.

[سورة الحج (22) : الآيات 42 إلى 44]

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعادٌ وَثَمُودُ (42) وَقَوْمُ إِبْراهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (43) وَأَصْحابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسى فَأَمْلَيْتُ لِلْكافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (44)

يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم تسلية له : لست بأوحدى في التكذيب ، فقد كذب الرسل قبلك أقوامهم ، وكفاك بهم أسوة. فإن قلت : لم قيل وَكُذِّبَ مُوسى ولم يقل : وقوم موسى؟ قلت : لأنّ موسى ما كذبه قومه بنو إسرائيل ، وإنما كذبه غير قومه وهم القبط. وفيه شيء آخر ، كأنه قيل بعد ما ذكر تكذيب كل قوم رسولهم : وكذب موسى أيضا مع وضوح آياته «1» وعظم معجزاته ، فما ظنك بغيره.

النكير : بمعنى الإنكار والتغيير ، حيث أبدلهم بالنعمة محنة ، وبالحياة هلاكا ، وبالعمارة خرابا.

[سورة الحج (22) : آية 45]

فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها وَهِيَ ظالِمَةٌ فَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ (45)

كل مرتفع أظلك من سقف بيت أو خيمة أو ظلة أو كرم فهو «عرش» والخاوي : الساقط ، من خوى النجم إذا سقط. أو الخالي ، من خوى المنزل إذا خلا من أهله. وخوى بطن الحامل وقوله عَلى عُرُوشِها لا يخلو من أن يتعلق بخاوية ، فيكون المعنى أنها ساقطة على سقوفها ، أى خرّت سقوفها على الأرض ، ثم تهدّمت حيطانها فسقطت فوق السقوف. أو أنها ساقطة أو خالية مع بقاء عروشها وسلامتها. وإما أن يكون خبرا بعد خبر ، كأنه قيل : هي خالية ، وهي على عروشها،

(1). قال محمود : «فان قلت : لم قيل وكذب موسى ولم يقل وقوم موسى بدون تكرير التكذيب؟ قلت : لأن قوم موسى هم بنو إسرائيل ولم يكذبوه ، وإنما كذبه القبط. أو لأن آيات موسى كانت باهرة ظاهرة فكأنه قال :
وكذب موسى أيضا على ظهور آياته» قال أحمد : ويحتمل عندي - والله أعلم - أنه لما صدر الكلام بحكاية تكذيبهم ثم عدد أصناف المكذبين وطوائفهم ولم ينته إلى موسى إلا بعد طول الكلام ، حسن تكريره ليلى قوله فَأَمْلَيْتُ لِلْكافِرِينَ فيتصل المسبب بالسبب ، كما قال في آية ق بعد تعديدهم كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ فربط العقاب والوعيد ووصلهما بالتكذيب ، بعد أن جدد ذكره ، والله أعلم.

أى قائمة مطلة على عروشها ، على معنى أنّ السقوف سقطت إلى الأرض فصارت في قرار الحيطان وبقيت الحيطان ماثلة فهي مشرفة على السقوف الساقطة. فإن قلت : ما محل الجملتين من الإعراب أعنى وَهِيَ ظالِمَةٌ ، فَهِيَ خاوِيَةٌ؟ قلت : الأولى في محل النصب على الحال ، والثانية لا محلّ لها لأنها معطوفة على أهلكناها ، وهذا الفعل ليس له محل. قرأ الحسن : معطلة ، من أعطله بمعنى عطله. ومعنى المعطلة : أنها عامرة فيها الماء ، ومعها آلات الاستقاء ، إلا أنها عطلت ، أى : تركت لا يستقى منها لهلاك أهلها. والمشيد : المجصص أو المرفوع البنيان. والمعنى : كم قرية أهلكنا؟ وكم بئر عطلنا عن سقاتها؟ وقصر مشيد أخليناه عن ساكنيه؟ فترك ذلك لدلالة معطلة عليه. وفي هذا دليل على أنّ عَلى عُرُوشِها بمعنى «مع» أوجه. روى أنّ هذه بئر نزل عليها صالح عليه السلام مع أربعة آلاف نفر ممن آمن به. ونجاهم الله من العذاب ، وهي بحضر موت. وإنما سميت بذلك لأنّ صالحا حين حضرها مات ، وثمة بلدة عند البئر اسمها «حاضوراء» بناها قوم صالح ، وأمّروا عليهم جلهس بن جلاس ، وأقاموا بها زمانا ثم كفروا وعبدوا صنما ، وأرسل الله إليهم حنظلة ابن صفوان نبيا فقتلوه ، فأهلكهم الله وعطل بئرهم وخرّب قصورهم.

[سورة الحج (22) : آية 46]

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (46)

يحتمل أنهم لم يسافروا فحثوا على السفر ، ليروا مصارع من أهلكهم الله بكفرهم ، ويشاهدوا آثارهم فيعتبروا. وأن يكونوا قد سافروا ورأوا ذلك ولكن لم يعتبروا ، فجعلوا كأن لم يسافروا ولم يروا. وقرئ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ بالياء ، أى : يعقلون ما يجب أن يعقل من التوحيد ، ويسمعون ما يجب سماعه من الوحى فَإِنَّها الضمير ضمير الشأن والقصة ، يجيء مذكرا ومؤنثا وفي قراءة ابن مسعود : فإنه. ويجوز أن يكون ضميرا مبهما يفسره الْأَبْصارُ وفي تعمى ضمير راجع إليه. والمعنى : أنّ أبصارهم صحيحة سالمة لا عمى بها. وإنما العمى بقلوبهم. أو لا يعتدّ بعمى الأبصار ، فكأنه ليس بعمى بالإضافة إلى عمى القلوب. فإن قلت : أى فائدة في ذكر الصدور؟ قلت : الذي قد تعورف واعتقد أنّ العمى على الحقيقة مكانه البصر ، وهو أن تصاب الحدقة بما يطمس نورها. واستعماله في القلب استعارة ومثل ، فلما أريد إثبات ما هو خلاف المعتقد من نسبة العمى إلى القلوب حقيقة ونفيه عن الأبصار ، احتاج هذا التصوير إلى زيادة تعيين وفضل تعريف ، ليتقرّر أنّ مكان العمى هو القلوب لا الأبصار ، كما تقول : ليس المضاء للسيف ولكنه للسانك الذي بين فكيك ، فقولك «الذي بين فكيك» تقرير لما ادّعيته للسانه وتثبيت لأنّ محلّ المضاء هو هو لا غير ، وكأنك قلت : ما نفيت المضاء عن السيف وأثبته للسانك فلتة ولا سهوا منى ، ولكن تعمدت به إياه بعينه تعمدا.

[سورة الحج (22) : الآيات 47 إلى 48]

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (47) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَها وَهِيَ ظالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُها وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (48)

أنكر استعجالهم بالمتوعد به من العذاب العاجل أو الآجل ، كأنه قال : ولم يستعجلون به؟ كأنهم يجوّزون الفوت، وإنما يجوز ذلك على ميعاد من يجوز عليه الخلف ، والله عز وعلا لا يخلف الميعاد وما وعده ليصيبنهم ولو بعد حين ، وهو سبحانه حليم لا يعجل ، ومن حلمه ووقاره واستقصاره المدد الطوال أنّ يوما واحدا عنده كألف سنة «1» عندكم. وقيل : معناه كيف يستعجلون بعذاب من يوم واحد من أيام عذابه في طول ألف سنة من سنيكم ، لأنّ أيام الشدائد مستطالة. أو كأن ذلك اليوم الواحد لشدّة عذابه كألف سنة من سنى العذاب. وقيل : ولن يخلف الله وعده في النظرة والإمهال. وقرئ : تعدون ، بالتاء والياء ، ثم قال : وكم من أهل قرية كانوا مثلكم ظالمين قد أنظرتهم حينا ثم أخذتهم بالعذاب والمرجع إلىّ وإلى حكمى. فإن قلت : لم كانت الأولى معطوفة بالفاء ، وهذه بالواو؟ قلت : الأولى وقعت بدلا عن قوله فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ وأمّا هذه فحكمها حكم ما تقدّمها من الجملتين المعطوفتين بالواو ، أعنى قوله وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ.

[سورة الحج (22) : الآيات 49 إلى 51]

قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (49) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (50) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (51)

يقال : سعيت في أمر فلان ، إذا أصلحه أو أفسده بسعيه. وعاجزه : سابقه ، لأنّ كل واحد منهما في طلب إعجاز الآخر عن اللحاق به ، فإذا سبقه قيل : أعجزه وعجزه. والمعنى : سعوا في معناها بالفساد من الطعن فيها ، حيث سموها : سحرا وشعرا وأساطير ،

(1). قال محمود : «فيه إيذان بحلم الله تعالى ووقاره واستقصاره الأمد الطويل حتى إن يوما واحدا عنده كألف سنة» قال أحمد : الوقار المقرون بالحلم يفهم لغة : السكون وطمأنينة الأعضاء عند المزعجات والأناة والتؤدة ، ونحو ذلك مما لا يطلق على الله تعالى إلا بتوقيف. وأما الوقار في قوله تعالى ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً فقد فسر بالعظمة فليس من هذا ، وعلى الجملة فهو موقوف على ثبت في النقل.

ومن تثبيط الناس عنها سابقين أو مسابقين في زعمهم ، وتقديرهم طامعين أن كيدهم للإسلام يتم لهم. فإن قلت : كأن القياس أن يقال : إنما أنا لكم بشير ونذير ، لذكر الفريقين بعده. قلت : الحديث مسوق إلى المشركين. ويا أيها الناس : نداء لهم ، وهم الذين قيل فيهم أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ووصفوا بالاستعجال. وإنما أقحم المؤمنون وثوابهم ليغاظوا.

[سورة الحج (22) : آية 52]

وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آياتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (52)

مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ دليل بين على تغاير الرسول والنبي. وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن الأنبياء فقال «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا» قيل فكم الرسول منهم؟ قال : «ثلاثمائة وثلاثة عشر جما غفيرا» «1». والفرق بينهما أن الرسول من الأنبياء : من جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه. والنبىّ غير الرسول : من لم ينزل عليه كتاب وإنما أمر أن يدعو الناس إلى شريعة من قبله. والسبب في نزول هذه الآية أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أعرض عنه قومه وشاقوه وخالفه عشيرته ولم يشايعوه على ما جاء به : تمنى لفرط ضجره من إعراضهم ولحرصه وتهالكه على إسلامهم أن لا ينزل عليه ما ينفرهم ، لعله يتخذ ذلك طريقا إلى استمالتهم واستنزالهم عن غيهم وعنادهم ، فاستمرّ به ما تمناه حتى نزلت عليه سورة «و النجم» وهو في نادى قومه ، وذلك التمني في نفسه ، فأخذ يقرؤها فلما بلغ قوله وَمَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى : أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ التي تمناها ، أى : وسوس إليه بما شيعها به ، فسبق لسانه على سبيل السهو والغلط إلى أن قال : تلك الغرانيق «2» العلى ، وإن شفاعتهنّ لترتجى. وروى : الغرانقة ، ولم يفطن له حتى أدركته العصمة فتنبه عليه.

(1). أخرجه أحمد وإسحاق من رواية معاذ بن رفاعة عن على بن زيد عن القاسم عن أبى أمامة «أن أبا ذر سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : كم الأنبياء؟ فقال : مثله. وعلى ضعيف. ورواه ابن حبان من طريق إبراهيم بن هشام الغساني حدثنا أبى عن حذيفة. يعنى يحيى الغساني عن أبى إدريس الخولاني عن أبى ذر - فذكره في حديث طويل جدا.
وأفرط ابن الجوزي فذكره في الموضوعات واتهم به إبراهيم بن هشام المذكور. ولم يصب في ذلك : فإنها طريقا أخرجها الحاكم وغيره من رواية يحيى بن سعيد السعيدي عن ابن جريج عن عطاء عن عبيد بن عمير عن أبى ذر بطوله. ويحيى السعيدي ضعيف. ولكن لا يأتى الحكم بالوضع مع هذه المتابعة.
(2). أخرجه البزار والطبري والطبراني وابن مردويه من طريق أمية بن خالد عن شعبة عن أبى بشر عن سعيد ابن جبير قال : لا أعلمه إلا عن ابن عباس «أن النبي صلى الله عليه وسلم كان بمكة فقرأ سورة النجم ، حتى انتهى إلى قوله تعالى أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى فجرى على لسانه : تلك الغرانيق العلا ، الشفاعة منها ترتجى ، قال : فسمع بذلك مشركو مكة ، فسروا بذلك. فاشتبه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذا تَمَنَّى - الآية» زاد في رواية ابن مردويه : فلما بلغ آخرها سجد وسجد معه المسلمون والمشركون» ورواه الطبري من طريق سعيد بن جبير مرسلا. وأخرجه ابن مردويه من طريق أبى عاصم النبيل عن عثمان بن الأسود عن سعيد بن جبير عن ابن عباس نحوه. ولم يشك في وصله، وهذا أصح طرف هذا الحديث. قال البزار : تفرد بوصله أمية بن خالد عن شعبة ، وغيره يرويه عنه مرسلا. وأخرجه الطبري وابن مردويه من وجه آخر عن ابن عباس. وهو من طريق العوفى عن جده عطية عنه ، وأخرجه الطبري من طريق محمد بن كعب القرظي ، ومن طريق قتادة ، ومن طريق أبى العالية. فهذه مراسيل يقوى بعضها بعضا. وأصل القصة في الصحيح بلفظ «أن النبي صلى الله عليه وسلم وهو بمكة - فسجد وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والانس» قال البزار :
المعروف في هذا رواية الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس. وأخرجها ابن مردويه من طريقه. وأخرجه الواقدي من طريق أخرى.
قلت : وفي مجموع ذلك رد على عياض حيث قال : إن من ذكر من المفسرين وغيرهم لم يسندها أحد منهم ، ولا رفعها إلى صاحب إلا رواية البزار. وقد بين البزار أنه لا يعرف من طريق يجوز ذكره سوى ما ذكره وفيه ما فيه مع وقوع الشك. قلت : أما ضعفه فلا

وقيل : نبهه جبريل عليه السلام. أو تكلم الشيطان بذلك فأسمعه الناس ، فلما سجد في آخرها سجد معه جميع من في النادي وطابت نفوسهم ، وكان تمكين الشيطان من ذلك محنة من اللّه وابتلاء ، زاد المنافقون به شكا وظلمة ، والمؤمنون نورا وإيقانا. والمعنى : أن الرسل والأنبياء من قبلك كانت هجيراهم كذلك إذا تمنوا مثل ما تمنيت ، مكن اللّه الشيطان ليلقى في أمانيهم مثل ما ألقى في أمنيتك ، إرادة امتحان من حولهم ، واللّه سبحانه له أن يمتحن عباده بما شاء من صنوف المحن وأنواع الفتن ، ليضاعف ثواب الثابتين ويزيد في عقاب المذبذبين. وقيل تَمَنَّى: قرأ. وأنشد : تمنّى كتاب اللّه أوّل ليلة تمنّى داود الزّبور على رسل «1» وأمنيته : قراءته. وقيل : تلك الغرانيق: إشارة إلى الملائكة ، أى : هم الشفعاء لا الأصنام فَيَنْسَخُ اللَّهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ أى يذهب به ويبطله ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آياتِهِ أى يثبتها.

[سورة الحج (22) : الآيات 53 إلى 54]

لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ (53) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ(54)

(1). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 157 فراجعه إن شئت اه مصححه ،

والذين فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ المنافقون والشاكون وَالْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ المشركون المكذبون وَإِنَّ الظَّالِمِينَ يريد : وإن هؤلاء المنافقين والمشركين. وأصله : وإنهم ، فوضع الظاهر موضع الضمير قضاء عليهم بالظلم أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ أى ليعلموا أن تمكين الشيطان من الإلقاء : هو الحق من ربك والحكمة وَإِنَّ اللَّهَ لَهادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلى أن يتأوّلوا ما يتشابه في الدين بالتأويلات الصحيحة ، ويطلبوا لما أشكل منه المحمل الذي تقتضيه الأصول المحكمة والقوانين الممهدة ، حتى لا تلحقهم حيرة ولا تعتريهم شبهة ولا تزلّ أقدامهم. وقرئ : لهاد الذين آمنوا ، بالتنوين.

[سورة الحج (22) : آية 55]

وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (55)

الضمير في مِرْيَةٍ مِنْهُ للقرآن أو الرسول صلى اللّه عليه وسلم. اليوم العقيم : يوم بدر ، وإنما وصف يوم الحرب بالعقيم لأنّ أولاد النساء يقتلون فيه ، فيصرن كأنهن عقم لم يلدن ، أو لأن المقاتلين يقال لهم أبناء الحرب ، فإذا قتلوا وصف يوم الحرب بالعقيم على سبيل المجاز. وقيل : هو الذي لا خير فيه. يقال : ريح عقيم إذا لم تنشئ مطرا ولم تلقح شجرا. وقيل : لا مثل له في عظم أمره لقتال الملائكة عليهم السلام فيه. وعن الضحاك أنه يوم القيامة ، وأن المراد بالساعة مقدّماته. ويجوز أن يراد بالساعة وبيوم عقيم : يوم القيامة ، وكأنه قيل : حتى تأتيهم الساعة أو يأتيهم عذابها ، فوضع يَوْمٍ عَقِيمٍ موضع الضمير.

[سورة الحج (22) : الآيات 56 إلى 57]

الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (56) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا فَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (57)

فإن قلت : التنوين في يَوْمَئِذٍ عن أى جملة ينوب؟ قلت : تقديره : الملك يوم يؤمنون.

أو يوم تزول مريتهم ، لقوله وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ.

[سورة الحج (22) : الآيات 58 إلى 59]

وَالَّذِينَ هاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ ماتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (58) لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (59)

لما جمعتهم المهاجرة في سبيل الله سوّى بينهم في الموعد ، وأن يعطى من مات منهم مثل ما يعطى من قتل تفضلا منه وإحسانا. والله عليهم بدرجات العاملين ومراتب استحقاقهم حَلِيمٌ عن تفريط المفرط منهم بفضله وكرمه. روى أن طوائف من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم قالوا : يا نبى الله ، هؤلاء الذين قتلوا قد علمنا ما أعطاهم الله من الخير ، ونحن نجاهد معك كما جاهدوا ، فما لنا إن متنا معك؟ فأنزل الله هاتين الآيتين.

[سورة الحج (22) : آية 60]

ذلِكَ وَمَنْ عاقَبَ بِمِثْلِ ما عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (60)

تسمية الابتداء بالجزاء لملابسته له من حيث أنه سبب وذاك مسبب عنه كما يحملون النظير على النظير والنقيض على النقيض للملابسة. فإن قلت : كيف طابق ذكر العفوّ الغفور هذا الموضع؟ قلت : المعاقب مبعوث من جهة الله عزّ وجلّ على الإخلال بالعقاب ، والعفو عن الجاني - على طريق التنزيه لا التحريم - ومندوب إليه ، ومستوجب عند الله المدح إن آثر ما ندب إليه وملك سبيل التنزيه ، فحين لم يؤثر ذلك وانتصر وعاقب ، ولم ينظر في قوله تعالى فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوى ، وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ : فإنّ الله لعفو غفور ، أى : لا يلومه على ترك ما بعثه عليه ، وهو ضامن لنصره في كرته الثانية من إخلاله بالعفو وانتقامه من الباغي عليه. ويجوز أن يضمن له النصر على الباغي ، ويعرّض مع ذلك بما كان أولى به من العفو ، ويلوّح به بذكر هاتين الصفتين. أو دلّ بذكر العفو والمغفرة على أنه قادر على العقوبة. لأنه لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضدّه.

[سورة الحج (22) : آية 61]

ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (61)

ذلِكَ أى ذلك النصر بسبب أنه قادر. ومن آيات قدرته البالغة أنه يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ أو بسبب أنه خالق الليل والنهار ومصرفهما فلا يخفى عليه ما يجرى فيهما على أيدى عباده من الخير والشر والبغي والإنصاف ، وأنه سَمِيعٌ لما يقولون بَصِيرٌ بما يفعلون. فإن قلت : ما معنى إيلاج أحد الملوين في الآخر؟ قلت : تحصيل ظلمة هذا في مكان ضياء ذاك بغيبوبة الشمس. وضياء ذاك في مكان ظلمة هذا بطلوعها ، كما يضيء السرب «1»

(1). قوله «كما يضيء السرب» السرب - بالفتح - : الطريق. والسرب - بالتحريك - : بيت في الأرض. أفاده الصحاح. (ع)

بالسراج ويظلم بفقده. وقيل : هو زيادته في أحدهما ما ينقص من الآخر من الساعات.

[سورة الحج (22) : آية 62]

ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْباطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (62)

وقرئ يَدْعُونَ بالتاء والياء. وقرأ اليماني. وأن ما يدعون ، بلفظ المبنى للمفعول ، والواو راجعة إلى «ما» لأنه في معنى الآلهة ، أى : ذلك الوصف بخلق الليل والنهار والإحاطة بما يجرى فيهما وإدراك كل قول وفعل ، بسبب أنه الله الحق الثابت إلهيته ، وأن كل ما يدعى إلها دونه باطل الدعوة ، وأنه لا شيء أعلى منه شأنا وأكبر سلطانا.

[سورة الحج (22) : الآيات 63 إلى 64]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (63) لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (64)

قرئ مُخْضَرَّةً أى ذات خضر ، على مفعلة ، كمقبلة ومسبعة. فإن قلت : هلا قيل : فأصبحت؟ ولم صرف إلى لفظ المضارع؟ قلت : لنكتة فيه ، وهي إفادة بقاء أثر المطر زمانا بعد زمان ، كما تقول : أنعم علىّ فلان عام كذا ، فأروح وأغدو شاكرا له. ولو قلت : فرحت وغدوت ، لم يقع ذلك الموقع. فإن قلت : فما له رفع ولم ينصب جوابا للاستفهام؟ قلت : لو نصب لأعطى ما هو عكس الغرض ، لأنّ معناه إثبات الاخضرار ، فينقلب بالنصب إلى نفى الاخضرار ، مثاله أن تقول لصاحبك : ألم تر أنى أنعمت عليك فتشكر : إن نصبته فأنت ناف لشكره شاك تفريطه فيه ، وإن رفعته فأنت مثبت للشكر. وهذا وأمثاله مما يجب أن يرغب له من اتسم بالعلم في علم الإعراب وتوقير أهله لَطِيفٌ واصل علمه أو فضله إلى كل شيء خَبِيرٌ بمصالح الخلق ومنافعهم.

[سورة الحج (22) : الآيات 65 إلى 66]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (65) وَهُوَ الَّذِي أَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ (66)
ما فِي الْأَرْضِ من البهائم مذللة للركوب في البر ، ومن المراكب جارية في البحر ، وغير ذلك من سائر المسخرات. وقرئ وَالْفُلْكَ بالرفع على الابتداء أَنْ تَقَعَ كراهة أن تقع إِلَّا بمشيئته أَحْياكُمْ بعد أن كنتم جمادا ترابا ، ونطفة ، وعلقة ، ومضغة لَكَفُورٌ لجحود لما أفاض عليه من ضروب النعم.

[سورة الحج (22) : آية 67]

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً هُمْ ناسِكُوهُ فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلى هُدىً مُسْتَقِيمٍ (67) هو نهى لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، أى : لا تلتفت إلى قولهم ولا تمكنهم من أن ينازعوك. أو هو زجر لهم عن التعرض لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بالمنازعة في الدين وهم جهال لا علم عندهم وهم كفار خزاعة. روى أن بديل بن ورقاء وبشر بن سفيان الخزاعيين وغيرهما قالوا للمسلمين : ما لكم تأكلون ما قتلتم ، ولا تأكلون ما قتله اللّه! يعنون الميتة. وقال الزجاج : هو نهى له صلى اللّه عليه وسلم عن منازعتهم ، كما تقول : لا يضارب بنك فلان ، أى : لا تضاربه. وهذا جائز في الفعل الذي لا يكون إلا بين اثنين فِي الْأَمْرِ في أمر الدين. وقيل : في أمر النسائك ، وقرئ : فلا ينزعنك ، أى اثبت في دينك ثباتا لا يطمعون أن يجذبوك ليزيلوك عنه. والمراد : زيادة التثبيت للنبي صلى اللّه عليه وسلم بما يهيج حميته ويلهب غضبه للّه ولدينه.

ومنه قوله وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آياتِ اللَّهِ ، وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكافِرِينَ. وهيهات أن ترتع همة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حول ذلك الحمى ، ولكنه وارد على ما قلت لك من إرادة التهييج والإلهاب. وقال الزجاج : هو من نازعته فنزعته أنزعه ، أى : غلبته ، أى : لا يغلبنك في المنازعة. فإن قلت : لم جاءت نظيرة هذه الآية «1» معطوفة بالواو وقد نزعت عن هذه؟ قلت : لأنّ تلك وقعت مع ما يدانيها ويناسبها من الاى الواردة في أمر النسائك ، فعطفت على أخواتها. وأما هذه فواقعة مع أباعد عن معناها فلم تجد معطفا.

[سورة الحج (22) : آية 68]

وَإِنْ جادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ (68)

أى : وإن أبوا للجاجهم إلا المجادلة بعد اجتهادك أن لا يكون بينك وبينهم تنازع ، فادفعهم بأن اللّه أعلم بأعمالكم وبقبحها وبما تستحقون عليها من الجزاء فهو مجازيكم به. وهذا وعيد وإنذار ، ولكن برفق ولين.

[سورة الحج (22) : الآيات 69 إلى 70]

اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (69) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذلِكَ فِي كِتابٍ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (70)

(1). قوله «نظيرة هذه الآية» هي قوله تعالى وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ الخ. (ع)

اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ خطاب من الله للمؤمنين والكافرين ، أى : يفصل بينكم بالثواب والعقاب ومسلاة للنبي صلى الله عليه وسلم مما كان يلقى منهم ، وكيف يخفى عليه ما يعملون ، ومعلوم عند العلماء بالله أنه يعلم كل ما يحدث في السماوات والأرض ، وقد كتبه في اللوح قبل حدوثه.

والإحاطة بذلك وإثباته وحفظه عليه يَسِيرٌ لأن العالم الذات لا يتعذر عليه ولا يمتنع تعلق بمعلوم «1».

[سورة الحج (22) : آية 71]

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَما لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (71)

وَيَعْبُدُونَ ما لم يتمسكوا في صحة عبادته ببرهان سماوي من جهة الوحى والسمع ، ولا ألجأهم إليها علم ضروري ، ولا حملهم عليها دليل عقلى وَما للذين ارتكبوا مثل هذا الظلم من أحد ينصرهم ويصوّب مذهبهم.

[سورة الحج (22) : آية 72]

وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آياتِنا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (72)

الْمُنْكَرَ الفظيع من التجهم والبسور «2». أو الإنكار ، كالمكرم بمعنى الإكرام. وقرئ يعرف. والمنكر. والسطو: الوثب والبطش. قرئ النَّارُ بالرفع على أنه خبر مبتدإ محذوف ، كأنّ قائلا قال : ما هو؟ فقيل : النار ، أى : هو النار. وبالنصب على الاختصاص.

وبالجرّ على البدل من بِشَرٍّ مِنْ ذلِكُمُ من غيظكم على التالين وسطوكم عليهم. أو مما أصابكم من الكراهة والضجر بسبب ما تلى عليكم وَعَدَهَا اللَّهُ استئناف كلام. ويحتمل أن تكون النَّارُ مبتدأ ووَعَدَهَا خبرا ، وأن يكون حالا عنها إذا نصبتها أو جررتها بإضمار «قد».

(1). قال محمود : «معناه أن الله عالم بالذات لا يتعذر عليه تعلق بمعلوم» قال أحمد : وقد تقدم مثله وأنكرنا عليه تحميله القرآن ما لا يحتمله ، فان الأعلم في اللغة : ذو العلم الزائد المفضل على علم غيره ، فكيف يفسر بما ينفى صفة العلم البتة؟ هب أن الأدلة العقلية لا وجود لها ، والله الموفق للصواب.
(2). قوله «التجهم والبسور» كل منهما : كلوح الوجه. أفاده الصحاح. (ع)

[سورة الحج (22) : آية 73]

يا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (73)

فإن قلت : الذي جاء به ليس بمثل ، فكيف سماه مثلا؟ قلت : قد سميت الصفة أو القصة الرائعة الملتقاة بالاستحسان والاستغراب : مثلا ، تشبيها لها ببعض الأمثال المسيرة ، لكونها مستحسنة مستغربة عندهم. قرئ تَدْعُونَ بالتاء والياء ، ويدعون : مبنيا للمفعول لَنْ أخت «لا» في نفى المستقبل ، إلا أن «لن» تنفيه نفيا مؤكدا ، وتأكيده هاهنا الدلالة «1» على أن خلق الذباب منهم مستحيل مناف لأحوالهم ، كأنه قال : محال أن يخلقوا. فإن قلت : ما محل وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ؟ قلت : النصب على الحال ، كأنه قال : مستحيل أن يخلقوا الذباب مشروطا عليهم اجتماعهم جميعا لخلقه وتعاونهم عليه ، وهذا من أبلغ ما أنزله الله في تجهيل قريش واستركاك عقولهم ، والشهادة على أن الشيطان قد خزمهم بخزائمه «2» حيث وصفوا بالإلهية - التي تقتضي الاقتدار على المقدورات كلها ، والإحاطة بالمعلومات عن آخرها - صورا وتماثيل يستحيل منها أن تقدر على أقل ما خلقه وأذله وأصغره وأحقره ، ولو اجتمعوا لذلك وتساندوا. وأدل من ذلك على عجزهم وانتفاء قدرتهم : أن هذا الخلق الأقل الأذل لو اختطف منهم شيئا فاجتمعوا على أن يستخلصوه منه لم يقدروا. وقوله ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ كالتسوية بينهم وبين الذباب في الضعف. ولو حققت وجدت الطالب أضعف وأضعف ، لأن الذباب حيوان ، وهو

[سورة الحج (22) : آية 74]

ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (74)

ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ أى ما عرفوه حق معرفته ، حتى لا يسموا باسمه من هو منسلخ عن صفاته بأسرها ، ولا يؤهلوه للعبادة ، ولا يتخذوه شريكا له : إن اللّه قادر غالب ، فكيف يتخذ العاجز المغلوب شبيها به؟

[سورة الحج (22) : الآيات 75 إلى 76]

اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (75) يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (76)

(1). قوله «الدلالة» لعله «للدلالة» كعبارة النسفي ، (ع)
(2). قوله «إن الشيطان قد خزمهم بخزائمه» في الصحاح ، خزمت البعير بالخزامة ، وهي حلقة من شعر تجعل في وترة أنفه ، يشد فيها الزمام. (ع)

هذا ردّ لما أنكروه من أن يكون الرسول من البشر ، وبيان أن رسل اللّه على ضربين : ملائكة وبشر ، ثم ذكر أنه تعالى درّاك للمدركات ، عالم بأحوال المكلفين ما مضى منها وما غبر ، لا تخفى عليه منهم خافية. وإليه مرجع الأمور كلها ، والذي هو بهذه الصفات ، لا يسأل عما يفعل ، وليس لأحد أن يعترض عليه في حكمه وتدابيره واختيار رسله.

[سورة الحج (22) : آية 77]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (77)

للذكر شأن ليس لغيره من الطاعات. وفي هذه السورة دلالات على ذلك ، فمن ثمة دعا المؤمنين أولا إلى الصلاة التي هي ذكر خالص ، ثم إلى العبادة بغير الصلاة كالصوم والحج والغزو ، ثم عمّ بالحث على سائر الخيرات. وقيل : كان الناس أوّل ما أسلموا يسجدون بلا ركوع ويركعون بلا سجود ، فأمروا أن تكون صلاتهم بركوع وسجود. وقيل : معنى وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ اقصدوا بركوعكم وسجودكم وجه اللّه. وعن ابن عباس في قوله وَافْعَلُوا الْخَيْرَ صلة الأرحام ومكارم الأخلاق لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ أى افعلوا هذا كله وأنتم راجون للفلاح طامعون فيه ، غير مستيقنين ولا تتكلوا على أعمالكم ، وعن عقبة بن عامر رضى اللّه عنه قال : قلت يا رسول اللّه في سورة الحج سجدتان؟ قال : «نعم ، إن لم تسجدهما فلا تقرأهما «1»» وعن عبد اللّه ابن عمر رضى اللّه عنهما فضلت سورة الحج بسجدتين. وبذلك احتج الشافعي رضى اللّه عنه ، فرأى سجدتين في سورة الحج. وأبو حنيفة وأصحابه رضى اللّه عنهم لا يرون فيها إلا سجدة واحدة ، لأنهم يقولون : قرن السجود بالركوع ، فدل ذلك على أنها سجدة صلاة لا سجدة تلاوة.

[سورة الحج (22) : آية 78]

وَجاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَباكُمْ وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هذا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (78)

(1). لم أره بصيغة المواجهة. وإنما أخرجه أبو داود والترمذي وأحمد والدارقطني والطبراني والحاكم. كلهم من رواية ابن لهيعة عن فرج بن ماهان عن عقبة بلفظ «و من لم يسجدهما فلا يقرأهما» قال الترمذي : إسناده ليس بالقوى.

وَجاهِدُوا أمر بالغزو وبمجاهدة النفس والهوى وهو الجهاد الأكبر. عن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه رجع من بعض غزواته فقال «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر «1»» فِي اللَّهِ أى في ذات اللّه ومن أجله.

ومنه حَقَّ جِهادِهِ. فإن قلت : ما وجه هذه الإضافة ، وكان القياس : حق الجهاد فيه. أو حق جهادكم فيه ، كما قال وَجاهِدُوا فِي اللَّهِ؟ قلت : الإضافة تكون بأدنى ملابسة واختصاص ، فلما كان الجهاد مختصا بالله من حيث أنه مفعول لوجهه ومن أجله ، صحت إضافته إليه. ويجوز أن يتسع في الظرف كقوله : ويوما شهدناه سليما وعامرا«2»

اجْتَباكُمْ اختاركم لدينه ولنصرته وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ فتح باب التوبة للمجرمين ، وفسح بأنواع الرخص والكفارات والديات والأروش. ونحوه قوله تعالى يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وأمّة محمد صلى الله عليه وسلم هي الأمة المرحومة الموسومة بذلك في الكتب المتقدمة.

نصب الملة بمضمون ما تقدّمها. كأنه قيل : وسع دينكم توسعة ملة أبيكم ، ثم حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه. أو على الاختصاص ، أى : أعنى بالدين ملة أبيكم كقولك : الحمد لله الحميد. فإن قلت : لم يكن إِبْراهِيمَ أبا للأمّة كلها. قلت : هو أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان أبا لأمته ، لأنّ أمة الرسول في حكم أولاده هُوَ يرجع إلى الله تعالى : وقيل : إلى إبراهيم. ويشهد للقول الأوّل قراءة أبىّ بن كعب : الله سماكم مِنْ قَبْلُ وَفِي هذا أى من قبل القرآن في سائر الكتب وفي القرآن ، أى : فضلكم على الأمم وسماكم بهذا الاسم الأكرم لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ أنه قد بلغكم وَتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ بأنّ الرسل قد بلغتهم. وإذ خصكم بهذه الكرامة والأثرة ، فاعبدوه وثقوا به ولا تطلبوا النصرة والولاية إلا منه ، فهو خير مولى وناصر.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من قرأ سورة الحج أعطى من الأجر كحجة حجها وعمرة اعتمرها بعدد من حج واعتمر فيما مضى وفيما بقي «3»».

---

(1). هكذا ذكره الثعلبي بغير سند ، وأخرجه البيهقي في الزهد من حديث جابر ، قال «قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم قوم غزاة. فقال : قدمتم بخير مقدم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر. قيل : وما الجهاد الأكبر؟ قال : مجاهدة العبد هواه» قال : فيه ضعف ، قلت : هو من رواية عيسى بن إبراهيم عن يحيى بن يعلى عن ليث ابن أبى سليم ، والثلاثة ضعفاء ، وأورده النسائي في الكنى من قول إبراهيم بن أبى عبلة ، أحد التابعين من أهل الشام.

(2). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثاني صفحة 408 فراجعه إن شئت اه مصححه.

(3). أخرجه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبى بن كعب بالإسناد المذكور في سورة آل عمران.

سورة المؤمنون

مكية ، وهي مائة وتسع عشرة آية. وثماني عشرة عند الكوفيين [نزلت بعد سورة الأنبياء]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 1 إلى 2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ (2)

قَدْ نقيضة «لما» هي تثبت المتوقع و«لما» تنفيه ، ولا شك أن المؤمنين كانوا متوقعين لمثل هذه البشارة وهي الإخبار بثبات الفلاح لهم ، فخوطبوا بما دل على ثبات ما توقعوه. والفلاح : الظفر بالمراد. وقيل : البقاء في الخير. وأَفْلَحَ دخل في الفلاح ، كأبشر : دخل في البشارة.

ويقال : أفلحه : أصاره إلى الفلاح. وعليه قراءة طلحة بن مصرف : أفلح ، على البناء للمفعول.

وعنه : أفلحوا ، على : أكلونى البراغيث. أو على الإبهام والتفسير. وعنه : أفلح ، بضمة بغير واو ، اجتزاء بها عنها ، كقوله : فلو أنّ الاطبّا كان حولي «1»

فإن قلت : ما المؤمن؟ قلت : هو في اللغة المصدق. وأما في الشريعة فقد اختلف فيه على قولين ، أحدهما : أنّ كل من نطق بالشهادتين مواطئا قلبه لسانه فهو مؤمن. والآخر أنه صفة مدح لا يستحقها إلا البرّ التقىّ دون الفاسق الشقىّ «2»

(1) فلو أن الأطباء كان حولي وكان مع الأطباء الأساة
الأصل : كانوا حولي ، فقصره وقصر «الأطباء» لضرورة الوزن وهم علماء الطب. والأساة : جمع آس ، كالسعاة : جمع ساع ، وهم المباشرون للعلاج من الأطباء ، من الأسى كالفتى ، بمعنى المداواة. والاساء - بالكسر - : الدواء ، ولعله أصل الرواية ، كما روى الشفاء ، فحقه حرف الألف.

(2). قال محمود : «اختلف في الايمان على قولين ، أحدهما : أن كل من نطق بالشهادتين مواطئا قلبه لسانه فقد اتصف بالايمان. والآخر : أنه صفة مدح لا يستحقها الا البر التقى دون الفاسق الشقي» قال أحمد : والأول مذهب الأشعرية ، والثاني مذهب المعتزلة. والموحد الفاسق عندهم لا مؤمن ولا كافر. ولو لم يبن المعتزلة على هذا المعتقد تحريم الجنة على الموحد الفاسق بناء على أنه لا يندرج في وعد المؤمنين ، لكان البحث معهم لفظيا ، ولكن رتبوا على ذلك أمرا عظيما من أصول الدين وقواعده. وقد نقل القاضي عنهم في رسالة الايمان خبطا طويلا ، فنقل عن قدمائهم كعمرو بن عبيد وطبقته أن الايمان هو التصديق بالقلب وجميع فرائض الدين فعلا وتركا. ونقل عن أبى الهذيل العلاف أن الايمان هو جميع فرائض الدين ونوافله. ومختصر دليل القاضي لأهل السنة أن الايمان لغة هو مجرد التصديق اتفاقا ، فوجب أن يكون كذلك شرعا ، عملا بقوله تعالى وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ مع سلامته عن معارضة النقل ، فانه لو كان لنبيه عليه الصلاة والسلام ولو بينه لنقل لأنه مما يبتنى عليه قاعدة الوعد والوعيد ، ولم ينقل ، لأن النقل إما آحاد أو تواتر إلى آخر مادته.

الخشوع في الصلاة : خشية القلب وإلباد البصر - عن قتادة : وهو إلزامه موضع السجود.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه كان يصلى رافعا بصره إلى السماء ، فلما نزلت هذه الآية رمى ببصره نحو مسجده «1» ، وكان الرجل من العلماء إذا قام إلى الصلاة هاب الرحمن أن يشدّ بصره إلى شيء ، أو يحدّث نفسه بشأن من شأن الدنيا. وقيل : هو جمع الهمة لها ، والإعراض عما سواها. ومن الخشوع : أن يستعمل الآداب ، فيتوقى كفّ الثوب ، والعبث بجسده وثيابه ، والالتفات ، والتمطي ، والتثاؤب ، والتغميض ، وتغطية الفم ، والسدل ، والفرقعة ، والتشبيك ، والاختصار ، وتقليب الحصا. روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أبصر رجلا يعبث بلحيته في الصلاة فقال «لو خشع قلبه خشعت جوارحه «2»» ونظر الحسن إلى رجل يعبث بالحصا وهو يقول : اللهمّ زوجني الحور العين ، فقال : بئس الخاطب أنت! تخطب وأنت تعبث. فإن قلت : لم أضيفت الصلاة إليهم؟ قلت : لأنّ الصلاة دائرة بين المصلى والمصلى له ، فالمصلى هو المنتفع بها وحده وهي عدّته وذخيرته فهي صلاته : وأمّا المصلى له ، فغنىّ متعال عن الحاجة إليها والانتفاع بها.

[سورة المؤمنون (23) : آية 3]

وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3)

اللغو : ما لا يعنيك من قول أو فعل ، كاللعب والهزل وما توجب المروءة إلغاءه وإطراحه ، يعنى أنّ بهم من الجدّ ما يشغلهم عن الهزل.

لما وصفهم بالخشوع في الصلاة ، أتبعه الوصف بالإعراض عن اللغو ، ليجمع لهم الفعل والترك الشاقين على الأنفس اللذين هما قاعدتا بناء التكليف.

(1). أخرجه الحاكم من رواية ابن سيرين عن أبى هريرة ، لكن قال «فطأطأ رأسه وقال صحيح ، إلا أنه روى مرسلا اه والمرسل أخرجه أبو داود والطبري عن ابن سيرين عن النبي صلى اللّه عليه وسلم وقال : فيه نظر هكذا ، وأخرجه الواحدي في الأسباب من طريق ابن علية ، عن أيوب. عن ابن سيرين موصولا. [.....]
(2). أخرجه الحكيم الترمذي في النوادر في السادس والأربعين بعد المائة من حديث أبى هريرة وفيه سليمان ابن عمرو وهو أبو داود والنخعي أحد من اتهم بوضع الحديث وفي شرح البخاري لزين الدين ابن المنير عن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه قال لعائشة «لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه».

[سورة المؤمنون (23) : آية 4]

وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكاةِ فاعِلُونَ (4)

الزكاة اسم مشترك بين عين ومعنى ، فالعين : القدر الذي يخرجه المزكى من النصاب إلى الفقير والمعنى : فعل المزكى الذي هو التزكية ، وهو الذي أراده اللّه ، فجعل المزكين فاعلين له ولا يسوغ فيه غيره ، لأنه ما من مصدر إلا يعبر عن معناه بالفعل ويقال لمحدثه فاعل ، تقول للضارب : فاعل الضرب ، وللقاتل : فاعل القتل : وللمزكى : فاعل التزكية. وعلى هذا الكلام كله والتحقيق فيه أنك تقول في جميع الحوادث : من فاعل هذا؟ فيقال لك : فاعله اللّه أو بعض الخلق «1». ولم يمتنع الزكاة الدالة على العين أن يتعلق بها فاعلون ، لخروجها من صحة أن يتناولها الفاعل ، ولكن لأنّ الخلق ليسوا بفاعليها. وقد أنشد لأمية ابن أبى الصلت : المطعمون الطّعام في السّنة الأزمة والفاعلون للزّكوات «2» ويجوز أن يراد بالزكاة : العين ، ويقدّر مضاف محذوف وهو الأداء، وحمل البيت على هذا أصحّ ، لأنها فيه مجموعة.

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 5 إلى 7]

وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ (5) إِلاَّ عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنِ ابْتَغى وَراءَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ العادُونَ (7)

عَلى أَزْواجِهِمْ في موضع الحال ، أى الأوّالين على أزواجهم. أو قوّامين عليهنّ ، من قولك : كان فلان على فلانة فمات عنها فخلّف عليها فلان. ونظيره : كان زياد على البصرة ، أى : واليا عليها. ومنه قولهم : فلانة تحت فلان. ومن ثمة سميت المرأة فراشا. والمعنى : أنهم لفروجهم حافظون في كافة الأحوال ،

(1). قال محمود : «الزكاة تطلق ويراد بها العين المخرجة ، وتطلق ويراد بها فعل المزكى الذي هو التزكية ويتعين هاهنا أن يكون المراد التزكية لقوله فاعِلُونَ إذ العين المخرجة لم يفعلها المزكى ، ثم ضبط المصدر على الإطلاق بأنه الذي يصدق عليه أنه فعل الفاعل فعلى هذا تكون العين المخرجة مصدرا بالنسبة إلى اللّه تعالى ، وكذلك السماوات والأرض وكل مخلوق من جوهر وعرض ، قال : فجميع الحوادث إذا قيل من فاعلها؟ فيقال : اللّه أو بعض الخلق» قال أحمد : ويقول السنى : فاعل جميعها هو اللّه وحده لا شريك له ، ولكن إذا سئل بصيغة مشتقة من الفعل على طريقة اسم الفاعل ، مثل أن يقال له : من القائم؟ من القاعد؟ أجاب بمن خلق اللّه الفعل على يديه ، وجعله محلا له ، كزيد وعمرو.
(2). لأمية بن أبى الصلت. والأزم : الجدب. والأزمة : الشديدة المجدبة. والزكوات : جمع زكاة ، تطلق على القدر المخرج من المال وعلى الإخراج ، فالمعنى على الأول : المؤدون للزكوات. وعلى الثاني : الفاعلون لذلك الإخراج ، والأول أوجه ، لأن المصدر لا يجمع إلا بتأويل الأنواع أو المرات.

إلا في حال تزوّجهم أو تسريهم ، أو تعلق عَلى بمحذوف يدل عليه غَيْرُ مَلُومِينَ كأنه قيل : يلامون إلا على أزواجهم ، أى : يلامون على كل مباشر إلا على ما أطلق لهم ، فإنهم غير ملومين عليه. أو تجعله صلة لحافظين ، من قولك : احفظ علىّ عنان فرسي ، على تضمينه معنى النفي ، كما ضمن قولهم : نشدتك باللّه إلا فعلت معنى ما طلبت منك إلا فعلك. فإن قلت هلا قيل : من ملكت؟ قلت : لأنه أريد من جنس العقلاء ما يجرى

[سورة المؤمنون (23) : آية 8]

وَالَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ راعُونَ (8)

وقرئ : لأمانتهم. سمى الشيء المؤتمن عليه والمعاهد عليه أمانة وعهدا. ومنه قوله تعالى إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَماناتِ إِلى أَهْلِها وقال وَتَخُونُوا أَماناتِكُمْ وإنما تؤدّى العيون لا المعاني ، ويخان المؤتمن عليه ، لا الأمانة في نفسها. والراعي : القائم على الشيء بحفظ وإصلاح كراعى الغنم وراعى الرعية. ويقال : من راعى هذا الشي ء؟ أى متوليه وصاحبه : ويحتمل العموم في كل ما ائتمنوا عليه وعوهدوا من جهة الله تعالى ومن جهة الخلق ، والخصوص فيما حملوه من أمانات الناس وعهودهم.

[سورة المؤمنون (23) : آية 9]

وَالَّذِينَ هُمْ عَلى صَلَواتِهِمْ يُحافِظُونَ (9)

وقرئ عَلى صَلَواتِهِمْ. فإن قلت : كيف كرّر ذكر الصلاة أوّلا وآخرا؟ قلت : هما ذكران مختلفان فليس بتكرير. وصفوا أوّلا بالخشوع في صلاتهم ، وآخرا بالمحافظة عليها. وذلك أن لا يسهوا عنها ، ويؤدّوها في أوقاتها ، ويقيموا أركانها ، ويوكلوا نفوسهم بالاهتمام بها وبما ينبغي أن تتمّ به أوصافها. وأيضا فقد وحدت أوّلا ليفاد الخشوع في جنس الصلاة أىّ صلاة كانت ، وجمعت آخرا لتفاد المحافظة على أعدادها : وهي الصلوات الخمس، والوتر ، والسنن المرتبة مع كل صلاة وصلاة الجمعة ، والعيدين والجنازة ، والاستسقاء ، والكسوف والخسوف ، وصلاة الضحى ، والتهجد وصلاة التسبيح ، وصلاة الحاجة ، وغيرها من النوافل.

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 10 إلى 11]

أُولئِكَ هُمُ الْوارِثُونَ (10) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيها خالِدُونَ (11)

أى أُولئِكَ الجامعون لهذه الأوصاف هُمُ الْوارِثُونَ الأحقاء بأن يسموا ورّاثا دون من عداهم ، ثم ترجم الوارثين بقوله الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ فجاء بفخامة وجزالة لإرثهم لا تخفى على الناظر. ومعنى الإرث : ما مرّ في سورة مريم. أنث الفردوس على تأويل الجنة ، وهو : البستان الواسع الجامع لأصناف الثمر. روى أنّ الله عز وجلّ بنى جنة الفردوس لبنة من ذهب ولبنة من فضة ، وجعل خلالها المسك الأذفر. وفي رواية : ولبنة من مسك مذرّى وغرس فيها من جيد الفاكهة وجيد الريحان.

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 12 إلى 14]

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ (14)

السلالة : الخلاصة ، لأنها تسلّ من بين الكدر ، و«فعالة» بناء للقلة كالقلامة والقمامة. وعن الحسن : ماء بين ظهراني الطين. فإن قلت : ما الفرق بين من ومن؟ قلت : الأوّل للابتداء ، والثاني للبيان ، كقوله مِنَ الْأَوْثانِ. فإن قلت : ما معنى : جَعَلْناهُ الإنسان نطفة؟ قلت : معناه أنه خلق جوهر الإنسان أوّلا طينا ، ثم جعل جوهره بعد ذلك نطفة. القرار : المستقرّ ، والمراد الرحم. وصفت بالمكانة التي هي صفة المستقرّ فيها ، كقولك. طريق سائر. أو بمكانتها في نفسها ، لأنها مكنت بحيث هي وأحرزت. قرئ : عظما فكسونا العظم. وعظاما فكسونا العظام وعظما فكسونا العظام. وعظاما فكسونا العظم : وضع الواحد مكان الجمع لزوال اللبس ، لأنّ الإنسان ذو عظام كثيرة خَلْقاً آخَرَ أى خلقا مباينا للخلق الأوّل مباينة ما أبعدها ، حيث جعله حيوانا وكان جمادا ، وناطقا وكان أبكم ، وسميعا وكان أصم ، وبصيرا وكان أكمه ، وأودع باطنه وظاهره - بل كل عضو من أعضائه وكل جزء من أجزائه - عجائب فطرة وغرائب حكمة لا تدرك بوصف الواصف ولا تبلغ بشرح الشارح : وقد احتجّ

وروى عن عمر رضى الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغ قوله خلقا آخر ، قال : فتبارك الله أحسن الخالقين «1». وروى أنّ عبد الله بن سعد بن أبى سرح كان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم ،

(1). وفي الباب عن أنس قال : قال عمر : وافقت ربى في أربع فذكر الحديث - وفيه : فنزلت وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ ، إلى قوله خَلْقاً آخَرَ. فقلت فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ. فنزلت»

فنطق بذلك قبل إملائه ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم «اكتب هكذا نزلت» فقال عبد الله : إن كان محمد نبيا يوحى إليه فأنا نبىّ يوحى إلىّ ، فلحق بمكة كافرا ، ثم أسلم يوم الفتح «1».

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 15 إلى 16]

ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلِكَ لَمَيِّتُونَ (15) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ تُبْعَثُونَ (16)

قرأ ابن أبى عبلة وابن محيصن : لمائتون. والفرق بين الميت والمائت : أنّ الميت كالحي صفة ثابتة. وأمّا المائت ، فيدل على الحدوث. تقول : زيد مائت الآن ، ومائت غدا ، كقولك يموت. ونحوهما : ضيق وضائق ، في قوله تعالى وَضائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ جعل الإماتة التي هي إعدام الحياة ، والبعث الذي هو إعادة ما يفنيه ويعدمه : دليلين أيضا على اقتدار عظيم بعد الإنشاء والاختراع. فإن قلت : فإذا لا حياة إلا حياة الإنشاء وحياة البعث. قلت: ليس في ذكر الحياتين نفى الثالثة وهي حياة القبر ، كما لو ذكرت ثلثي ما عندك وطويت ذكر ثلثه لم يكن دليلا على أن الثلث ليس عندك. وأيضا فالغرض ذكر هذه الأجناس الثلاثة : الإنشاء والإماتة والإعادة ، والمطوى ذكرها من جنس الإعادة.

[سورة المؤمنون (23) : آية 17]

وَلَقَدْ خَلَقْنا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرائِقَ وَما كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غافِلِينَ (17)

الطرائق : السموات ، لأنه طورق بعضها فوق بعض كمطارقة النعل ، وكل شيء فوقه مثله فهو طريقة : أو لأنها طرق الملائكة ومتقلباتهم : وقيل : الأفلاك ، لأنها طرائق الكواكب فيها مسيرها : أراد بالخلق السموات ، كأنه قال : خلقناها فوقهم وَما كُنَّا عنها غافِلِينَ وعن حفظها وإمساكها أن تقع فوقهم بقدرتنا : أو أراد به الناس وأنه إنما خلقها فوقهم ليفتح عليهم الأرزاق والبركات منها ، وينفعهم بأنواع منافعها ، وما كان غافلا عنهم وما يصلحهم.

[سورة المؤمنون (23) : آية 18]

وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلى ذَهابٍ بِهِ لَقادِرُونَ (18)

بِقَدَرٍ بتقدير يسلمون معه من المضرة ، ويصلون إلى المنفعة. أو بمقدار ما علمناه من حاجاتهم ومصالحهم. فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ كقوله فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي الْأَرْضِ وقيل : جعلناه ثابتا في الأرض. وقيل : إنها خمسة أنهار : سيحون نهر الهند. وجيحون : نهر بلخ.

ودجلة والفرات : نهرا العراق. والنيل : نهر مصر ، أنزلها الله من عين واحدة من عيون الجنة ،

(1). كذا ذكره الثعلبي عن ابن عباس رضى الله عنهما وعزاه الواحدي إلى الكلبي. عن ابن عباس رضى الله عنهما.

فاستودعها الجبال ، وأجراها في الأرض ، وجعل فيها منافع للناس في أصناف معايشهم. وكما قدر على إنزاله فهو قادر على رفعه وإزالته. وقوله عَلى ذَهابٍ بِهِ من أوقع النكرات وأحزها للمفصل. والمعنى : على وجه من وجوه الذهاب به وطريق من طرقه. وفيه إيذان باقتدار المذهب ، وأنه لا يتعايى عليه شيء إذا أراده ، وهو أبلغ

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 19 إلى 20]

فَأَنْشَأْنا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ لَكُمْ فِيها فَواكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْها تَأْكُلُونَ (19) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْناءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ (20)

خصّ هذه الأنواع الثلاثة ، لأنها أكرم الشجر وأفضلها وأجمعها للمنافع. ووصف النخل والعنب بأنّ ثمرهما جامع بين أمرين : بأنه فاكهة يتفكه بها ، وطعام يؤكل رطبا ويابسا ، رطبا وعنبا ، وتمرا وزبيبا. والزيتون بأنّ دهنه صالح للاستصباح والاصطباغ جميعا. ويجوز أن يكون قوله وَمِنْها تَأْكُلُونَ من قولهم : يأكل فلان من حرفة يحترفها ، ومن ضيعة يغتلها ، ومن تجارة يتربح بها : يعنون أنها طعمته وجهته التي منها يحصل رزقه، كأنه قال : وهذه الجنات وجوه أرزاقكم ومعايشكم ، منها ترتزقون وتتعيشون وَشَجَرَةً عطف على جنات. وقرئت مرفوعة على الابتداء ، أى : ومما أنشئ لكم شجرة طُورِ سَيْناءَ وطور سينين ، لا يخلو إما أن يضاف فيه الطور إلى بقعة اسمها سيناء وسينون ، وإمّا أن يكون اسما للجبل مركبا من مضاف ومضاف إليه ، كامرئ القيس ، وكبعلبك ، فيمن أضاف. فمن كسر سين سيناء فقد منع الصرف للتعريف والعجمة أو التأنيث ، لأنها بقعة ، وفعلاء لا يكون ألفه للتأنيث كعلباء وحرباء.

ومن فتح فلم يصرف ، لأنّ الألف للتأنيث كصحراء. وقيل : هو جبل فلسطين. وقيل : بين مصر وأيلة. ومنه نودي موسى عليه السلام. وقرأ الأعمش : سينا على القصر بِالدُّهْنِ في موضع الحال ، أى : تنبت وفيها الدهن. وقرئ : تنبت. وفيه وجهان ، أحدهما : أن أنبت بمعنى نبت. وأنشد لزهير :

رأيت ذوى الحاجات حول بيوتهم قطينا لهم حتّي إذا أنبت البقل «1»

---

(1) إذا السنة الشهباء بالناس أجحفت ونال كرام الناس في الجحرة الأكل
رأيت ذوى الحاجات حول بيوتهم قطينا بها حتى إذا أنبت البقل
هنالك إن يستخولوا المال يخولوا وإن سئلوا يعطوا وإن يسروا يغلوا
وفيهم مقامات حسان وجوههم وأندية ينتابها القول والفعل
لزهير بن أبى سلمي يمدح سنان بن أبى حارثة ، والشهباء : الفرس يخالط سوادها بياض ، شبه بها السنة المجدبة لكثرة بياض أرضها وخلوها عن سواد النبات والأمطار. أو لاختلاط نور الغنى فيها بظلمة الفقر. أجحفت بالناس : أى ذهبت بهم ومحقت عنهم آثار الغنى ، والاسناد مجاز عقلى. والجحرة - بتقديم الجيم المفتوحة - : السنة المجدبة وروى : في الحجرة. وأصلها بالتحريك ، فسكونها لغة أو ضرورة وهي شدة الشقاء. ويجوز أن تقرأ بالضم بمعنى البيت ، أى : ونال الأكل كرام الناس. ووصلهم داخل بيوتهم لبخلهم تلك السنة. ويروى : كرام المال. والمعنى أن كرائم الأموال نالها التأكل والتنقص في تلك السنة لجديها. ورأيت : جواب إذا. وذوى الحاجات : كناية عن الفقراء. حول بيوتهم : أى سنان وقومه. قطينا : أى مقيمين ، فهو يطلق على الواحد والمتعدد. وقيل أنه جمع. ويروى قطينا لهم : أى مساكنين لهم عند البيوت ، وذلك كناية عن كرمهم ، حتى إذا أنبت البقل : أى نبت النبات الرطب وظهر الخصب ، فهنالك : أى في ذلك الزمان إن يسألهم أحد أن يخولوه مالا كثيرا يخولوه : أى يولوه عليه. وإن سئلوا مالا قليلا يعطوا السائل. ويروى : إن يستخبلوا المال يخبلوا ، بالموحدة ، يستعر : أى منهم أحد إبلهم للانتفاع بألبانها وأوبارها زمن الجدب ثم يردها : أعاروه ، وإن سألهم الإعطاء من غير رد أعطوه فلا يردون سائلا. وإن يسروا : أى لعبوا الميسر ، يغلوا : أى يجعلوا الخطر غاليا كثيرا لعدم خوفهم على الفقراء لأن المال كثير بخلاف زمن الجدب. ويجوز أن يقرأ : وإن يسروا أى أعطوا بلا سؤال ، يفلوا بالفاء. أى يتفقدوا الفقراء ويعطوهم ، يقال : يسر كوعد : لعب الميسر ، ويسر كترب وتعب : لأن ورق ورفق. وروى :
يسألوا وييسروا بالمضارع. والمقامات : المجامع من الناس. وروى : وجوهها. وعلى كل فالضمير للمقامات.
والأندية - جمع الندى - بمعنى الكرم ، على غير قياس ، ينتابها : أى يحرى عليها نوبة بعد نوبة قولهم وفعلهم.
أو يتداولها قول الناس وفعلهم. ويحتمل أنها جمع ناد بمعنى متحدث القوم. أو ندى على فعيل كذلك ، ينتابها :
أى يجيئها نوبة بعد نوبة القول والفعل ، أى : الصالحات.

والثاني : أنّ مفعوله محذوف ، أى : تنبت زيتونها وفيه الزيت. وقرئ : تنبت ، بضم التاء وفتح الباء ، وحكمه حكم تنبت. وقرأ ابن مسعود : تخرج الدهن وصبغ الآكلين. وغيره : تخرج بالدهن : وفي حرف أبىّ : تثمر بالدهن. وعن بعضهم : تنبت بالدهان. وقرأ الأعمش : وصبغا وقرئ وصباغ. ونحوهما : دبغ ودباغ. والصبغ : الغمس للائتدام. وقيل : هي أوّل شجرة نبتت بعد الطوفان ، ووصفها الله تعالى بالبركة في قوله يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ.

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 21 إلى 22]

وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِها وَلَكُمْ فِيها مَنافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْها تَأْكُلُونَ (21) وَعَلَيْها وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (22)

قرئ : تسقيكم ، بتاء مفتوحة ، أى : تسقيكم الأنعام وَمِنْها تَأْكُلُونَ أى تتعلق بها منافع من الركوب والحمل وغير ذلك ، كما تتعلق بما لا يؤكل لحمه من الخيل والبغال والحمير. وفيها منفعة زائدة ، وهي الأكل الذي هو انتفاع بذواتها ، والقصد بالأنعام إلى الإبل لأنها هي المحمول عليها في العادة ، وقرنها بالفلك - التي هي السفائن - لأنها سفائن البرّ. قال ذو الرمة :

سفينة برّ تحت خدّى زمامها «1»

يريد صيدحه «2»

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 23 إلى 25]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (23) فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما هذا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً ما سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ (24) إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ (25)

غَيْرُهُ بالرفع على المحل ، وبالجرّ على اللفظ ، والجملة استئناف تجرى مجرى التعليل للأمر بالعبادة أَفَلا تَتَّقُونَ أفلا تخافون أن ترفضوا عبادة اللّه الذي هو ربكم وخالقكم ورازقكم ، وشكر نعمته التي لا تحصونها واجب عليكم ، ثم تذهبوا فتعبدوا غيره مما ليس من استحقاق العبادة في شيء أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ أن يطلب الفضل عليكم ويرأسكم ، كقوله تعالى وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِياءُ فِي الْأَرْضِ.

(1) ألا خيلت مى وقد نام صحبتي فما نفر التهويم إلا سلامها
طروقا وجلب الرحل مشدودة به سفينة بر تحت خدي زمامها
أنيخت فألقت بلدة فوق بلدة قليلا بها الأصوات إلا بغامها
لذي الرمة ، يقول : خيلت مى ، أى : بعثت خيالها وأرتنى إياه ، وسلمت على في منامي. والحال أنه قد نام أصحابى ، والصحبة كالعصبة والرفقة ، ونسب النوم إليهم دونه ، لأن نومه تهويم أى فتور وغفلة أول النوم فقط. والتهويم أيضا : تمايل الرأس من النعاس ، أو لأنه يتذكرها فكأنه لم ينم. ويروى : ذو الكرى بدل صحبتي ، فما نفر التهويم وطرده عنى إلا سلامها على. ويروى :
ألا طرقتنا مية بنت منذر فما أرّق النيام إلا سلامها
وأرق : أسهر ، والنيام : جمع نائم ، وقياسه نوام ، فقلب ياء شذوذا ، والطروق : الإتيان ليلا ، وهو نصب على المصدر من خيلت ، لتلاقيهما معنى. وقيل : الطروق - بالفتح - : الناقة التي بلغت أن يطرقها الفحل ، وهو مفعول خيلت. والأوجه أنه حال من فاعله هذا ، ولعله على التشبيه. وجلب الرحل - بالضم ، وبالكسر - : عيدانه ، أى : والحال أن عيدان الرحل مشدودة بها ناقة عظيمة كالسفينة. فاستعارها لها على طريق التصريح ، وإضافتها للبر قرينة للاستعارة. وفيه أنها في البر تقوم مقام السفينة في البحر ، وأنها تقابلها ، والزمام تجريد ، أى : زمامها تحت خدي وأنا نائم. والبلدة من الناقة : ما لاقى الأرض عند الاناخة ، وتطلق على الصدر. والبلدة الأرض الصلبة. والبغام : صوت الظبى ، أى : أنختها فألقت عظاما صلبة كالأرض ، فاستعارها لها على طريق التصريح ، فوق أرض صلبة حال كون تلك الأرض قليلا فيها الأصوات إلا نعام الناقة ، أى : صوتها الشبيه بصوت الظبى ، لأنه كان حنينا. ومجيء الحال من النكرة بلا تأخير ولا نفى ولا تخصيص شاذ. ويروى. قليل - بالجر - على الصفة. وعلى كل فالأصوات فاعل له ، ورفع المستثنى على الاتباع ، لأن قليلا في معنى النفي ، أى : ليس فيها صوت إلا البغام. وقيل «إلا» هنا بمعنى غير ، فهي صفة للأصوات لأنه يشبه النكرة ، ولما تعذر ظهور الإعراب عليها ظهر على ما بعدها.
(2). قوله «يريد صيدحه» أى : ناقته المسماة بصيدح. (ع)

بهذا إشارة إلى نوح عليه السلام ، أو إلى ما كلهم به من الحث على عبادة اللّه ، أى : ما سمعنا بمثل هذا الكلام ، أو بمثل هذا الذي يدعى وهو بشر أنه رسول اللّه ، وما أعجب شأن الضلال لم يرضوا للنبوّة ببشر وقد رضوا للإلهية بحجر : وقولهم ما سَمِعْنا بِهذا يدل على أنهم وآباؤهم كانوا في فترة متطاولة. أو تكذبوا في ذلك لانهماكهم في الغى ، وتشمرهم لأن يدفعوا الحق بما أمكنهم وبما عنّ لهم ، من غير تمييز منهم بين صدق وكذب. ألا تراهم : كيف جننوه وقد علموا أنه أرجح الناس عقلا وأوزنهم قولا. والجنة : الجنون أو الجنّ ، أى : به جنّ يخبلونه حَتَّى حِينٍ أى احتملوه واصبروا عليه إلى زمان ، حتى ينجلي أمره عن عاقبة ، فإن أفاق من جنونه وإلا قتلتموه.

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 26 إلى 30]

قالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِما كَذَّبُونِ (26) فَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَوَحْيِنا فَإِذا جاءَ أَمْرُنا وَفارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (27) فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (28) وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (29) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (30)

في نصرته إهلاكهم ، فكأنه قال : أهلكهم بسبب تكذيبهم إياى ، أو انصرني بدل ما كذبوني ، كما تقول : هذا بذاك ، أى بدل ذاك ومكانه. والمعنى : أبدلنى من غمّ تكذيبهم ، سلوة النصرة عليهم. أو انصرني بإنجاز ما وعدتهم من العذاب ، وهو ما كذبوه فيه حين قال لهم إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. بِأَعْيُنِنا بحفظنا وكلاءتنا ، كأن معه من الله حفاظا يكلئونه بعيونهم ، لئلا يتعرض له ولا يفسد عليه مفسد عملهً. ومنه قولهم عليه من الله عين كالئة وَوَحْيِنا أى نأمرك كيف تصنع ونعلمك. روى أنه أوحى إليه أن يصنعها على مثال جؤجؤ الطائر. روى أنه قيل لنوح عليه السلام : إذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب أنت ومن معك في السفينة ، فلما نبع الماء من التنور أخبرته امرأته فركب. وقيل : كان تنور آدم عليه السلام ، وكان من حجارة ، فصار إلى نوح. واختلف في مكانه ، فعن الشعبي : في مسجد الكوفة عن يمين الداخل مما يلي باب كندة ، وكان نوح عمل السفينة وسط المسجد. وقيل : بالشام بموضع يقال له عين وردة. وقيل بالهند. وعن ابن عباس رضى الله عنه : التنور وجه الأرض. وعن قتادة : أشرف موضع في الأرض ، أى أعلاه. وعن على رضى الله عنه : فار التنور: طلع الفجر. وقيل : معناه أن فوران التنور كان عند تنوير الفجر. وقيل : هو مثل ، كقولهم : حمى الوطيس. والقول هو الأوّل. يقال : سلك فيه : دخله. وسلك غيره ، وأسلكه. قال :

حتّى إذا أسلكوهم في قتائده «1»

مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ من كل أمّتى زوجين ، وهما أمة الذكر وأمّة الأنثى ، كالجمال والنوق ، والحصن والرماك اثْنَيْنِ واحدين مزدوجين ، كالجمل والناقة ، والحصان والرمكة : روى أنه لم يحمل إلا ما يلد ويبيض. وقرئ : من كل ، بالتنوين ، أى : من كل أمّة زوجين. واثنين : تأكيد وزيادة بيان.

جيء بعلى مع سبق الضارّ ، كما جيء باللام مع سبق النافع. قال الله تعالى إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى ، وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ ونحوه قوله تعالى لَها ما كَسَبَتْ وَعَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ وقول عمر رضى الله عنه: ليتها كانت كفافا ، لا علىّ ولا لي. فإن قلت : لم نهاه عن الدعاء لهم بالنجاة؟ قلت : لما تضمنته الآية من كونهم ظالمين ، وإيجاب الحكمة أن يغرقوا لا محالة ، لما عرف من المصلحة في إغراقهم ، والمفسدة في استبقائهم ، وبعد أن أملى لهم الدهر المتطاول فلم يزيدوا إلا ضلالا ، ولزمتهم الحجة البالغة لم يبق إلا أن يجعلوه عبرة للمعتبرين. ولقد بالغ في ذلك حيث أتبع النهى عنه ، الأمر بالحمد على هلاكهم والنجاة منهم ، كقوله فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ ، ثم أمره أن يدعوه بدعاء هو أهم وأنفع له ، وهو طلب أن ينزله في السفينة أو في الأرض عند خروجه منها ، منزلا يبارك له فيه ويعطيه الزيادة في خير الدارين ، وأن يشفع الدعاء بالثناء عليه المطابق لمسألته ، وهو قوله وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ. فإن قلت : هلا قيل : فقولوا ، لقوله فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ لأنه في معنى : فإذا استويتم؟

(1) حتى إذا أسلكوهم في قتائده شلا كما تطرد الجمالة الشرد
لعبد مناف بن ربع الهذلي ، يصف قوما أغير عليهم فدفعوا العدو حتى أدخلوه في قتائده ، وهي ثنية بعينها ، أو عقبه بعينها ، أى : في طرائقها. وسلكه في كذا وأسلكه أيضا كما هنا : أدخله فيه. وروى : سلكوهم أيضا. وشلا:
أى طردا نصب بسلوكهم ، لأن فيه معنى طردوهم : وإذا : حرف زائد لا جواب له ، لأن البيت آخر القصيد كما في الصحاح. وقيل «شلا» هو جوابه ، فهو نصب بمحذوف ، أى : حبسوا بها حبسا ، لكن لا يلائم التشبيه في قوله «كما تطرد» إلا أن يرجع لسلوكهم.
والجمالة : جمع جمال وهو صاحب الجمل. والشرد - بفتحتين - : الإبل المنتشرة ، أو بضمتين : جمع شرود كعروس.

قلت : لأنه نبيهم وإمامهم ، فكان قوله قولهم ، مع ما فيه من الإشعار بفضل النبوّة وإظهار كبرياء الربوبية ، وأن رتبة تلك المخاطبة لا يترقى إليها إلا ملك أو نبىّ. وقرئ : منزلا ، بمعنى إنزالا ، أو موضع إنزال ، كقوله: ليدخلنهم مدخلا يرضونه. إِنَّ هي المخففة من الثقيلة ، واللام هي الفارقة بين النافية وبينها في المعنى ، وإن الشأن والقصة كُنَّا لَمُبْتَلِينَ أى مصيبين قوم نوح ببلاء عظيم وعقاب شديد.

أو مختبرين بهذه الآيات عبادنا لننظر من يعتبر ويذكر ، كقوله تعالى : وَلَقَدْ تَرَكْناها آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ.

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 31 إلى 32]

ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ (31) فَأَرْسَلْنا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ(32)

قَرْناً آخَرِينَ هم عاد قوم هود : عن ابن عباس رضى الله عنهما. وتشهد له حكاية الله تعالى قول هود : وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ومجيء قصة هود على أثر قصة نوح في سورة الأعراف وسورة هود والشعراء. فإن قلت : حق أرسل أن يعدى بإلى ، كأخواته التي هي : وجه ، وأنفذ ، وبعث. فما باله عدّى في القرآن بإلى تارة ، وبفي أخرى ، كقوله : كَذلِكَ أَرْسَلْناكَ فِي أُمَّةٍ ، وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ. فَأَرْسَلْنا فِيهِمْ رَسُولًا أى في عاد. وفي موضع آخر وَإِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً؟ قلت : لم يعدّ بفي كما عدّى بإلى ، ولم يجعل صلة مثله ، ولكن الأمّة أو القرية جعلت موضعا للإرسال ، كما قال رؤبة : أرسلت فيها مصعبا ذا إقحام «1»

وقد جاء «بعث» على ذلك في قوله وَلَوْ شِئْنا لَبَعَثْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً. أَنِ مفسرة لأرسلنا ، أى : قلنا لهم على لسان الرسول اعْبُدُوا اللَّهَ.

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 33 إلى 34]

وَقالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْناهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ما هذا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (33) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ (34)

(1) أرسلت فيها مصعبا ذا إقحام طبا فقيها بذوات الابلام

لعطاه السندي. ويقال : أصعب الجمل فهو مصعب ، إذا صار صعبا لا يركب. والاقحام : الدخول في الشيء بلا تمهل ولا روية. ويروى : أرسلت فيها مقرما ذا تشمام. وأقرمته : شوقته إلى الضراب. ونحوه : ذا تشمام ، أى : يتشمم رائحة الناقة التائقة للضراب فيعرفها. والطب - مثلث - : الطبيب الحاذق. وأبلمت الناقة إبلاما : إذا ورم فرجها من شدة الشهوة إلى الضراب. والبلم - كسبب - : اسم منه. ويجوز أن ما هنا أبلام كأسباب ، فالمعنى : أنه أرسل في الإبل فحلا كريما يقدم عليها من غير تلبث. أو يتشممها ويتعرفها حاذقا عارفا بالنوق التائقة إليه. ويجوز أن المعنى : أرسلت في تلك القضية رجلا كالجمل الشديد ، ذا إقدام على الأمر بجراءة ، فقيها عارفا بمعالجة الأشياء الصعبة ذوات الأعضال ، وبحل مشكلاتها ، فهو في غاية المعرفة والتجربة.

فإن قلت : ذكر مقال قوم هود في جوابه في سورة الأعراف وسورة هود بغير واو : قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَراكَ فِي سَفاهَةٍ ، قالُوا يا هُودُ ما جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ وهاهنا مع الواو ، فأى فرق بينهما؟ قلت : الذي بغير واو على تقدير سؤال سائل قال : فما قال قومه؟ فقيل له : قالوا كيت وكيت. وأما الذي مع الواو ، فعطف لما قالوه على ما قاله. ومعناه : أنه اجتمع في الحصول هذا الحق وهذا الباطل ، وشتان ما هما بِلِقاءِ الْآخِرَةِ بلقاء ما فيها من الحساب والثواب والعقاب ، كقولك : يا حبذا جوار مكة : أى جوار الله في مكة.

حذف الضمير ، والمعنى : من مشروبكم ، أو حذف منه لدلالة ما قبله عليه إِذاً واقع في جزاء الشرط ، وجواب للذين قاولوهم من قومهم ، أى : تخسرون عقولكم وتغبنون في آرائكم.

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 35 إلى 38]

أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُراباً وَعِظاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ (35) هَيْهاتَ هَيْهاتَ لِما تُوعَدُونَ (36) إِنْ هِيَ إِلاَّ حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا وَما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (37) إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً وَما نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (38)

ثنى أَنَّكُمْ للتوكيد ، وحسن ذلك لفصل ما بين الأوّل والثاني بالظرف. ومخرجون :

خبر عن الأول. أو جعل أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ مبتدأ ، وإِذا مِتُّمْ خبرا ، على معنى : إخراجكم إذا متم ، ثم أخبر بالجملة عن إنكم ، أو رفع أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ بفعل هو جزاء للشرط ، كأنه قيل : إذا متم وقع إخراجكم ، ثم أوقعت الجملة الشرطية خبرا عن إنكم. وفي قراءة ابن مسعود : أيعدكم إذا متم.

قرئ هَيْهاتَ بالفتح والكسر والضم ، كلها بتنوين وبلا تنوين ، وبالسكون على لفظ الوقف فإن قلت : ما توعدون هو المستبعد ، ومن حقه أن يرتفع بهيهات ، كما ارتفع في قوله : فهيهات هيهات العقيق وأهله «1»

(1) فهيهات هيهات العقيق ومن به وهيهات خل بالعقيق نواصله
لجرير ، يتحسر على بعد خليله. وهيهات : اسم فعل بمعنى «بعد» وفتح تائه : لغة الحجاز. وكسرها : لغة تميم. وضمها : لغة بعضهم. وكرره للتوكيد وزيادة التحزن. والعقيق : الوادي الذي شقه السيل ، وهو هنا واد بظاهر المدينة المشرفة. مرفوع على الفاعلية بالأول ، والثاني لا فاعل له. وأجاز أبو على الفارسي أنه من باب التنازع ، فهو مرفوع بأحدهما ، وضميره مستتر في الآخر ، فهو توكيد مفرد على الأول ، وجملة على الثاني. وأجاز ابن مالك أنه فاعل لهما لاتحادهما لفظا ومعنى. وانظر كيف ذكر أولا مكان الأحبة ، ثم ذكر من فيه على العموم ، ثم ذكر خله على الخصوص ، وتدرج في ذلك حتى توصل إلى ذكر الوصال ، وهو مقصوده الذاتي ، فللّه در العرب ما ألطفها صنيعا ، وأدقها عبارة ، والخل - بالكسر - : الخليل ، كالحب بمعنى الحبيب. ويروى : العقيق وأهله

فما هذه اللام : قلت قال الزجاج في تفسيره : البعد لما توعدون ، أو بعد لما توعدون فيمن نوّن ، فنزله منزلة المصدر. وفيه وجه آخر : وهو أن يكون اللام لبيان المستبعد ما هو بعد التصويت بكلمة الاستبعاد ، كما جاءت اللام في هَيْتَ لَكَ لبيان المهيت به.

هذا ضمير لا يعلم ما يعنى به إلا بما يتلوه من بيانه. وأصله إن الحياة إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا ثم وضع هِيَ موضع الحياة ، لأنّ الخبر يدل عليها ويبينها. ومنه : هي النفس تتحمل ما حملت ، وهي العرب تقول ما شاءت. والمعنى : لا حياة إلا هذه الحياة لأن «إن» النافية دخلت على «هي» التي في معنى الحياة الدالة على الجنس فنفتها ، فوازنت «لا» التي نفت ما بعدها نفى الجنس نَمُوتُ وَنَحْيا أى يموت بعض ويولد بعض ، ينقرض قرن ويأتى قرن آخر ، ثم قالوا : ما هود إلا مفتر على الله فيما يدعيه من استنبائه له ، وفيما يعدنا من البعث ، وما نحن بمصدّقين.

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 39 إلى 41]

قالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِما كَذَّبُونِ (39) قالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نادِمِينَ (40) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْناهُمْ غُثاءً فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (41)

قَلِيلٍ صفة للزمان ، كقديم وحديث ، في قولك : ما رأيته قديما ولا حديثا. وفي معناه : عن قريب. و«ما» توكيد قلة المدّة وقصرها الصَّيْحَةُ صيحة جبريل عليه السلام : صاح عليهم فدمّرهم بِالْحَقِّ بالوجوب ، لأنهم قد استوجبوا الهلاك. أو بالعدل من الله ، من قولك : فلان يقضى بالحق إذا كان عادلا في قضاياه : شبههم في دمارهم بالغثاء : وهو حميل السيل مما يلي واسودّ من العيدان والورق. ومنه قوله تعالى فَجَعَلَهُ غُثاءً أَحْوى وقد جاء مشدّدا في قول امرئ القيس : من السّيل والغثّاء فلكة مغزل «1» بعدا ،

(1) كأن ذرى رأس المخيم غدوة من السيل والغثاء فلكة مغزل
لامرئ القيس من معلقته. وذرى الجبل : أعاليه. والمخيم : أكمة بعينها. ويروى : المخيمر. والغثاء - بالضم مشددا ومخففا - : حميل السيل مما يلي واسود من العيدان والورق. والفلكة : بالفتح. والمغزل : مثلث. يقول :
كأن أعالى تلك الأكمة من إحاطة السيل بها واجتماع الغثاء حولها : فلكة مغزل في الاستدارة والارتفاع.

وسحقا ، ودفرا «1» ، ونحوها ، مصادر موضوعة مواضع أفعالها ، وهي من جملة المصادر التي قال سيبويه : نصبت بأفعال لا يستعمل إظهارها. ومعنى فَبُعْداً : بعدوا ، أى : هلكوا يقال : بعد بعدا وبعدا ، نحو رشد رشدا ورشدا. ولِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ بيان لمن دعى عليه بالبعد ، نحو : هَيْتَ لَكَ. ولِما تُوعَدُونَ.

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 42 إلى 43]

ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ (42) ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَما يَسْتَأْخِرُونَ (43)

قُرُوناً قوم صالح ولوط وشعيب وغيرهم. وعن ابن عباس رضى الله عنهما : بنى إسرائيل أَجَلَها الوقت الذي حدّ لهلاكها وكتب.

[سورة المؤمنون (23) : آية 44]

ثُمَّ أَرْسَلْنا رُسُلَنا تَتْرا كُلَّ ما جاءَ أُمَّةً رَسُولُها كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنا بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ فَبُعْداً لِقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ(44)

تَتْرا فعلى : الألف للتأنيث ، لأنّ الرسل جماعة. وقرئ : تترى ، بالتنوين ، والتاء بدل من الواو ، كما في : تولج ، وتيقور «2» ، أى : متواترين واحدا بعد واحد ، من الوتر وهو الفرد : أضاف الرسل إليه تعالى وإلى أممهم وَلَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُنا بِالْبَيِّناتِ وَلَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ لأنّ الإضافة تكون بالملابسة ، والرسول ملابس المرسل والمرسل إليه جميعا فَأَتْبَعْنا الأمم أو القرون بَعْضَهُمْ بَعْضاً في الإهلاك وَجَعَلْناهُمْ أخبارا يسمر بها ويتعجب منها. الأحاديث : تكون اسم جمع للحديث. ومنه : أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. وتكون جمعا للأحدوثة : التي هي مثل الأضحوكة والألعوبة والأعجوبة. وهي : مما يتحدّث به الناس تلهيا وتعجبا ، وهو المراد هاهنا.

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 45 إلى 46]

ثُمَّ أَرْسَلْنا مُوسى وَأَخاهُ هارُونَ بِآياتِنا وَسُلْطانٍ مُبِينٍ (45) إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكانُوا قَوْماً عالِينَ(46)

فإن قلت : ما المراد بالسلطان المبين؟ قلت : يجوز أن تراد العصا ، لأنها كانت أمّ آيات موسى وأولاها ،

---

(1). قوله «دفرا» في الصحاح «دفرا له» أى : نتنا. (ع)
(2). قوله «كما في تولج وتيقور» التولج : كناس الوحش الذي يلج فيه. قال سيبويه : التاء مبدلة من الواو ، وهو فوعل ، كذا في الصحاح. وفيه أيضا : التيقور ، والوقار. وأصله : ويقور ، قلبت الواو تاءا اه ، فوزنه «فيعول». (ع) [.....]

وقد تعلقت بها معجزات شتى : من انقلابها حية ، وتلقفها ما أفكته السحرة ، وانفلاق البحر ، وانفجار العيون من الحجر بضربهما بها ، وكونها حارسا ، وشمعة ، وشجرة خضراء مثمرة ، ودلوا ورشاء. جعلت كأنها ليست بعضها لما استبدت به من الفضل ، فلذلك عطفت عليها كقوله تعالى وَجِبْرِيلَ وَمِيكالَ ويجوز أن تراد الآيات أنفسها ، أى : هي آيات وحجة بينة عالِينَ متكبرين إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ ، لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ أو متطاولين على الناس قاهرين بالبغي والظلم.

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 47 إلى 48]

فَقالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنا وَقَوْمُهُما لَنا عابِدُونَ (47) فَكَذَّبُوهُما فَكانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (48)

البشر يكون واحدا وجمعا : بَشَراً سَوِيًّا، لِبَشَرَيْنِ ، فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ و«مثل» و«غير» يوصف بهما : الاثنان ، والجمع ، والمذكر ، والمؤنث : إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ ، وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ويقال أيضا : هما مثلاه ، وهم أمثاله : إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبادٌ أَمْثالُكُمْ. وَقَوْمُهُما يعنى بنى إسرائيل ، كأنهم يعبدوننا خضوعا وتذللا. أو لأنه كان يدعى الإلهية فادعى للناس العبادة ، وأن طاعتهم له عبادة على الحقيقة.

[سورة المؤمنون (23) : آية 49]

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (49)

مُوسَى الْكِتابَ أى قوم موسى التوراة لَعَلَّهُمْ يعملون بشرائعها ومواعظها ، كما قال : عَلى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِمْ يريد آل فرعون ، وكما يقولون : هاشم ، وثقيف ، وتميم ، ويراد قومهم. ولا يجوز أن يرجع الضمير في لَعَلَّهُمْ إلى فرعون وملئه ، لأنّ التوراة إنما أوتيها بنو إسرائيل بعد إغراق فرعون وملئه : وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولى .

[سورة المؤمنون (23) : آية 50]

وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْناهُما إِلى رَبْوَةٍ ذاتِ قَرارٍ وَمَعِينٍ (50)

فإن قلت : لو قيل آيتين هل كان يكون له وجه؟ قلت : نعم ، لأنّ مريم ولدت من غير مسيس ، وعيسى روح من الله ألقى إليها ، وقد تكلم في المهد وكان يحيى الموتى مع معجزات أخر ، فكان آية من غير وجه ، واللفظ محتمل للتثنية على تقدير وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ آية وَأُمَّهُ آية ثم حذفت الأولى لدلالة الثانية عليها. الربوة والرباوة في رائهما الحركات. وقرئ : ربوة ورباوة ، بالضم. ورباوة بالكسر وهي الأرض المرتفعة. قيل : هي إيليا أرض

وعن الحسن : فلسطين والرملة ، وعن أبى هريرة : الزموا هذه الرملة رملة فلسطين ، فإنها الربوة التي ذكرها اللّه. وقيل : مصر. والقرار : المستقرّ من أرض مستوية منبسطة. وعن قتادة : ذات ثمار وماء. يعنى أنه لأجل الثمار : يستقرّ فيها ساكنوها. والمعين : الماء الظاهر الجاري على وجه الأرض. وقد اختلف في زيادة ميمه وأصالته ، فوجه من جعله مفعولا أنه مدرك بالعين لظهوره ، من عانه : إذا أدركه بعينه ، نحو : ركبه ، إذا ضربه بركبته. ووجه من جعله فعيلا : أنه نفاع بظهوره وجريه ، من الماعون : وهو المنفعة ،

[سورة المؤمنون (23) : آية 51]

يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ وَاعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (51)

هذا النداء والخطاب ليسا على ظاهرهما ، وكيف والرسل إنما أرسلوا متفرّقين في أزمنة مختلفة. وإنما المعنى : الإعلام بأنّ كلّ رسول في زمانه نودي لذلك «1» ووصى به ، ليعتقد السامع أنّ أمرا نودي له جميع الرسل ووصوا به ، حقيق أن يؤخذ به ويعمل عليه. والمراد بالطيبات : ما حل وطاب. وقيل : طيبات الرزق حلال وصاف وقوام ، فالحلال : الذي لا يعصى اللّه فيه ، والصافي : الذي لا ينسى اللّه فيه ، والقوام : ما يمسك النفس ويحفظ العقل.

أو أريد ما يستطاب ويستلذ من المآكل والفواكه. ويشهد له مجيئه على عقب قوله وَآوَيْناهُما إِلى رَبْوَةٍ ذاتِ قَرارٍ وَمَعِينٍ ويجوز أن يقع هذا الإعلام عند إيواء عيسى ومريم إلى الربوة ، فذكر على سبيل الحكاية ، أى : آويناهما وقلنا لهما هذا ، أى : أعلمناهما أنّ الرسل كلهم خوطبوا بهذا ، فكلا مما رزقنا كما واعملا صالحا اقتداء بالرسل.

[سورة المؤمنون (23) : آية 52]

وَإِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (52)

قرئ : وإنّ ، بالكسر على الاستئناف. وأنّ بمعنى ولأنّ ، وأن مخففة من الثقيلة ، وأُمَّتُكُمْ مرفوعة معها.

(1). قال محمود : «هذا النداء والخطاب ليسا على ظاهرهما وكيف والرسل إنما أرسلوا متفرقين في أزمنة مختلفة وإنما المعنى الاعلام بأن كل رسول في زمانه نودي بذلك» قال أحمد : هذه نفحة اعتزالية ، فان مذهب أهل السنة أن اللّه تعالى متكلم آمر ناه أزلا ، ولا يشترط في تحقق الأمر وجود المخاطب ، فعلى هذا قوله كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ وَاعْمَلُوا صالِحاً على ظاهره وحقيقته عند أهل الحق ، وهو ثابت أزلا على تقدير وجود المخاطبين فيما لا يزال ، متفرقين كما في هذا الخطاب ، أو مجتمعين كما في زعمه ، والمعتزلة لما أبت اعتقاد قدم الكلام زلت بهم القدم ، حتى حملوا هذه الآية وأمثالها على المجاز وخلاف الظاهر. وما بال الزمخشري خص هذه الآية بأنها على خلاف الظاهر ، ومعتقده يوجب حمل مثل قوله تعالى أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وجميع الأوامر العامة في الأمة على خلاف الظاهر.

[سورة المؤمنون (23) : آية 53]

فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (53)

وقرئ زُبُراً جمع زبور ، أى : كتبا مختلفة ، يعنى : جعلوا دينهم أديانا ، وزبرا قطعا : استعيرت من زبر الفضة والحديد ، وزبرا : مخففة الباء ، كرسل في رسل ، أى : كلّ فرقة من فرق هؤلاء المختلفين المتقطعين دينهم ، فرح بباطله ، مطمئنّ النفس ، معتقد أنه على الحق.

[سورة المؤمنون (23) : آية 54]

فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ (54)

الغمرة. الماء الذي يغمر القامة فضربت مثلا لما هم مغمورون فيه من جهلهم وعمايتهم. أو شبهوا باللاعبين في غمرة الماء لما هم عليه من الباطل. قال : كأنّنى ضارب في غمرة لعب «1»

وعن على رضى اللّه عنه : في غمراتهم حَتَّى حِينٍ إلى أن يقتلوا أو يموتوا.

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 55 إلى 56]

أَيَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَبَنِينَ (55) نُسارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْراتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ (56)

سلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بذلك ، ونهى عن الاستعجال بعذابهم والجزع من تأخيره. وقرئ : يمدّهم. ويسارع ، ويسرع ، بالياء ، والفاعل اللّه سبحانه وتعالى. ويجوز في : يسارع ، ويسرع : أن يتضمن ضمير الممدّ به. ويسارع ، مبنيا للمفعول. والمعنى : أنّ هذا الإمداد ليس إلا استدراجا لهم إلى المعاصي ، واستجرارا إلى زيادة الإثم ، وهم يحسبونه مسارعة لهم في الخيرات ، وفيما لهم فيه نفع وإكرام ، ومعاجلة بالثواب قبل وقته. ويجوز أن يراد في جزاء الخيرات كما يفعل بأهل الخير من المسلمين. وبَلْ استدراك لقوله أَيَحْسَبُونَ يعنى: بل هم أشباه البهائم لا فطنة بهم ولا شعور ، حتى يتأملوا ويتفكروا في ذلك : أهو استدراج ، أم مسارعة في الخير؟ فإن قلت : أين الراجع من خبر أنّ إلى اسمها إذا لم يستكنّ فيه ضميره؟

قلت : هو محذوف تقديره : نسارع به ، ويسارع به ، ويسارع اللّه به ، كقوله إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ أى إن ذلك منه ، وذلك لاستطالة الكلام مع أمن الإلباس.

(1) ليالي اللهو يطبينى فأتبعه كأننى ضارب في غمرة لعب
لذي الرمة. وليالي : منصوب على الظرفية ، واللهو : مبتدأ. وطباه يطبوه ويطبيه : إذا دعاه وجذبه. وطبي الناقة ثديها لجذبه عند الحلب. أى اللهو يدعوني في ليال كثيرة فأتبعه ، كأنى سابح في لجة من الماء تغمر القامة ، لعب فيها فهو خبر ثان. ويروى : لغب. بالمعجمة من اللغوب وهو المشقة. وقيل «ليالي» مضاف للجملة بعده ، فهو ظرف لما قبله. وروى : اللهو بالجر. وتطبينى بالتاء ، فالفاعل ضمير الليالي.

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 57 إلى 61]

إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (57) وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (58) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ (59) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلى رَبِّهِمْ راجِعُونَ (60) أُولئِكَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَهُمْ لَها سابِقُونَ (61)

يُؤْتُونَ ما آتَوْا يعطون ما أعطوا ، وفي قراءة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وعائشة : يأتون ما أتوا ، أى يفعلون ما فعلوا. وعنها أنها قالت : قلت يا رسول اللّه ، هو الذي يزنى ويسرق ويشرب الخمر وهو على ذلك يخاف اللّه؟ قال : لا يا ابنة الصدّيق ، ولكن هو الذي يصلى ويصوم ويتصدّق ، وهو على ذلك يخاف اللّه أن لا يقبل منه «1» يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ يحتمل معنيين ، أحدهما : أن يراد يرغبون في الطاعات أشد الرغبة فيبادرونها. والثاني : أنهم يتعجلون في الدنيا المنافع ووجوه الإكرام ، كما قال فَآتاهُمُ اللَّهُ ثَوابَ الدُّنْيا وَحُسْنَ ثَوابِ الْآخِرَةِ ، وَآتَيْناهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ لأنهم إذا سورع بها لهم ، فقد سارعوا في نيلها وتعجلوها ، وهذا الوجه أحسن طباقا للآية المتقدمة ، لأن فيه إثبات ما نفى عن الكفار للمؤمنين. وقرئ : يسرعون في الخيرات لَها سابِقُونَ أى فاعلون السبق لأجلها أو سابقون الناس لأجلها. أو إياها سابقون ، أى : ينالونها قبل الآخرة حيث عجلت لهم في الدنيا. ويجوز أن يكون لَها سابِقُونَ خبرا بعد خبر. ومعنى وَهُمْ لَها كمعنى قوله : أنت لها أحمد من بين البشر «2»

(1). أخرجه الترمذي ، وابن ماجة ، وأحمد ، وإسحاق ، وابن أبى شيبة والحاكم والبيهقي في الشعب. من رواية عبد الرحمن بن سعيد بن وهب الهمذاني عن عائشة قالت : سألت فذكره. قال الترمذي وقد روى عن عبد الرحمن ابن سعيد عن أبى حازم عن أبى هريرة رضى اللّه عنه. اه وهذه الطريق أخرجها الطبري بهذا الاسناد. أن عائشة قالت : فذكره وله عنده طريق أخرى. عن عائشة فيها ليث بن أبى سليم. وهو ضعيف. وقوله وهو في قراءة النبي صلى اللّه عليه وسلم وعائشة يُؤْتُونَ ما آتَوْا : كأنه يشير إلى هذا الحديث. وأخرج منه ما أخرجه الحاكم.
من طريق عبد اللّه بن عمير عن أبيه أنه سأل عائشة عن قوله تعالى الَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا كيف كان صلى اللّه عليه وسلم يقرؤها يؤتون : يأتون أو يؤتون؟ قالت أيهما أحب إليك؟ قال : الذين يأتون ما أتوا. قالت. أشهد أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كان يقرؤها. وكذلك أنزلت» وفي إسناده يحيى بن راشد وهو ضعيف. وله طريق أخرى ، عند أحمد من طريق أبى خلف الجمحي : أن عبيد بن عمير سأل عائشة نحوه وفيه إسماعيل بن مسلم المكي.
وهو ضعيف.

(2) قصيدة رائقة صوغتها أنت لها أحمد من بين البشر
رائقة : محالية من الحشو والتعقيد. وصوغتها - بالتشديد - للمبالغة. وأنت لها : أى أهل وكفؤ لها. وأحمد : منادى.
ومن بين البشر : متعلق بمحذوف حال ، أى : منتخبا من بينهم. ويجوز أن أحمد أفعل تفضيل ، كذا قيل.
ويروى :
أنت لها منذر من بين البشر داهية الدهر وصماء الغير
للأعشى الحرمازي ، وضمير لها مبهم يفسره قوله «داهية الدهر» أى الشديدة المهمة من شدائده. والصماء الصلبة ، والغير - كسبب - بمعنى البقية ، من غبر إذا بقي ، أو من الغبار ، أو من الظلمة. وأصل «صماء الغبر» : الحية تسكن في منقع قرب مويهة فلا تقرب. ويضرب بها المثل. والمعنى : أنها تغشى فلا يهتدى إلى التخلص منها. ومنذر : منادى. وروى بدله : أحمد. وقيل : ضمير لها للنبوة.

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 62 إلى 63]

وَلا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَها وَلَدَيْنا كِتابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (62) بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هذا وَلَهُمْ أَعْمالٌ مِنْ دُونِ ذلِكَ هُمْ لَها عامِلُونَ (63)

يعنى أن هذا الذي وصف به الصالحين غير خارج من حدّ الوسع والطاقة ، وكذلك كل ما كلفه عباده وما عملوه من الأعمال فغير ضائع عنده ، بل هو مثبت لديه في كتاب ، يريد اللوح ، أو صحيفة الأعمال ناطق بالحق لا يقرءون منه يوم القيامة إلا ما هو صدق وعدل ، لا زيادة فيه ولا نقصان ولا يظلم منهم أحد. أو أراد : إن الله لا يكلف إلا الوسع ، فإن لم يبلغ المكلف أن يكون على صفة هؤلاء السابقين بعد أن يستفرغ وسعه ويبذل طاقته فلا عليه ، ولدينا كتاب فيه عمل السابق والمقتصد ، ولا نظلم أحدا من حقه ولا نحطه دون درجته. بل قلوب الكفرة في غفلة غامرة لها مِنْ هذا أى مما عليه هؤلاء الموصوفون من المؤمنين وَلَهُمْ أَعْمالٌ متجاوزة متخطية لذلك ، أى : لما وصف به المؤمنون هُمْ لَها معتادون وبها ضارون ، لا يفطمون عنها حتى يأخذهم الله بالعذاب.

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 64 إلى 67]

حَتَّى إِذا أَخَذْنا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذابِ إِذا هُمْ يَجْأَرُونَ (64) لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لا تُنْصَرُونَ (65) قَدْ كانَتْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ تَنْكِصُونَ (66) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سامِراً تَهْجُرُونَ (67)

وحتى هذه هي التي يبتدأ بعدها الكلام ، والكلام : الجملة الشرطية ، والعذاب : قتلهم يوم بدر. أو الجوع حين دعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : «اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف «1»» فابتلاهم الله بالقحط حتى أكلوا الجيف والكلاب والعظام المحترقة والقدّ «2» والأولاد. الجؤار : الصراخ باستغاثة قال :

(1). متفق عليه من حديث ابن مسعود وسيأتى تاما في تفسير الدخان.
(2). قوله «و القد» في الصحاح «القد» بالكسر : سير يقد من جلد غير مدبوغ. (ع)

جئّار ساعات النّيام لربّه

أى يقال لهم حينئذ لا تَجْأَرُوا فإن الجؤار غير نافع لكم مِنَّا لا تُنْصَرُونَ لا تغاثون ولا تمنعون منا أو من جهتنا ، لا يلحقكم نصر ومغوثة. قالوا : الضمير في بِهِ للبيت العتيق أو للحرم ، كانوا يقولون : لا يظهر علينا أحد لأنا أهل الحرم. والذي سوّغ هذا الإضمار شهرتهم بالاستكبار بالبيت ، وأنه لم تكن لهم مفخرة إلا أنهم ولاته والقائمون به. ويجوز أن يرجع إلى آياتي ، إلا أنه ذكر لأنها في معنى كتابي. ومعنى استكبارهم بالقرآن : تكذيبهم به استكبارا.

ضمن مستكبرين معنى مكذبين ، فعدّى تعديته. أو يحدث لكم استماعه استكبارا وعتوّا ، فأنتم مستكبرون بسببه. أو تتعلق الباء بسامرا ، أى : تستمرون بذكر القرآن وبالطعن فيه ، وكانوا يجتمعون حول البيت بالليل يسمرون، وكانت عامّة سمرهم ذكر القرآن وتسميته سحرا وشعرا وسبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم. أو يتهجرون. والسامر : نحو الحاضر في الإطلاق على الجمع. وقرئ : سمرا وسمارا. وتهجرون وتهجرون ، من أهجر في منطقه إذا أفحش. والهجر - بالضم - : الفحش ، ومن هجر الذي هو مبالغة في هجر إذا هذى. والهجر - : بالفتح الهذيان.

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 68 إلى 70]

أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جاءَهُمْ ما لَمْ يَأْتِ آباءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (68) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (69) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ (70)

الْقَوْلَ القرآن ، يقول : أفلم يتدبروه ليعلموا أنه الحق المبين فيصدّقوا به وبمن جاء به ، بل أجاءَهُمْ ما لَمْ يَأْتِ آباءَهُمُ فلذلك أنكروه واستبدعوه ، كقوله : لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غافِلُونَ أو ليخافوا عند تدبر آياته وأقاصيصه مثل ما نزل بمن قبلهم من المكذبين ، أم جاءهم من الأمن ما لم يأت آباءهم حين خافوا الله فآمنوا به وبكتبه ورسله وأطاعوه؟ وآباؤهم : إسماعيل وأعقابه من عدنان وقحطان. وعن النبي صلى الله عليه وسلم «لا تسبوا مضر ولا ربيعة فإنهما كانا مسلمين ، ولا تسبوا قسا فإنه كان مسلما ، ولا تسبوا الحارث بن كعب ولا أسد بن خزيمة ولا تميم ابن مرّ. فإنهم كانوا على الإسلام ، وما شككتم فيه من شيء فلا تشكوا في أن تبعا كان مسلما «1»»

(1). قلت اقتصر المخرج في عزو الجملة الأولى إلى السهيلي عن الزبير ، وتتضمن الباقي. وقد أخرجه ابن سعد والبلاذري من طريق سعد ابن أبى أيوب عن عبد الله بن خالد أنه بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
لا تسبوا مضر فانه كان مسلما. وأما تبع فروى الفاكهي من طريق عمر بن جابر عن سهل بن سعد رفعه ، لا تسبوا تبعا فانه قد أسلم.
وأخرجه الحاكم من طريق ابن جريج عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت : «كان تبع رجلا صالحا. الحديث» موقوف. وقوله :
والخطبة التي خطبها أبو طالب في نكاح خديجة بنت خويلد رضى الله عنها كفى برغائها مناديا : قلت نص له أيضا.

وروى في أنّ ضبة كان مسلما ، وكان على شرطة سليمان بن داود أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا محمدا وصحة نسبه ، وحلوله في سطة هاشم ، وأمانته ، وصدقه ، وشهامته ، وعقله ، واتسامه بأنه خير فتيان قريش ، والخطبة التي خطبها أبو طالب في نكاح خديجة بنت خويلد ، كفى برغائها مناديا.

الجنة : الجنون وكانوا يعلمون أنه بريء منها وأنه أرجحهم عقلا وأثقبهم ذهنا ، ولكنه جاءهم بما خالف شهواتهم وأهواءهم ، ولم يوافق ما نشأوا عليه ، وسيط بلحومهم «1» ودمائهم من اتباع الباطل ، ولم يجدوا له مردّا ولا مدفعا لأنه الحق الأبلج والصراط المستقيم ، فأخلدوا إلى البهت وعوّلوا على الكذب من النسبة إلى الجنون والسحر والشعر. فإن قلت : قوله وَأَكْثَرُهُمْ فيه أن أقلهم كانوا لا يكرهون الحق. قلت : كان فيهم من يترك الإيمان به أنفة واستنكافا من توبيخ قومه وأن يقولوا صبأ وترك دين آبائه ، لا كراهة للحق ، كما يحكى عن أبى طالب «2». فإن قلت : يزعم بعض الناس أنّ أبا طالب صحّ إسلامه. قلت : يا سبحان الله ، كأن أبا طالب كان أخمل أعمام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، حتى يشتهر إسلام حمزة والعباس رضى الله عنهما ، ويخفى إسلام أبى طالب.

(1). قوله «و سيط بلحومهم» أى : وخلط. (ع)
(2). قال محمود : «فان قلت أكثرهم يعطى أن أقلهم لا يكره الحق ، وكيف ذلك والكل كفرة؟ قلت : فيهم من أبى الإسلام حذرا من مخالفة آبائه ومن أن يقال صبأ كأبى طالب ، لا كراهة للحق» قال أحمد : وأحسن من هذا أن يكون الضمير في قوله : وَأَكْثَرُهُمْ على الجنس للناس كافة ، ولما ذكر هذه الطائفة من الجنس بقي الكلام في قوله وَأَكْثَرُهُمْ على الجنس بجملته ، كقوله إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وكقوله وَما أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ويدل على ذلك قوله تعالى بَلْ جاءَهُمْ بِالْحَقِّ والنبي صلى الله عليه وسلم جاء الناس كلهم وبعث إلى الكافة. ويحتمل أن يحمل الأكثر على الكل كما حمل القليل على النفي والله أعلم. وأما قول الزمخشري- : إن من تمادى على الكفر وآثر البقاء عليه تقليدا لآبائه «ليس كارها للحق - فمردود ، فان من أحب شيئا كره ضده ، فإذا أحبوا البقاء على الكفر فقد كرهوا الانتقال عنه إلى الايمان ضرورة ، والله أعلم ، ثم انجر الكلام إلى استبعاد إيمان أبى طالب. وتحقيق القول فيه أنه مات على الكفر ، ووجه ذلك بأنه أشهر عمومة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلو كان قد أسلم لاشتهر إسلامه ، كما اشتهر إسلام العباس وحمزة وأجدر لأنه أشهر ، وللقائل بإسلامه أن يعتذر عن عدم شهرته بأنه إنما أسلم قبيل الاحتضار ، فلم يظهر له مواقف في الإسلام يشتهر بها كما ظهر لغيره من عمومته عليه الصلاة والسلام. هذا والظاهر أنه لم يسلم. وحسبك دليلا على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : سألت الله تعالى فيه ، وأنه بعد ذلك لفي ضحضاح من نار يغلى رأسه من قدميه. فإن قيل : لا يلزم من ذلك موته على الكفر ، لأن كثيرا من عصاة الموحدين يعذب بأكثر من ذلك.
قلنا : من أثبت إسلامه ادعى أن ذلك كان قبيل الاحتضار ، فالإسلام جب ما قبله ، وتلك الدقيقة التي صار فيها من المسلمين لا تحتمل من المعاصي ما يوجب ذلك ، والله أعلم.

[سورة المؤمنون (23) : آية 71]

وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْناهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ(71)

دل بهذا على عظم شأن الحق ، وأنّ السماوات والأرض ما قامت ولا من فيهن إلا به ، فلو اتبع أهواءهم لانقلب باطلا ، ولذهب ما يقوم به العالم فلا يبقى له بعده قوام. أو أراد أنّ الحق الذي جاء به محمد صلى اللَّه عليه وسلم وهو الإسلام ، لو اتبع أهواءهم وانقلب شركا ، لجاء اللَّه بالقيامة ولأهلك العالم ولم يؤخر. وعن قتادة : أنّ الحق هو اللَّه. ومعناه : ولو كان اللَّه إلها يتبع أهواءهم ويأمر بالشرك والمعاصي ، لما كان إلها ولكان شيطانا ، ولما قدر أن يمسك السماوات والأرض بِذِكْرِهِمْ أى بالكتاب الذي هو ذكرهم ، أى : وعظهم أو وصيتهم وفخرهم : أو بالذكر الذي كانوا يتمنونه ويقولون : لو أنّ عندنا ذكرا من الأوّلين لكنا عباد اللَّه المخلصين. وقرئ : بذكراهم.

[سورة المؤمنون (23) : آية 72]

أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَراجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (72)

قرئ : خراجا فخراج. وخرجا فخرج. وخرجا فخراج : وهو ما تخرجه إلى الإمام من زكاة أرضك ، وإلى كل عامل من أجرته وجعله. وقيل : الخرج : ما تبرعت به. والخراج : ما لزمك أداؤه.

والوجه أنّ الخرج أخص من الخراج ، كقولك : خراج القرية ، وخرج الكردة ، زيادة اللفظ لزيادة المعنى ، ولذلك حسنت قراءة من قرأ : خرجا فخراج ربك ، يعنى : أم تسألهم على هدايتك لهم قليلا من عطاء الخلق ، فالكثير من عطاء الخالق خير.

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 73 إلى 74]

وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (73) وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّراطِ لَناكِبُونَ (74)

قد ألزمهم الحجة في هذه الآيات وقطع معاذيرهم وعللهم بأن الذي أرسل إليهم رجل معروف أمره وحاله ، مخبور سرّه وعلنه ، خليق بأن يجتبى مثله للرسالة من بين ظهرانيهم ، وأنه لم يعرض له «1» حتى يدعى بمثل هذه الدعوى العظيمة بباطل ، ولم يجعل ذلك سلما إلى النيل من دنياهم واستعطاء أموالهم ، ولم يدعهم إلا إلى دين الإسلام الذي هو الصراط المستقيم ، مع إبراز المكنون من أدوائهم وهو إخلالهم بالتدبر والتأمل ، واستهتارهم «2» بدين الآباء الضلال من غير برهان ،

(1). قوله «لم يعرض» لعله : لم يعرض له جنون. (ع)
(2). قوله «و استهتارهم بدين الآباء الضلال» في الصحاح : فلان مستهتر بالشراب ، أى : مولع به لا يبالى ما قيل فيه. (ع)

وتعللهم بأنه مجنون بعد ظهور الحق وثبات التصديق من اللَّه بالمعجزات والآيات النيرة ، وكراهتهم للحق ، وإعراضهم عما فيه حظهم من الذكر ، يحتمل أنّ هؤلاء وصفتهم أنهم لا يؤمنون بالآخرة لَناكِبُونَ أى عادلون عن هذا الصراط المذكور ، وهو قوله إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ وأن كل من لا يؤمن بالآخرة فهو عن القصد ناكب. لما أسلم ثمامة بن أثال الحنفي ولحق باليمامة ومنع الميرة من أهل مكة وأخذهم اللَّه بالسنين حتى أكلوا العلهز «1» ، جاء أبو سفيان إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فقال له : أنشدك اللَّه والرحم ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين فقال : بلى. فقال قتلت الآباء بالسيف ، والأبناء بالجوع.

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 75 إلى 77]

وَلَوْ رَحِمْناهُمْ وَكَشَفْنا ما بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (75) وَلَقَدْ أَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ فَمَا اسْتَكانُوا لِرَبِّهِمْ وَما يَتَضَرَّعُونَ (76) حَتَّى إِذا فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً ذا عَذابٍ شَدِيدٍ إِذا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (77)

والمعنى : لو كشف اللَّه عنهم هذا الضرّ وهو الهزال والقحط الذي أصابهم برحمته عليهم ووجدوا الخصب ، لارتدوا إلى ما كانوا عليه من الاستكبار وعداوة رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم والمؤمنين وإفراطهم فيها ، ولذهب عنهم هذا الإبلاس وهذا التملق بين يديه ويسترحمونه ، واستشهد على ذلك بأنا أخذناهم أوّلا بالسيوف وبما جرى عليهم يوم بدر من قتل صناديدهم وأسرهم ، فما وجدت منهم بعد ذلك استكانة ولا تضرع ، حتى فتحنا عليهم باب الجوع الذي هو أشدّ من الأسر والقتل وهو أطم العذاب ، فأبلسوا الساعة وخضعت رقابهم ، وجاء أعتاهم وأشدّهم شكيمة في العناد يستعطفك. أو محناهم بكل محنة من القتل والجوع فما رئي فيهم لين مقادة وهم كذلك ، حتى إذا عذبوا بنار جهنم فحينئذ يبلسون ، كقوله وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ، لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ

(1). قوله «حتى أكلوا العلهز» في الصحاح «الملهز» بالكسر : طعام كانوا يتخذونه من الدم ووبر البعير في سنى المجاعة. (ع)
(2). قال محمود : «استكان استفعل من الكون ، أى : انتقل من كون إلى كون ، كما يقال : استحال ، إذا انتقل من حال إلى حال» قال أحمد : هذا التأويل أسلم وأحق من تأويل من اشتقه من السكون وجعله افتعل ، ثم أشبعت الفتحة فتولدت الألف كتولدها في قوله
ينباع من ذفرى غضوب جسرة
فان هذا الاشباع ليس بفصيح ، وهو من ضرورات الشعر ، فينبغي أن ترفع منزلة القرآن عن ورود مثله فيه ، لكن تنظير الزمخشري له باستحال : وهم ، فان استكان على تأويله أحد أقسام استفعل ، الذي معناه التحول ، كقولهم : استحجر الطين ، واستنوق الجمل. وأما استحال فثلاثيه حال يحول ، إذا انتقل من حال إلى حال ، وإذا كان الثلاثي يفيد معنى التحول لم يبق لصيغة استفعل فيها أثر ، فليس استحال من استفعل للتحول. ولكنه من استفعل بمعنى فعل ، وهو أحد أقسامه ، إذ لم يزد السداسى فيه على الثلاثي معنى ، واللّه أعلم.
ثم نعود إلى تأويله فنقول : المعنى عليه : فما انتقلوا من كون التكبر والتجبر والاعتياص إلى كون الخضوع والضراعة إلى اللّه تعالى.
ولقائل أن يقول : استكان يفيد على التأويل المذكور الانتقال من كون إلى كون ، فليس حمله على أنه انتقال عن التكبر إلى الخضوع بأولى من العكس. وترى هذه الصيغة لا تفهم إلا أحد الانتقالين ، فلو كانت مشتقة من مطلق الكون لكانت مجملة محتملة للانتقالين جميعا. والجواب أن أصلها كذلك على الإطلاق ، ولكن غلب العرف على استعمالها في الانتقال الخاص كما غلب في غيرها ، واللّه أعلم. وكان جدي أبو العباس أحمد بن فارس الفقيه الوزير رحمه اللّه يذكر لي أنه لما دخل بغداد زمن الامام الناصر رضى اللّه عنه ، أظهر من جملة كراماته له : أن جمع له الوزير جميع علماء بغداد وعقد بهم محفلا للمناظرة ، وكان يذكر لي أن مما انجر الكلام إليه حينئذ هذه الآية ، وأن أحدهم وكان يعرف بالأجل اللغوي خصه الوزير بالسؤال عنها فقال : وهو مشتق من قول العرب : كنت لك إذا خضعت ، وهي لغة هذلية فاستحسن منه ذلك. قال أحمد : وقد وقفت عليها بعد ذلك في غريب أبى عبيد المروي وهو أحسن محامل الآية وأسلمها ، واللّه أعلم. وعلى هذا يكون من استفعل بمعنى فعل ، كقولهم : استقر واستعلى ، وحال واستحال على ما مر.
وقد قال لي بعضهم يوما : لم لا تجعله على هذا التأويل من استفعل المبنى للمبالغة. مثل استحسر واستعصم من حسر وعصم ، فقلت : لا يسعني ذلك : لأن المعنى يأباه ، وذلك أنها جاءت في النفي والمقصود منها ذم هؤلاء بالجفوة والقسوة وعدم الخضوع ، مع ما يوجب نهاية الضراعة من أخذهم بالعذاب ، فلو ذهبت إلى جعلها للمبالغة أفادت نقص المبالغة ، لأن نفى الأبلغ أدنى من نفى الأدنى. وكأنهم على ذلك ذموا بنفي الخضوع الكثير ، وأنهم ما بلغوا في الضراعة نهايتها ، وليس الواقع ، فإنهم ما اتسموا بالضراعة ولا بلظة منها ، فكيف تنفى عنهم النهاية الموهمة لحصول البداية ، واللّه أعلم.

أى : انتقل من كون إلى كون ، كما قيل : استحال ، إذا انتقل من حال إلى حال. ويجوز أن يكون افتعل من السكون أشبعت فتحة عينه ، كما جاء : بمنتزاح «1». فإن قلت : هلا قيل : وما تضرعوا. أو : فما يستكينون؟ قلت : لأنّ المعنى : محناهم فما وجدت منهم عقيب المحنة استكانة. وما من عادة هؤلاء أن يستكينوا ويتضرعوا حتى يفتح عليهم باب العذاب الشديد. وقرئ : فتحنا.

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 78 إلى 80]

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ (78) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (79) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (80)

إنما خصّ السمع والأبصار والأفئدة ، لأنه يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية ما لا يتعلق بغيرها. ومقدمة منافعها أن يعملوا أسماعهم وأبصارهم في آيات اللّه وأفعاله ، ثم ينظروا ويستدلوا بقلوبهم.

(1). قوله «كما جاء بمنتزاح» أى في قوله :
وأنت من الغوائل حين ترمى وعن ذم الرجال بمنتزاح
اه عليان قلت : وقد تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثاني صفحة 464 فراجعه إن شئت اه مصححه. [.....]

ومن لم يعملها فيما خلقت له فهو بمنزلة عادمها ، كما قال اللّه تعالى فَما أَغْنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إذ كانوا يجحدون بآيات اللّه ، ومقدمة شكر النعمة فيها الإقرار بالمنعم بها ، وأن لا يجعل له ندّ ولا شريك ، أى : تشكرون شكرا قليلا ، وما مزيدة للتأكيد بمعنى حقا ذَرَأَكُمْ خلقكم وبثكم بالتناسل وَإِلَيْهِ تجمعون يوم القيامة بعد تفرّقكم وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ أى هو مختص به وهو متوليه ، ولا يقدر على تصريفهما غيره. وقرئ : يعقلون ، بالياء عن أبى عمرو.

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 81 إلى 83]

بَلْ قالُوا مِثْلَ ما قالَ الْأَوَّلُونَ (81) قالُوا أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (82) لَقَدْ وُعِدْنا نَحْنُ وَآباؤُنا هذا مِنْ قَبْلُ إِنْ هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (83)

أى : قال أهل مكة كما قال الكفار قبلهم. الأساطير : جمع أسطار : جمع سطر.

قال رؤبة :

إنّى وأسطار سطرن سطرا «1»

وهي ما كتبه الأوّلون مما لا حقيقة له. وجمع أسطورة أوفق.

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 84 إلى 89]

قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيها إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (84) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (85) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (86) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (87) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (88)سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (89)

(1) إنى واسطار سطرن سطرا لقائل يا نصر نصر نصرا
لرؤبة بن العجاج. والمراد بالأسطار : الكتابة ، وهي جمع سطر بالتحريك ، وأصله مصدر كالساكن الوسط.
وسطرن : مبنى للمجهول. وسطرا : مصدر. ولقائل : خبر «إنى» وما بينهما جملة قسمية اعتراضية. ونصر : مبنى على الضم ، وهو ابن سيار ملك خراسان. ونصر الثاني توكيد لفظي ، مرفوع على اللفظ. والثالث كذلك نصب على المحل لأنه كان مفردا معرفة لأنه تابع. أو هو مصدر نائب عن فعله. أى انصرني نصرا. وقيل «نضر» الثاني بالضاد المعجمة على أنه علم لصاحب نصر الأول، فهو على حذف العاطف. عن أبى عبيدة : والمنقول أن الذي بالضاد المعجمة هو الثالث ، كان حاجبا لنصر ، واشتكاه له الشاعر فنصبه على الإغراء. والمعنى على الأول :
وحق الكتاب المسطور إنى لمستغيث به لا بغيره.

أى أجيبونى عما استعلمتكم منه «1» إن كان عندكم فيه علم ، وفيه استهانة بهم وتجويز لفرط جهالتهم بالديانات: أن يجهلوا مثل هذا الظاهر البين. وقرئ : تذكرون ، بحذف التاء الثانية «2» ومعناه : أفلا تتذكرون فتعلموا أنّ من فطر الأرض ومن فيها اختراعا ، كان قادرا على إعادة الخلق ، وكان حقيقا بأن لا يشرك به بعض خلقه في الربوبية. قرئ : الأوّل ، باللام لا غير.

والأخيران باللام ، وهو هكذا في مصاحف أهل الحرمين والكوفة والشام ، وبغير اللام وهو هكذا في مصاحف أهل البصرة ، فباللام على المعنى ، لأن قولك من ربه ، ولمن هو في معنى واحد ، وبغير اللام على اللفظ. ويجوز قراءة الأوّل بغير لام ، ولكنها لم تثبت في الرواية أَفَلا تَتَّقُونَ أفلا تخافونه فلا تشركوا به وتعصوا رسله. أجرت فلانا على فلان : إذا أغثته منه ومنعته ، يعنى : وهو يغيث من يشاء ممن يشاء ، ولا يغيث أحد منه أحدا تُسْحَرُونَ تخدعون عن توحيده وطاعته. والخادع : هو الشيطان والهوى.

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 90 إلى 92]

بَلْ أَتَيْناهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (90) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (91) عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (92)

وقرئ : أتيتهم وأتيتهم ، بالفتح والضم بِالْحَقِّ بأن نسبة الولد إليه محال والشرك باطل وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ حيث يدعون له ولدا ومعه شريكا لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ لا نفرد كل واحد من الآلهة بخلقه الذي خلقه واستبدّ به ، ولرأيتم ملك كل واحد منهم متميزا من ملك الآخرين ، ولغلب بعضهم بعضا كما ترون حال ملوك الدنيا ممالكهم متمايزة وهم متغالبون ، وحين لم تروا أثرا لتمايز الممالك وللتغالب ، فاعلموا أنه إله واحد بيده ملكوت كل شيء. فإن قلت : إذا لا تدخل إلا على كلام هو جزاء وجواب ، فكيف وقع قوله لذهب جزاء وجوابا ولم يتقدّمه شرط ولا سؤال سائل؟ قلت : الشرط محذوف تقديره : ولو كان معه آلهة. وإنما حذف لدلالة قوله : وَما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ عليه. وهو جواب لمن معه المحاجة من المشركين عَمَّا يَصِفُونَ من الأنداد والأولاد عالِمِ الْغَيْبِ بالجرّ صفة للّه. وبالرفع : خبر مبتدإ محذوف.

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 93 إلى 95]

قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي ما يُوعَدُونَ (93) رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (94) وَإِنَّا عَلى أَنْ نُرِيَكَ ما نَعِدُهُمْ لَقادِرُونَ (95)

(1). قوله «عما استعلمتكم منه» لعله «عنه». (ع)
(2). قوله «و قرئ «تذكرون» بحذف التاء الثانية» يفيد أن القراءة المشهورة «تذكرون» بالتشديد. (ع)

ما والنون : مؤكدتان ، أى : إن كان لا بد من أن تريني ما تعدهم من العذاب في الدنيا أو في الآخرة فَلا تَجْعَلْنِي قرينا لهم ولا تعذبني بعذابهم. عن الحسن : أخبره الله أن له في أمته نقمة ولم يخبره أفى حياته أم بعد موته ، فأمره أن يدعو بهذا الدعاء. فإن قلت : كيف يجوز أن يجعل الله نبيه المعصوم مع الظالمين ، حتى يطلب أن لا يجعله معهم؟ قلت : يجوز أن يسأل العبد ربه ما علم أنه يفعله ، وأن يستعيذ به مما علم أنه لا يفعله ، إظهارا للعبودية وتواضعا لربه ، وإخباتا له. واستغفاره صلى الله عليه وسلم إذا قام من مجلسه سبعين مرة أو مائة مرة لذلك ، وما أحسن قول الحسن في قول أبى بكر الصديق رضى الله عنهما «وليتكم ولست بخيركم : كان يعلم أنه خيرهم ، ولكن المؤمن يهضم نفسه. وقرئ : إما ترئنهم ، بالهمز «1» مكان تريني ، كما قرئ : فإما ترئن ، ولترؤن الجحيم. وهي ضعيفة. وقوله رَبِّ مرتين قبل الشرط وقبل الجزاء ، حث على فضل تضرع وجؤار. كانوا ينكرون الموعد بالعذاب ويضحكون منه واستعجالهم له لذلك ، فقيل لهم : إن الله قادر على إنجاز ما وعد إن تأملتم ، فما وجه هذا الإنكار؟

[سورة المؤمنون (23) : آية 96]

ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَصِفُونَ (96)

هو أبلغ من أن يقال : بالحسنة السيئة ، لما فيه من التفضيل ، كأنه قال : ادفع بالحسنى السيئة.

والمعنى : الصفح عن إساءتهم ومقابلتها بما أمكن من الإحسان ، حتى إذا اجتمع الصفح والإحسان وبذل الاستطاعة فيه : كانت حسنة مضاعفة بإزاء سيئة. وهذه قضية قوله بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ «2» وعن ابن عباس رضى الله عنهما : هي شهادة أن لا إله إلا الله. والسيئة : الشرك.

(1). قوله «و قرئ إما ترئنهم بالهمزة» في نسخة أخرى : إما ترئنى بالهمز ، كما قرئ .. ، الخ ، (ع)
(2). قال محمود : «هذا أبلغ من أن يقال : ادفع بالحسنة السيئة ، لما فيه من التفضيل كأنه قال : ادفع بالحسنى السيئة ، والمعنى : الصفح عن إساءتهم ومقابلتها بما أمكن من الإحسان ، حتى إذا اجتمع الصفح والإحسان وبذل الاستطاعة فيه ، كانت حسنة مضاعفة بإزاء سيئة ، وهذه قضية قوله : بالتي هي أحسن» قال أحمد : ما ذكره تقريرا للمفاضلة عبارة عن الاشتراك في أمر والتميز بغيره ، ولا اشتراك بين الحسنة والسيئة ، فإنهما ضدان متقابلان ، فكيف تتحقق المفاضلة؟ قلت : المراد أن الحسنة من باب الحسنات ، أزيد من السيئة من باب السيئات ، فتجيء المفاضلة مما هو أعم من كون هذه حسنة وهذه سيئة. وذلك شأن كل مفاضلة بين ضدين ، كقولهم: العسل أحلى من الخل ، يعنون أنه في الأصناف الحلوة أميز من الخل في الأصناف الحامضة. وليس لأن بينهما اشتراكا خاصا.
ومن هذا القبيل ما يحكى عن أشعب الماجن أنه قال. نشأت أنا والأعمش في حجر فلان ، فما زال يعلو وأسفل حتى استوينا ، بمعنى أنهما استويا في بلوغ كل منهما الغاية : أشعب بلغ الغاية على السفلة. والأعمش : بلغ الغاية على العلية ، هذا تفسير كلامه عن نفسه ، ونعود إلى الآية فنقول : هي تحتمل وجها آخر من التفضيل أقرب متناولا :
وهو أن تكون المفاضلة بين الحسنات التي تدفع بها السيئة ، فإنها قد تدفع بالصفح والاغضاء ، ويقنع في دفعها بذلك ، وقد يزاد على الصفح الإكرام وقد تبلغ غايته ببذل الاستطاعة ، فهذه الأنواع من الدفع كلها دفع بحسنة ، ولكن أحسن هذه الحسنات في الدفع هي الأخيرة ، لاشتمالها على عدد من الحسنات ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بأحسن الحسنات في دفع السيئة. فعلى هذا تجرى المفاضلة على حقيقتها من غير حاجة إلى تأويل ، والله أعلم.
فتأمله فانه حسن جدا.

وعن مجاهد : السلام : يسلم عليه إذا لقيه. وعن الحسن : الإغضاء والصفح. وقيل : هي منسوخة بآية السيف. وقيل : محكمة لأنّ المداراة محثوث عليها ما لم تؤدّ إلى ثلم دين وإزراء بمروءة بِما يَصِفُونَ بما يذكرونه من أحوالك بخلاف صفتها. أو بوصفهم لك وسوء ذكرهم ، والله أعلم بذلك منك وأقدر على جزائهم.

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 97 إلى 98]

وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزاتِ الشَّياطِينِ (97) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (98)

الهمز : النخس. والهمزات : جمع المرّة منه. ومنه : مهماز الرائض. والمعنى أنّ الشياطين يحثون الناس على المعاصي ويغرونهم عليها ، كما تهمز الراضة الدواب حثا لها على المشي. ونحو الهمز الأزّ في قوله تعالى تَؤُزُّهُمْ أَزًّا أمر بالتعوّذ من نخساتهم بلفظ المبتهل إلى ربه ، المكرّر لندائه ، وبالتعوذ من أن يحضروه أصلا ويحوموا حوله. وعن ابن عباس رضى الله عنهما : عند تلاوة القرآن. وعن عكرمة : عند النزع.

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 99 إلى 100]

حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها وَمِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (100)

حَتَّى يتعلق بيصفون ، أى : لا يزالون على سوء الذكر إلى هذا الوقف. والآية فاصلة بينهما على وجه الاعتراض والتأكيد للإغضاء عنهم ، مستعينا بالله على الشيطان أن يستزله عن الحلم ويغريه على الانتصار منهم. أو على قوله : وإنهم لكاذبون «1». خطاب الله بلفظ الجمع للتعظيم ، كقوله : فإن شئت حرّمت النّساء سواكم «2»

وقوله : ألا فارحمونى يا إله محمّد «3»

(1). قوله «أو على قوله : وإنهم لكاذبون» لعله عطف على المعنى ، فكأنه قال فيما مر : حتى رد على قوله يَصِفُونَ. فقال هنا : أو على قوله وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ. (ع)
(2). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثاني صفحة 383 فراجعه إن شئت اه مصححه.
(3) ألا فارحمونى يا إله محمد فان لم أكن أهلا فأنت له أهل
«ألا» استفتاحية دالة على الاهتمام بما يعقبها من الكلام ، وخاطب الاله الواحد الأحد بخطاب الجمع جريا على عادة العرب من خطاب السادة والملوك بذلك تعظما. وقيل : هو إشارة إلى تكرار الفعل للتوكيد ، كأنه قيل :
ارحمني ارحمني ارحمني ، وإضافته إلى محمد صلى الله عليه وسلم للتوسل به إلى الله عز وجل ، فان لم أكن أهلا لهذا الطلب أو المطلوب من الرحمة والرفق» فأنت يا الله أهل له.

إذا أيقن بالموت واطلع على حقيقة الأمر ، أدركته الحسرة على ما فرّط فيه من الإيمان والعمل الصالح فيه ، فسأل ربه الرجعة وقال لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً في الإيمان الذي تركته ، والمعنى : لعلى آتى بما تركته من الإيمان ، وأعمل فيه صالحا ، كما تقول : لعلى أبنى على أس ، تريد : أسس أسا وأبنى عليه. وقيل : فيما تركت من المال. وعن النبي صلى الله عليه وسلم : «إذا عاين المؤمن الملائكة قالوا نرجعك إلى الدنيا ، فيقول : إلى دار الهموم والأحزان! بل قدوما إلى الله. وأمّا الكافر فيقول : رب ارجعون» كَلَّا ردع عن طلب الرجعة ، وإنكار واستبعاد. والمراد بالكلمة : الطائفة من الكلام المنتظم بعضها مع بعض ، وهي قوله : لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ. هُوَ قائِلُها لا محالة ، لا يخليها ولا يسكت عنها لاستيلاء الحسرة عليه وتسلط الندم. أو هو قائلها وحده لا يجاب إليها ولا تسمع منه وَمِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ والضمير للجماعة ، أى : أمامهم حائل بينهم وبين الرجعة إلى يوم البعث ، وليس المعنى : أنهم يرجعون يوم البعث ، وإنما هو إقناط كلى لما علم أنه لا رجعة يوم البعث إلا إلى الآخرة.

[سورة المؤمنون (23) : آية 101]

فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَساءَلُونَ (101)

الصور - بفتح الواو - عن الحسن. والصور - بالكسر والفتح - عن أبى رزين. وهذا دليل لمن فسر الصور بجمع الصورة ، ونفى الأنساب : يحتمل أنّ التقاطع يقع بينهم حيث يتفرّقون معاقبين ومثابين ، ولا يكون التواصل بينهم والتألف إلا بالأعمال ، فتلغوا الأنساب وتبطل ، وأنه لا يعتدّ بالأنساب لزوال التعاطف والتراحم بين الأقارب ، إذ يفرّ المرء من أخيه وأمّه وأبيه وصاحبته وبنيه. وعن ابن مسعود : ولا يساءلون ، بإدغام التاء في السين. فإن قلت : قد ناقض هذا ونحو قوله وَلا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً قوله : وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ «1» وقوله يَتَعارَفُونَ بَيْنَهُمْ فكيف التوفيق بينهما؟ قلت : فيه جوابان ، أحدهما : أنّ يوم القيامة مقداره خمسون ألف سنة ، ففيه أزمنة وأحوال مختلفة يتساءلون ويتعارفون في بعضها ،

(1). قال محمود : «إن قلت قد ناقض هذا قوله : فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون» قال أحمد : يجب أن لا يسلك هذا المسلك في إيراد الأسئلة عن فوائد الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. وسؤال الأدب أن يقال :

وفي بعضها لا يفطنون لذلك لشدّة الهول والفزع «1». والثاني : أنّ التناكر يكون عند النفخة الأولى ، فإذا كانت الثانية قاموا فتعارفوا وتساءلوا.

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 102 إلى 104]

فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (102) وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خالِدُونَ (103) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيها كالِحُونَ (104)

عن ابن عباس : الموازين : جمع موزون؟ وهي الموزونات من الأعمال : أى الصالحات ، التي لها وزن وقدر عند الله ، من قوله تعالى فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً. فِي جَهَنَّمَ خالِدُونَ بدل من خسروا أنفسهم ، ولا محلّ للبدل والمبدل منه ، لأنّ الصلة لا محلّ لها. أو خبر بعد خبر لأولئك.

أو خبر مبتدإ محذوف تَلْفَحُ تسفع. وقال الزجاج : اللفح والنفح واحد ، إلا أنّ اللفح أشدّ تأثيرا. والكلوح : أن تتقلص الشفتان وتتشمرا عن الأسنان ، كما ترى الرءوس المشوية. وعن مالك بن دينار : كان سبب توبة عتبة الغلام أنه مرّ في السوق برأس أخرج من التنور فغشى عليه ثلاثة أيام ولياليهنّ. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه ، وتسترخي شفته السفلى حتى تبلغ سرته «2» وقرئ : كلحون.

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 105 إلى 108]

أَلَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ (105) قالُوا رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا وَكُنَّا قَوْماً ضالِّينَ (106) رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُدْنا فَإِنَّا ظالِمُونَ (107) قالَ اخْسَؤُا فِيها وَلا تُكَلِّمُونِ (108)

غَلَبَتْ عَلَيْنا ملكتنا ، من قولك : غلبني فلان على كذا ، إذا أخذه منك وامتلكه. والشقاوة سوء العاقبة التي علم الله أنهم يستحقونها بسوء أعمالهم. قرئ شِقْوَتُنا وشقاوتنا بفتح الشين وكسرها فيهما اخْسَؤُا فِيها ذلوا فيها وانزجروا كما تنزجر الكلاب إذا زجرت. يقال : خسأ الكلب وخسأ بنفسه «3». وَلا تُكَلِّمُونِ في رفع العذاب ، فإنه لا يرفع ولا يخفف. قيل : هو آخر كلام يتكلمون به ،

---

(1). عاد كلامه إلى جواب السؤال. قال : «وجه الجمع بينهما أن يحمل ذلك على اختلاف موقف القيامة» قال أحمد : وكثيرا ما ينتهز الزمخشري الفرصة في إنكار الشفاعة ويشمر ذيله للرد على القائلين بها إذا انتهى إلى مثل قوله وَلا تَنْفَعُها شَفاعَةٌ ، لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفاعَةٌ. ويتغافل حينئذ عن طريق الجمع بين ما ظاهره نفى الشفاعة وبين ما ظاهره ثبوتها ، بحمل الأمر على اختلاف الأحوال في القيامة ، والله الموفق.
(2). أخرجه الترمذي وأحمد والبيهقي في الشعب من رواية أبى السمح عن الهيثم بن أبى سعيد.
(3). قوله «يقال خسأ الكلب ... الخ» في الصحاح خسأت الكلب وخسأ بنفسه : يتعدى ولا يتعدى. (ع)

ثم لا كلام بعد ذلك إلا الشهيق والزفير والعواء كعواء الكلاب لا يفهمون ولا يفهمون. وعن ابن عباس : إنّ لهم ست دعوات : إذا دخلوا النار قالوا ألف سنة : رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا فيجابون : حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي ، فينادون ألفا رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ ، فيجابون : ذلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ، فينادون ألفا : يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ ، فيجابون : إِنَّكُمْ ماكِثُونَ : فينادون ألفا : رَبَّنا أَخِّرْنا ، فيجابون : أَوَ لَمْ تَكُونُوا ، فينادون ألفا : رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً ، فيجابون : أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ ، فينادون ألفا : رَبِّ ارْجِعُونِ ، فيجابون : اخْسَؤُا فِيها.

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 109 إلى 111]

إِنَّهُ كانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبادِي يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (109) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (110) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِما صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفائِزُونَ (111)

في حرف أبىّ : أنه كان فريق ، بالفتح ، بمعنى : لأنه.

السخرىّ - بالضم والكسر - : مصدر سخر كالسخر ، إلا أن في ياء النسب زيادة قوّة في الفعل ، كما قيل الخصوصية في الخصوص. وعن الكسائي والفراء : أنّ المكسور من الهزء ، والمضموم من السخرة والعبودية، أى : تسخروهم واستعبدوهم ، والأوّل مذهب الخليل وسيبويه. قيل : هم الصحابة وقيل أهل الصفة خاصة. ومعناه : اتخذتموهم هزؤا وتشاغلتم بهم ساخرين حَتَّى أَنْسَوْكُمْ بتشاغلكم بهم على تلك الصفة ذِكْرِي فتركتموه ، أى : تركتم أن تذكرونى فتخافونى في أوليائى. وقرئ أَنَّهُمْ بالفتح ، فالكسر استئناف ، أى : قد فازوا حيث صبروا ، فجزوا بصبرهم أحسن الجزاء. وبالفتح على أنه مفعول جزيتهم ، كقولك : جزيتهم فوزهم.

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 112 إلى 114]

قالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (112) قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعادِّينَ (113) قالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (114)

قالَ في مصاحف أهل الكوفة. وقل : في مصاحف أهل الحرمين والبصرة والشام ، ففي قالَ ضمير الله أو المأمور بسؤالهم من الملائكة ، وفي «قل» ضمير الملك أو بعض رؤساء أهل النار.

استقصروا مدّة لبثهم في الدنيا بالإضافة إلى خلودهم ولما هم فيه من عذابها ، لأن الممتحن يستطيل أيام محنته ويستقصر ما مرّ عليه من أيام الدعة إليها. أو لأنهم كانوا في سرور ، وأيام السرور قصار ، أو لأنّ المنقضى في حكم ما لم يكن ، وصدقهم الله في مقالهم لسنى لبثهم في الدنيا ووبخهم على غفلتهم التي كانوا عليها. وقرئ فَسْئَلِ الْعادِّينَ والمعنى : لا نعرف من عدد تلك السنين إلا أنا نستقله ونحسبه يوما أو بعض يوم ، لما نحن فيه من العذاب ، وما فينا أن نعدّها ، فسل من فيه أن يعدّ ، ومن يقدر أن يلقى إليه فكره. وقيل : فسل الملائكة الذين يعدّون أعمار العباد ويحصون أعمالهم. وقرئ : العادين ، بالتخفيف ، أى : الظلمة ، فإنهم يقولون كما نقول. وقرئ : العاديين ، أى : القدماء المعمرين ، فإنهم يستقصرونها ، فكيف بمن دونهم؟ وعن ابن عباس : أنساهم ما كانوا فيه من العذاب بين النفختين.

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 115 إلى 118]

أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ (115) فَتَعالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (116) وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ لا بُرْهانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّما حِسابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ (117) وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (118)

عَبَثاً حال ، أى : عابثين ، كقوله لاعِبِينَ أو مفعول له ، أى : ما خلقناكم للعبث ، ولم يدعنا إلى خلقكم إلا حكمة اقتضت ذلك ، وهي : أن نتعبدكم ونكلفكم المشاق من الطاعات وترك المعاصي ، ثم نرجعكم من دار التكليف إلى دار الجزاء ، فنثيب المحسن ونعاقب المسيء وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ معطوف على أَنَّما خَلَقْناكُمْ ويجوز أن يكون معطوفا على عَبَثاً أى : للعبث ، ولتركِكم غير مرجوعين. وقرئ تُرْجَعُونَ بفتح التاء «1» الْحَقُّ الذي يحق له الملك ، لأن كل شيء منه وإليه. أو الثابت الذي لا يزول ولا يزول ملكه. وصف العرش بالكرم لأن الرحمة تنزل منه والخير والبركة. أو لنسبته إلى أكرم الأكرمين ، كما يقال : بيت كريم ، إذا كان ساكنوه كراما. وقرئ. الكريم ، بالرفع. ونحوه : ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ. لا بُرْهانَ لَهُ بِهِ كقوله ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وهي صفة لازمة ، نحو قوله يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ جيء بها للتوكيد لا أن يكون في الآلهة ما يجوز أن يقوم عليه برهان «2». ويجوز أن يكون اعتراضا بين الشرط والجزاء ،

(1). قوله «و قرئ ترجعون بفتح التاء» عبارة النسفي : بفتح التاء وكسر الجيم. (ع)
(2). قال محمود : «لا برهان له به : إما صفة لازمة ، أو كلام معترض لأن في الصفة إفهاما لأن إلها سوى الله يمكن أن يكون به برهان» قال أحمد : إن كان صفة فالمقصود بها التهكم بمدعى إله مع الله ، كقوله بِما أَشْرَكُوا بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً فنفى إنزال السلطان به وإن لم يكن في نفس الأمر سلطان ولا غير منزل ، ومن جنس مجيء الجملة بعد النكرة وصرفها عن أن تكون صفة لها : ما قدمه عند قوله تعالى فَاجْعَلْ بَيْنَنا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ حيث أعرب الزمخشري موعدا مصدرا ناصبا لمكانا سوى ، واعترضه بأن المصدر الموصوف لا يعمل إلا على كره ، واعتذرت عنه بصرف الجملة عن أن تكون صفة وجعلها معترضة مؤكدة لمعنى الكلام ، والله أعلم. [.....]

كقولك : من أحسن إلى زيد لا أحق بالإحسان منه ، فالله مثيبه. وقرئ : أنه لا يفلح بفتح الهمزة. ومعناه : حسابه عدم الفلاح ، والأصل : حسابه أنه لا يفلح هو ، فوضع الكافرون موضع الضمير ، لأنّ مَنْ يَدْعُ في معنى الجمع ، وكذلك حِسابُهُ ... إِنَّهُ لا يُفْلِحُ في معنى «حسابهم أنهم لا يفلحون».

جعل فاتحة السورة قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ وأورد في خاتمتها إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة.
عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «من قرأ سورة المؤمنون بشرته الملائكة بالروح والريحان وما تقرّ به عينه عند نزول ملك الموت «1».

وروى : أنّ أوّل سورة قد أفلح وآخرها من كنوز العرش ، من عمل بثلاث آيات من أوّلها ، واتعظ بأربع آيات من آخرها : فقد نجا وأفلح «2» وعن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه : كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إذا نزل عليه الوحى يسمع عنده دوىّ كدوىّ النحل ، فمكثنا ساعة ، فاستقبل القبلة ورفع يده وقال : «اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وارض عنا وأرضنا» ثم قال «لقد أنزلت علىّ عشر آيات من أقامهنّ دخل الجنة» ثم قرأ : قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ حتى ختم العشر «3».

---

(1). تقدمت أسانيده.
(2). لم أجده.
(3). أخرجه الترمذي والنسائي ، وعبد الرزاق ، والحاكم وأحمد وإسحاق وابن أبى شيبة ، وعبد. كلهم من رواية يونس بن سليم الصنعاني عن يونس عن الزهري عن عروة عن عبد الرحمن بن عبد عن عمر. قال النسائي : هذا حديث منكر. تفرد به يونس بن سليم ولا أعرفه. وقال ابن أبى حاتم عن أبيه لا أعرفه ولا أعرف هذا الحديث عن الزهري وقال الترمذي [كذا بياض بالأصل] : وقال العقيلي لا يتابع عليه يونس بن سليم ولا يعرف إلا به ، وبنحوه قال ابن عدى. وسئل عبد الرزاق عن شيخه يونس بن سليم هذا فقال : أظنه لا شي ء

سورة النور

مدنية ، وهي اثنتان وستون آية. وقيل : أربع وستون [نزلت بعد الحشر]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة النور (24) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنْزَلْناها وَفَرَضْناها وَأَنْزَلْنا فِيها آياتٍ بَيِّناتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (1)

سُورَةٌ خبر مبتدإ محذوف. وأَنْزَلْناها صفة. أو هي مبتدأ موصوف والخبر محذوف ، أى : فيما أوحينا إليك سورة أنزلناها. وقرئ بالنصب على : زيدا ضربته ، ولا محل لأنزلناها ، لأنها مفسرة للمضمر فكانت في حكمه. أو على : دونك سورة أو اتل سورة. وأنزلناها : صفة. ومعنى فَرَضْناها فرضنا أحكامها التي فيها. وأصل الفرض : القطع ، أى : جعلناها واجبة مقطوعا بها ، والتشديد للمبالغة في الإيجاب وتوكيده. أو لأنّ فيها فرائض شتى ، وأنك تقول : فرضت الفريضة ، وفرّضت الفرائض. أو لكثرة المفروض عليهم من السلف ومن بعدهم تَذَكَّرُونَ بتشديد الذال وتخفيفها ، رفعهما على الابتداء ، والخبر محذوف عند الخليل وسيبويه ، على معنى: فيما فرض عليكم.

[سورة النور (24) : آية 2]

الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ واحِدٍ مِنْهُما مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذابَهُما طائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (2)

الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي أى جلدهما. ويجوز أن يكون الخبر : فَاجْلِدُوا ، وإنما دخلت الفاء لكون الألف واللام بمعنى الذي وتضمينه معنى الشرط «1» ، تقديره : التي زنت ، والذي زنى فاجلدوهما ،

---

(1). قال محمود : «في الرفع وجهين ، أحدهما : الابتداء والخبر محذوف ، وهو إعراب الخليل وسيبويه. والتقدير : وفيما فرض عليكم الزانية والزاني ، أى : جلدهما. الثاني : أن يكون الخبر فاجلدوا ، ودخلت الفاء لكون الألف واللام بمعنى الذي وقد ضمن معنى الشرط» قال أحمد : وإنما عدل سيبويه إلى هذا الذي نقله عنه لوجهين :
لفظي ومعنوي. أما اللفظي فلأن الكلام أمر وهو يخيل اختيار النصب ، ومع ذلك قراءة العامة ، فلو جعل فعل الأمر خبرا وبنى المبتدأ عليه لكان خلاف المختار عند الفصحاء ، فالتجأ إلى تقدير الخبر حتى لا يكون المبتدأ مبنيا على الأمر ، فخلص من مخالفة الاختيار ، وقد مثلهما سيبويه في كتابه بقوله تعالى مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيها أَنْهارٌ ... الآية ووجه التمثيل أنه صدر الكلام بقوله مَثَلُ الْجَنَّةِ ولا يستقيم جزما أن يكون قوله فِيها أَنْهارٌ خبره ، فتعين تقدير خبره محذوفا. وأصله : فيما نقص عليكم مثل الجنة ، ثم لما كان هذا إجمالا لذكر المثل فصل بقوله فِيها أَنْهارٌ إلى آخرها ، فكذلك هاهنا ، كأنه قال : وفيما فرض عليكم شأن الزانية والزاني ، ثم فصل هذا المجمل بما ذكر من أحكام الجلد ، ويناسب هذا ترجمة الفقهاء في كتبهم حيث يقولون مثلا : الصلاة ، الزكاة ، السرقة.
ثم يذكرون في كل باب أحكامه ، يريدون مما يصنف فيه ويبوب عليه : الصلاة ، وكذلك غيرها ، فهذا بيان المقتضى عند سيبويه ، لاختيار حذف الخبر من حيث الصناعة اللفظية. وأما من حيث المعنى فهو أن المعنى أتم وأكمل على حذف الخبر ، لأن يكون قد ذكر حكم الزانية والزاني مجملا حيث قال : الزانية والزاني وأراد : وفيما فرض عليكم حكم الزانية والزاني ، فلما تشوف السامع إلى تفصيل هذا المجمل ذكر حكمهما مفصلا ، فهو أوقع في النفس من ذكره أول وهلة ، والله أعلم.

كما تقول : من زنى فاجلدوه ، وكقوله وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَناتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَداءَ فَاجْلِدُوهُمْ وقرئ بالنصب على إضمار فعل يفسره الظاهر ، وهو أحسن من سورة أنزلناها لأجل الأمر. وقرئ : والزان ، بلا ياء. والجلد : ضرب الجلد ، يقال : جلده ، كقولك : ظهره وبطنه ورأسه. فإن قلت : أهذا حكم جميع الزناة والزواني ، أم حكم بعضهم؟

قلت : بل هو حكم من ليس بمحصن منهم ، فإنّ المحصن حكمه الرجم. وشرائط الإحصان عند أبى حنيفة ست : الإسلام ، والحرية ، والعقل ، والبلوغ ، والتزوج بنكاح صحيح ، والدخول.

إذا فقدت واحدة منها فلا إحصان. وعند الشافعي : الإسلام ليس بشرط ، لما روى أنّ النبي صلى الله عليه وسلم رجم يهوديين زنيا «1». وحجة أبى حنيفة قوله صلى الله عليه وسلم «من أشرك بالله فليس بمحصن «2»»

(1). متفق عليه من حديث ابن عمر رضى الله عنهما
(2). أخرجه إسحاق والدارقطني تفرد برفعه إسحاق. قلت : قال إسحاق في مسنده أن شيخه حدثه به مرة أخرى موقوفا.
(3). متفق عليه من حديث عائشة رضى الله عنها.